الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمـــــــــــير عبد القادر
للعلوم الإسلامـــــــية ـ قسنطينة ـ
الرقم الترتيبي:...../.....

كلية الآداب والحضارة الإسلامية
قســـم اللغـــــــة العربيـــــة

الجملة في الرّبع الأخير من القرآن الكريم

– دراسة نحوية بلاغية –

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في
اللغة العربية
شعبة اللغة والدراسات
القرآنية

إعداد الطالب:
عبيدلي أحمد

إشراف:
الأستاذ الدكتور: رابح دوب

السنة الجامعية : 1431 – 1432 هـ
2011-2012 م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية - قسنطينة -
الرقم الترتيبي:........./...............

كلية الآداب والحضارة الإسلامية
قسم اللغة العربية

الجملة في الرّبع الأخير من القرآن الكريم

- دراسة نحوية بلاغية -

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة العربية
شعبة اللغة والدراسات القرآنية

إعداد الطالب:
عبيدلي أحمد

إشراف الأستاذ الدكتور:
رابح دوب

أعضاء اللجنة	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس	صالح خديش	أستاذ التعليم العالي	جامعة خنشلة
المقرر	رابح دوب	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر.قسنطينة
العضو	ناصر لوحيشي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر.قسنطينة
العضو	ادريس حمروش	أستاذ محاضر (أ)	المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة
العضو	لخضر روبحي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة المسيلة

السنة الجامعية : 1431 – 1432 هـ
2011-2012 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر

قال تعالى: ﴿أَنِ أشْكُر لِي وَلِوَالِدَيكَ﴾

فالشكر لله على نعمه وآلائه، وفضله وإحسانه

ومن أعظم النعم نعمة الإسلام، ببعثه لسيّد الأنام عليه الصلاة والسلام

فتكاملت بنصحه الأخلاق وحَسُنَت الأيّام

ثمّ الشكر إلى من جعل الله شكرهما من شكره والديّ الكريمين على ما بذلا من جهد في تربيتي وإرشادي فجزاهما الله عنّي خير جزائه،ووفّقني إلى الإحسان إليهما

وامتثالا لقوله صلّى الله عليه وسلّم: ﴿لا يشكر الله من لا يشكر الناس﴾

أشكر كل الذين ساعدوني على إنجاز هذا البحث بمساهمتهم المادية أو المعنوية

وأخصّ بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور رابح دوب،

و الصديق الزميل الدكتور أحمد كامش، وأخويّ الكريمين عبد الحفيظ وعبد الرّحمن

وبقية الزملاء

فشكر الله سعي هؤلاء وأجزل مثوبتهم وهداهم إلى ما فيه خيرهم ورضاه

أحمد عبيدلي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مُقَدِّمَةٌ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقـــــــــــــدمة

لقد نزل القرآن باللغة العربية فأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها، وجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، بما تناول فيها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركّبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحوُّل البنى والتراكيب، فأظهرها بمظهر لا يُقضى العجب منه، وجلاّها على التاريخ كلّه، فأخرص جيلا تناهى في الكبرياء بها، وأصبغ عليها من كل حسن بديع، حتى لم يدر هؤلاء الغرّر أكانوا يسمعون شعرا أم سحرا، أم خطابا معجزا ترتسم فيه معالم الخلود إلى حين اليوم الموعود.

ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث محاولة لكشف بعض خبايا بُنى النص القرآني وتراكيبه، وما أُودع فيها من أسرار الدلائل وعيون المعاني، ذلك أنّ إشكالية هذا البحث هي من قبيل القديم المتجدّد، وإن خرجت في كل عصر بحسب اصطلاحات أهله، فقد تناولها القدامى في بحثهم لعلاقة المعنى باللّفظ والمبنى، وكما تكلّم فيها الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظريته المعروفة باسم (النظم)، ومن ثَمَّ أردت أن أجيب في هذا البحث عن معضلة تتعلّق بما سبق، والتي يمكن أن نسوقها في السؤال الآتي:

– ما أثر التركيب النحوي للجملة القرآنية في الربع الأخير في توجيه الدلالة بصورة عامة؟ وما يترتب عن هذا السؤال من أسئلة فرعية، وما يمكن أن يضيفه تركيب الجملة من معان تكميلية أو ثانوية من شأنها أن تبرز الفرق بين البُنى التي تظهر أنّ لها نفس المضمون، أو تلك التي يتقارب منوالها التركيبي بصفة أخص؟ وهل يلتزم في النمط الواحد من التركيب نفس الدلالة البلاغية؟ وما الفرق بين التركيب الاسمي والفعلي المثبت منهما والمنفي في آداء المعنى؟ والأمر نفسه بالنسبة للمفردة باعتبارها هي الأخرى إحدى أهم عناصر البناء اللغوي من جهة، وباعتبارها مستودعا تختزن فيه المعاني، وعنصرا جماليا فاعلا في الخطاب من جهة ثانية، فهي وإن لم تخرج عن أعلى طبقات اللغة، ولا برزت عن وجوه العادة في تصريفها، غير أنها أتت من وراء النفس، واستغرقت منافذ الحس، ومن ثَمّ فقد اكتسبت بعدا بلاغيا وإبلاغيا يجعل منها حقلا خصبا للدراسة، وللتساؤل عن ذلك السر، فما أثر دلالة المفردة في توضيح المعنى ؟

ثمّ إنّنا نحاول على ضوء هذا البحث أن نميط اللّثام عمّا يجمع بين النحو والبلاغة من وشائج، فتغدو من خلاله كيانا لغويا موحّدا، هدفه الأسمى بيان الدّلالـــة بأفـــضل طريـــق وأحسن حلّة.

ونظرا لما اتّسم به الربع الأخير من تعدد في الأساليب، وتفنّن في البنى والتراكيـــب، فقد جاء اختيارنا له على أنّه نمط متميز يجمع بين أسلوب القرآن المكي والمدني، فاكتـــسبت سوره المكيّة ميزات هذا النوع من رصانة المباني وقوة المعاني، واستخدام أساليب الترغيـــب والترهيب، والتهديد والوعيد والمحاجّة، ثم إنه يمد إلى أسلوب القرآن المدني بطرف باحتوائه على عدد غير قليل من السور المدنية، والتي يغلب عليها أسلوب التشريع، فأردت الوقـــوف عليه مليّا، أتأمّل ما فيه من نظم رشيق، وأسلوب أنيق، واستلهم من فيضه الروحي والبلاغي ما يشدّ أزر كل من أراد حياة هنيّة في رحاب هذا الكتاب المقدّس الذي شدّني ســـحره إلى التطلّع إلى فهم معانيه، ومعرفة جمالية لغته، وإعجازية نصه بمختلف جوانبه وأغراضه.

فحينما نبحث في هذا الربع من القرآن نجد تراكيب وألفاظا قد سخرت لمعانيهـــا، أكسبتها رونقا وبهاءً، وإشراقة وضياءً، فغدت دررا ناصعة، فدعاني ذلك لاستجلاء نصاعتها والوقوف عندها من خلال البحث في موقعها النحوي وما يتراءى فيه من دلالات بلاغية.

كما جاء هذا البحث للاستفادة من لغة هذا الكتاب الكريم، مع لحظ لبعض الظواهر اللّغوية التي ميّزت هذا الربع من ناحية المبنى أو الدّلالة، ولذلك اختـــرت أن أعنونـــه بـــــ (الجملة في الربع الأخير من القرآن الكريم ـــ دراسة نحوية بلاغية)، مستعينا في ذلك بما كتبه علماؤنا الأسلاف، وقد كان باديا أنّهم يقصدون في مؤلّفاتهم الدعوة إلى الله، ونشر الـــدّين الإسلامي، وبيان مراد الله تعالى في كتابه، خصوصا لمن لم ينشأ على لغة العـــرب، كمـــا تصدّى بعضهم لتلك الدّعوات التي حمل لواءها بعض الملاحدة والدجّالين الملبّـــسين علـــى الناس أمر دينهم، فقاموا بالردّ على شبههم ودحضها، وتوجيه محكم القـــرآن و متـــشابهه انطلاقا من منهج علمي قائم على معرفة خصائص هذه اللغة.

ولكنّ الإقدام على تفسير القرآن الكريم وإظهار إعجازيته لم يكن بالأمر الهـــيّن، إذ يكاد يُقصر هذا الأمر على العلماء الرّاسخين في العلوم العقلية و النقلية، وتوالت الأجيال في تكرار لما كان، واستكشاف لما فات الأولين، حتى لم يعد يرتضى ادعاء الانفراد في بحث أو مسألة، فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلم، وكم من فهم تـــستظهره وقـــد

تقدمك إليه متفهم، وقديما قيل: هل غادر الشعراء من متردم؟ فمعاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة، بعيدة المدى، مترامية الأطراف، موزعة على آياته، فالأحكام مبينة في آيـــات الأحكام، والآداب في آياتها، والقصص في مواقعها، وربما اشتملت الآية الواحدة على فـــنين من ذلك أو أكثر، غير أن فنا من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آيـــة مـــن آيـــات القرآن، وهو فن دقائق البلاغة التي تومض بين ثنايا التراكيب.

ولعلّ المفسّرين هم أوّل من اضطلع بمثل هذا الدور فظهر تفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطّبري (ت 310هـــ) المسمّى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وفيه من المادة التي ندرسها الشيء الكثير، والتي تتمثّل أساسا في تخريجه لوجوه القراءات وترجيحاته لبعض المسائل النحوية، إلاّ أنّ غلبة الرواية عليه وعدم اكتمال نضج الدرس البلاغي في زمنه حالا دون أن يختصّ هذا التفسير بإيضاح الّدلالة البلاغية المستوحاة من التركيب النحوي كاملة.

ومن الدراسات السابقة التي تناولت العلاقة بين الدرس النحوي والبلاغـــي كتـــاب (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـــ)، والحق أنّ الكتاب يعدّ نقلة بعيدة امتزج فيها علم النحو بالبلاغة بعد طول فرقة، وليس هذا بغريب فقد كان الرجل أنفذ حسّا من كل من كتبوا في هذا الباب على وجه العموم، غير أنّ تطبيقاته على الشعر كانت أحظى في الكتاب من تطبيقاته على القرآن الكريم.

وفي القرن السادس يُطالعنا الإمام محمود بن عمـــر الزمخـــشري (ت 528 هـــــ) بتفسيره المسمّى بـــ (الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيـــون الأقاويـــل في وجـــوه التأويل)، حيث حاول فيه تطبيق ما قرّره عبد القاهر الجرجاني في نظريته التي ضمّنها كتبـــه السابقة على القرآن الكريم، إلاّ أنّه كاد يقتصر في تعليقاته تلك على ســـورة البقـــرة وآل عمران، وقد استفدت كثيرا من تعليقاته البلاغية على الآيات، وانتباهاته الذّكية، رغم مـــا يعتورها من شوائب الاعتزال.

وتتواصل الجهود مع جمع من العلماء الأجلاّء والباحثين المقتـــدرين الـــذين تركـــوا بصماتهم الكبرى في هذا النوع من الدراسة، فمن بين أهمّ تلك الدّراسات ما بسطه الطّاهر بن عاشور في تفسيره المعروف بـــ (التحرير والتنوير)، فقد تكلّم فيه عن المعاني والوجـــوه البيانية للنّص القرآني، إلاّ أنّه لم يلتزم بنهج معيّن، ومع ذلك فهو يعدّ بحق من أنفس التفاسير في هذا المجال، إن لم تتجاوز قيمته العلمية الكثير من الكتب النحوية والبلاغية.

غير أنّ عملا مثل هذا يتجاوز جهد الفرد الواحد مهما بلغ القمـــة الـــسامقة مـــن التحصيل العلمي، ونفاد البصيرة، وحصافة العقل، ورجاحة الفكر، لذا فلم يكن ثمّة بدّ مـــن أن يتنافس الباحثون في إثراء هذا البحث كل حسب اختصاصه ومشربه المعرفي، ومن هنـــا نجد ذلك الكمّ الزاخر ممّن ألّف قي التفسير والإعجاز اللّغوي في القرآن الكريم، فحاولت أن أفيد من كل هؤلاء، وممّن كتب فيما له علاقة بموضوع البحث.

ولا شكّ أنّه ما من عمل جاد إلاّ ودونه خرط القتاد، خصوصا وأنّـــني كـــدت أن أتوقف عن إتمام البحث عدة مرات بسبب الظروف الصحية القاهرة التي لازمتني منذ بداية العمل فيه، واستمرت طيلة فترة إنجازه، وبتشجيع وحرص شديدين من الأســـتاذ المـــشرف خرج البحث أخيرا إلى النور، أما من الناحية العلمية فقد وجدت صعوبة في تقسيم المـــادة العلمية لكونها ترتبط ببعضها البعض، فيعمد المرء أثناء تصنيفها إلى دفن أثرها الجمالي، كون البنى النحوية تشكل في غالب الحالات نسيجا محكما لا تكاد تنفصل عراه.

واعتمدت في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في إطـــار الدراســـة النحويـــة البلاغية، فعمدت إلى وصف البنى أوّلا بعد استخراجها، ثمّ تصنيفها حسب ترتيب العناصر النحوية،ثمّ تحليلها بغية معرفة دلالاتها، فكنت أذكر المعنى الجلي في البداية، ثمّ أعرّج إلى مـــا فيها من المعاني الدّقيقة والبلاغية، وبيان وجوه الإعجاز في الجملة أو الآية، مستعينا بما ذكره اللغويون والمفسّرون، مع التركيز على بعض الآيات التي تشع ببعض الملامح البلاغية، كمـــا اهتممت في بعض المباحث ببيان تناسب اتصال الآي بعـــضها بـــبعض دون اللّجـــوء إلى الإحصاء، واستخلاص الأسلوب الموائم لكل غرض من أغراض الخطاب في هذا الربع مـــن القرآن الكريم.

وقد حاء البحث مقسما إلى مدخل و أربعة فصول:

أما المدخل فكان من الضروري أن أقف فيه على ما يؤســـس للموضـــوع فأخذت فيه مبحثين هما:

- المبحث الأول: و تكلمت فيه عن أهمية القرآن في البحث النحوي والبلاغي.
- المبحث الثاني: وحاولت فيه التعريف بالجملة كونها تشكل عنـــوان هـــذا البحـــث وموضوع الرسالة.

ثم الفصل الأول: وضمّنته بنية الجملة الاسمية الخبرية في الربع الأخـــير مـــن القرآن، وتوزعت مباحثه كالآتي:

- المبحث الأول: واختصّ ببنية الجملة الاسمية المثبتة،وتمّ تقسيمها إلى جملة اسمية بسيطة مجرّدة من النواسخ، وأخرى موسعة تضمنت الجمل المنسوخة بـــ(إنّ) وأخواتهـــا، و الجمل المنسوخة بـــ (كان) وأخواتها.
- المبحث الثاني: وجاء على عكس سابقه، إذ عرّفت فيه بالجملة الاسمية الخبرية منفية، وتمّ تقسيم أنواعها حسب آداة النفي المستعملة، إذ تعدّ عـــاملا حاسمـــا في تنويـــع الدلالة.

وخصصت الفصل الثاني للجملة الفعلية، وضمّ مبحثين:

- المبحث الأول: وقد عرّفت فيه الجملة الفعلية المثبتة ذات الفعل اللاّزم منها والمتعدّي، والمبني للمجهول، وغيره.
- المبحث الثاني: وأخذت فيه الجملة الفعلية المنفية من خلال بيان أنواعها حسب آداة النفي مستظهرا دلالة كل منها.

وبما أنّ الجملة الخبرية قد مثّلت القسط الأوفر من الجمل، فلم يكن بدّ في هذا الفصل من الاقتصار على بعضها إذ يستحيل دراستها جميعا في فصل كهذا.

وخصّصت الفصل الثالث لبنية الجملة الطلبية في الربـــع، فتوزعت مباحثها كالأتي:

- المبحث الأول: وعرضت فيه جملة الأمر بأنماطها المختلفة وأغراضها البلاغية.
- المبحث الثاني: وخصّصته إلى جملة النهي مع بيان لدلالاتها البلاغية.
- المبحث الثالث: تمّ من خلاله التعريف بجملة الاستفهام، وتقسيم أنواعهـــا بحـــسب أغراض الاستفهام المختلفة.
- المبحث الرابع: وعرضت فيه جملة التمني والنداء، وقسّمتها إلى أنواع وفق آداة التمني و حالات المنادى.

وجاء الفصل الرابع للجملة الشرطية و قُسِّم إلى أربعة مباحث هي:

- المبحث الأول: الشرط باستخدام الحروف.

- المبحث الثاني: الشرط باستخـــدام الأسماء.
- المبحث الثالث: الشرط باستخدام الظروف.
- المبحث الرابع: أجـــوبة التراكيب الطـــلبية.

و أنهيت البحث في الأخير بخاتمة تضمّنت خلاصة نتائج البحث مع ملاحق وفهارس.

وفي الأخير آمل أن أكون قد وُفِّقت في هذا الجهد المتواضع، والذي عساه أن يكون لبنة لأعمال قـــادمة قد تكون أكثر أهمية و فائدة، ورغم ضيق الوقت وكثرة الشواغل فإنّني آليت على نفسي إلا أن أكمله، وأحـــاول أن أخرجه في أحسن حلّة، وإن لم أنسب نفسي إلى الإتيان بنادر وجديد، فقد ذهب السابقون بجلّ المزايا في مثل هذه الجهود.

كما أودّ أن أوجه شكري إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور رابح دوب الذي فتح لي بابه، واحتمل مني إزعاجه، وبسط لي من وقته رغم كثرة أشغاله، فأفادني بتوجيهه الأغر و نصائحه الدرر، وبثّ فيّ روح الأمل، وشجعني على الاجتهاد والعمل، وكان بحق أبا وأخا، صديقا وشيخا، فجزاه الله عنّي خير الجزاء، وإلى السادة الأساتذة الأفاضل الذين تجشّموا قراءة هذا البحث بغية إقامة ما فيه من اعوجاج، وإكمال ما فيه من نقص، حتّى يخرج نقيا خالصا، فيعم به النفـــع، وأرجو أن يكون هذا البحث جهدا مقبولا في خدمة القرآن والله من وراء القصد.

مدخـــــــــل

القرآن الكـــريم والجملة

أ- أهمية القرآن في النحو والبلاغة

ب- التعـــــــــريف بالجـــملة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- أهمية القرآن في الدراسة النحوية و البلاغية :

لقد نزل القرآن باللغة العربية على نمط يُعجز قليله وكثيره معا، فكان أشـــبه شـــيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه، وفي أجزائه جملة لايُعارض بشيء.

"إن في هذا القرآن سرا خاصا، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتـــداء، قبـــل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصرا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحا، ويدركه بعـــض النـــاس غامضا، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهـــو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصـــر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟! ذلك سر مودع في كـــل نـــص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء .. ثم تأتي وراءه الأسرار المدركـــة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله"[1].

ولذلك "فإن أولى ما عني باغي العلم بمراعاته، وأحق ما صرف العناية إلى معاناته، ما كان من العلوم أصلا لغيره منها، وحاكما عليها ولها فيما ينشأ من الاختلاف عنها، وذلك هو القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميـــد، وهو المُعجز الباقي على الأبد، و المُودَع أسرار المعاني التي لا تنفد، وحبل الله المتين، وحجته على الخلق أجمعين.

وأول مبدوء به من ذلك تلقف ألفاظه عن حفاظه، ثم تلقي معانيه ممن يعانيه، وأقوم طريق يسلك في الوقوف على معناه، ويتوصل به إلى تبين أغراضه ومغزاه، و معرفة إعرابـــه واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه، والنظر في وجوه القراءة المنقولة عن الأئمة الأثبات"[2].

---

1 ــ في ظلال القرآن: سيد قطب. دار الشروق. القاهرة. الطبعة الـــشرعية الخامـــسة عـــشرة. 1408هـــ. 1988م ــ 3398/6.

2 – التبيان في إعراب القرآن. لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري. تحقيق :محمد علي البجاوي. دار الجيل. بيروت. الطبعة الثالثة. 1987. ص:1.

ولا ضير أن نجد هذا التعليق لمن كان أشهر من أعرب القرآن، فالقرآن و" إن كان لا يخلو الناظر فيه مما يريه ونفع ما يوليه فإنه:

كالبـــــدر من حيث التفت رأيته يهدي إلى عينيك نـــورا ثاقبا

كالبحر يقذِف للقـــريب جواهرا جودا، ويبعث للبعيد سحائبا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا[1]

لكن محاسن أنواره لا يثقفها إلاّ البصائر الجلية، وأطايب ثمره لا يقطفها إلا الأيـــدي الزّكية، ومنافع شفائه لا ينالها إلا النفوس النقية"[2].

فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليهـــا اعتمـــاد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء في نظمهم ونثرهم.

ومن ثم فقد كان العرب يستضيئون بخطاباتهم بآي الذكر الحكيم، فبلـــغ خطبـــاء الوعظ الكفاية في البيان، وأدى انتشار رقعة البلاد الإسلامية بفضل القرآن إلى أن كثيرا من الفرس والموالي أتقنوا العربية وحذقوها، واتخذوها لسانهم في التعبير عن عقولهم ومشاعرهم، و أظهروا في ذلك بلاغة منقطعة النظير[3].

و"ما وجد في القرن الأول من تأملات نحوية أو محاولات لدراسة بعـــض المـــشاكل اللغوية كان الحافز إليه إسلاميا و لم يقصد لذاته، وإنما لاعتباره خادما للنص القرآني، ومـــن ذلك محاولة ابن عباس جمع الكلمات الغريبة في القرآن وشرحها إن صحّت نسبة (غريـــب القرآن) إليه، وكذلك محاولة أبي الأسود الدؤلي ضبط المصحف بالشكل، حين استحـــضر كاتبا وأمره أن يتناول المصحف، وأن يأخذ صبغا يخالف لون المداد، ليـــضع نقطـــة فـــوق الحرف إذا رآه يفتح شفتيه، وتحت الحرف إذا رآه يخفض شفتيه، وبين يدي الحرف إذا رآه

1 ــ الأبيات للمتنبي من قصيدة يمدح فيها علي بن منصور الحاجب. ديوان المتنبي. تحقيق: يحي شـــامي. دار الفكـــر العـــربي بيروت. الطبعة الأولى. 1997م. ص:58.

2 – المفردات في غريب القرآن : تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502 هـــ). تحقيـــق وضبط: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة. بيروت لبنان. (د ت). ص:5 .

3 – ينظر البلاغة تطور وتاريخ. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الثامنة. (د ت). ص:19.

يضم شفتيه، أما إذا أتبع الحرف الأخير غنّة، فينقط نقطتين فوق بعـــضهما، أمـــا الحـــرف الساكن فقد تركه"[1].

وقد شاع اللحن في العصر الأموي حتى تطرق إلى البلغاء من الخلفاء والأمراء كعبد الملك، والحجّاج، والناس يومئذ تتعاير به، وكان مما يسقط الرجل في المجتمع أن يلحـــن، وخاصّة في قراءة القرآن، لاسيما و أن ما فعله أبو الأسود الدؤلي (ت69 هـــ) كان السبب فيه أنه سمع قارئا يقرأ ﴿ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة:3] بكسر الـــلام في (رسوله)، ففزع إلى ما صنع، خاصة وأنهم كانوا ينكرون اللحن حتى في عامـــة كلامهـــم، لدرجة أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان يقول: "إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها، وكأني أقضم حب الرّمان الحامض لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في حاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها، التذاذا لما أسمع من كلامه"، وكان يقول:" أكاد أضرس إذا سمعت اللّحن"[2].

وبعد أبي الأسود نشط التأليف النحوي، ففي الفترة الممتدة بينه وبين الخليل نجد كمًا معتبرا من علماء النحو: كيحي بن يعمر، و عنبسة الفيل، وميمون الأقرن، وعيسى بـــن عمر، وأبي عمرو ابن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، واكتملت معالم هذا العلم مع ظهور كتاب سيبويه (ت 180هـــ)، والذي أضحى يسمى فيما بعد بقـــرآن النحـــو، و"بقي القرآن في كل ذلك النص الوحيد الموثوق بصحته، والمقطوع بسلامته، البعيد عـــن التحريف والتبديل"[3]، المعتمد في الاحتجاج به على القواعد النحوية، إذ هو "أعرب وأقوى في الحجة من الشعر"[4].

1- البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر. أحمد مختار عمر. عالم الكتب. القاهرة. الطبعـــة الـــسادسة. 1988م. ص:79-80 .

2 - ينظر كتاب الأضداد . محمد بن القاسم الأنباري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصري. بـــيروت. 1987 م ص:244-245 .

3 - المركب الاسمي الإسنادي وأنماطه من خلال القرآن الكريم. أبو السعود حسنين الشاذلي. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية. الطبعة الأولى. 1990. ص:5 .

4 - معاني القرآن للفراء. تحقيق : أحمد يوسف نجاتي و محمد علي النجار. مطبعة دار الكتاب المصرية. القاهرة.ـــ14/1.

ولذا فقد اتفق البصريون والكوفيون على جعله أصلا كبيرا من أصول الاستشهاد في وضع القواعد النحوية والأخذ بها، لأنه نزل بلغة قريش التي انتصرت لهجتها علـــى جميـــع لهجات العرب[1].

كما عكف العلماء على القراءات القرآنية وخاضوا في التأليف فيها، والاعتناء بها في مجال العربية، "فإلى جانب القيمة الدينية للقراءات نجد لها قيمة لغوية خاصة، لأنها تحوي ثروة لغوية ضخمة لا يستغني عنها دارس العربية، ولأنها تسجل كثيرا من الظواهر اللهجيـــة ممـــا أهملته كتب اللغة والنحو، هذه الأهمية جعلت بعض النحاة يوجه عنايته نحوهـــا، يكـــشف أوجه القراءة للآية ويستجلي خصائصها"[2].

إضافة إلى أنّ الخطاب القرآني يعد سلطة فنية من حيـــث تـــساميه الأدبي المبـــاين للمألوف من الأجناس الأدبية العربية، وهو سلطة روحية أيضا بتـــصديه تقريـــرا وجـــدلا لتخرجات الكفار الاعتقادية والمعرفية الشركية، واحتوائه المجال الفكري والروحـــي الـــذي تصدر عنه ذهنية الكفر، وهذا باعتماده معطى الإيمان بالتوحيد وبالغيب واقعا فكريا مـــاثلا للحس ممازجا للوجدان، مؤسسا ليقينية الاستمرار والبقاء التي تحققهـــا مُـــسلَّمة البعـــث الأخروي كما رسخها القرآن.

غير أنّ الأهم في كل هذا في هذا البحث هو ذلك الفضاء الجمالي الذي مثّله الخطاب القرآني، والذرابة القولية المتقنة، والذي أمكنه أن يتجاوز موقف الرفض والخصومة الـــذي وقفه منه المكذبون زمن النزول، ومن نجم من بعدهم من الطاعنين، وهذا شأن الذي "خلب أسماع العرب، وهز أفئدتهم، وفاق بيانهم وبلاغتهم، وأطلعهم على لون من البيان لم يألفوه، فغير من نظرتهم لفن القول، وعمق أذواقهم في صناعة الكلام"[3].

1 – ينظر المدرسة النحوية في مصر والشام. عبد العال سالم مكرم. دار الشرق. الطبعة الأولى. 1980. ص: 223-229.

2 – ينظر في أصول النحو لسعيد الأفغاني. دار الفكر. سوريا. الطبعة الثالثة. 1964 . ص: 29-30 .

3 – البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري. رابح دوب. دار الفجـــر للنـــشر والتوزيـــع. القـــاهرة. الطبعـــة الأولى.1997م. ص: 47 .

ومع نزول القرآن في أرقى العصور فصاحةً وأكملها بلاغةً، فقـــد"وجـــم العـــرب وخرست ألسنتهم مع طول التحدي وشد النكير عليهم"[1] أن يأتوا بأقصر سورة من مثلـــه، فحقت له الكلمة العليا.

من هنا رأينا اللغويين في العصر العباسي يدوّنون بعـــض الملاحظـــات البلاغيـــة في تعليقاتهم على آي الذكر الحكيم، ولعل أهمهـــم ابـــن قتيبـــة (ت276هـــ)، والمـــبرد (ت285هـــ)، وثعلب (ت291هـــ)، أما ابن قتيبة فإنه نثر جملة ملاحظاتـــه في كتابـــه (تأويل مشكل القرآن)، وقد صنفه للرد على الملاحدة وأشباههم الذين يطعنون في القـــرآن الكريم، فيقولون إن به تناقضا وفسادا في النظم واضطرابا في الإعراب[2].

وتطوّر الأمر من تسجيل الملاحظات إلى وضع الدراسات، فظهر كتاب (النكت في إعجاز القرآن) للرماني، والذي عرّف البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة، ثمّ ميّز أدبية القرآن قائلا: "وأعلى طبقة في الحسن بلاغة القرآن"[3]، ثم تلاه الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن)، فربط أدبية الإعجاز بمبدأ النظم، و أقرّ بأنّ الإعجاز إنما حصل للقرآن "من جهة نظمه الممتنع"[4]، إلا أنه لم يستطع أن يميط اللّثام عن كنه هذا النظم على سعة مباحث الكتاب، تاركا بذلك المجال مفتوحا أمام الاجتهادات التي تواترت بعده.

ولعلّ أهم المحاولات الجديرة بالتقويم، هي محاولة الجرجاني الذي تصدى لدراسة أدبية الإعجاز وعلوم البلاغة، متخطيا الأحكام الانطباعية، مرجّحا فكرة النظم كأساس للإعجاز القرآني، حيث لا مفاضلة للألفاظ فيما بينها حينما تكون مفردة مجردة، بل قيمتها تكمن في ملاءمتها لمعنى المفردة التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، وبهذا الفهـــم للنظم جعل الجرجاني العملية الإبداعية (البلاغية) مظهرا تنصهر فيه إشكالية اللفظ والمعـــنى، فتضحى جهدا واحدا، فعلى قدر ترتيب المعاني في النفس تتركب لك الألفاظ بحكـــم أنهـــا خدم لها.

---

1 – علوم البلاغة البيان و المعاني و البديع. أحمد مصطفى المراغي. دار الآفاق للعربيـــة. القـــاهرة. الطبعـــة الأولى 2000. ص:39.

2 – ينظر البلاغة تطور وتاريخ. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الثامنة. (د ت).ص:58 .

3 – النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز. أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 384 هـــ) . تحقيـــق: محمد خلف الله. ومحمد زغلول سلام. دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية. 1968.

4 – إعجاز القرآن. أبو بكر الباقلاني. تحقيق أحمد صقر. دار المعارف. مصر. الطبعة الرابعة. (د ت). ص: 29 .

يقول مصطفى صادق الرافعي: "وقلما تصيب لأحد من بلغاء الناس كلامـــا قـــد أحكمت ألفاظه من هذه الوجوه كلها، فإنك لتستطيع أن تجد في كل كلام بليغ معاني قـــد جليت لألفاظها، ولكنك لا تستطيع أن تجد في القرآن كله إلا ألفاظا لمعانيها، وإن فتـــشت وجهدت، وإن طلبت في ذلك الفرطة والندرة"[1].

ومع تنوع هذه الدراسات حول القرآن فـــ" لا تزال تظهر ما فيه من مكنونـــات، وتكشف ما احتواه من أسرار لا تنتهي، والقرآن معطاء لا يبخل ولا يمنع إذا ما سعيت إليه واستوضحت ما فيه"[2].

وليس قصدنا هنا في هذه التوطئة بحث قضية الإعجاز، وإنما لتبيين أن هذه المـــسألة كانت سببا للتآليف البلاغية والنحوية المتعلقة بالقرآن وغيره، ولذا كان هذا البحث محاولة لفهم بعض بنى النص القرآني وبخاصة في الربع الأخير منه.

1 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصطفى صادق الرافعي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنـــان. الطبعـــة الأولى. 2000م. ص: 184

2 - القرآن الكريم تاريخيته ولغته. السيد عبد الغفار. دار المعرفة الجامعية. 1996م. ص: 4 .

2 ــ التعريف بالجملـــــة :

تعددت تعاريف الجملة واختلفت باختلاف وجهات نظر اللغويين، وأيا ما كان الاختلاف فالجملة هي مجموعة العلاقات النحوية الرابطة بين أفراد الكلام، وهي "أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلا بنفسه، سواء تركب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر"[1]، وهي "أكبر وحدة قابلة للتحليل في المادة اللغوية"[2].

وهي "المركب الذي يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع" [3].

وقد ذهب قسم من النحاة إلى أن الكلام والجملة هما مصطلحان لشيء واحد، فالكلام هو الجملة، والجملة هي الكلام، وذلك ما ذكره ابن جني في (الخصائص)، وتابعه عليه الزمخشري في المفصّل.

جاء في الخصائص: "أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو: زيد أخوك، وقام محمد"[4].

وقال الزمخشري: "الكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحـــداهما إلى الأخـــرى، وذلك لا يتأتى إلا في اسمين كقولك: (زيد أخوك)، و(بشر صاحبك)، أو في فعل واسم نحو قولك: (ضُرب زيد)، و(انطلق بكر)، ويسمى الجملة"[5].

إلا أن الذي عليه جمهور النحاة، أن الكلام والجملة مختلفان، فإن شرط الكلام الإفادة، ولا يشترط في الجملة أن تكون مفيدة، وإنما يشترط فيها إسناد سواء أفاد أم لم يفد، فهي أعم من الكلام، إذ كل كلام مفيد، وليس كل جملة مفيدة.

جاء في التعريفات في تعريف الجملة أنها "عبارة عن مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، سواء أفاد كقولك: (زيد قائم)، أم لم يفد كقولك: (إن يكرمني) فإنه جملة لا تفيد إلا بعد مجيء جوابه، فتكون أعم من الكلام مطلقا"[1].

---

1 – من أسرار اللغة : إبراهيم أنيس. المكتبة الأنجلومصرية. الطبعة السادسة. 1978م. ص:191.

2 – الأسلوب دراسة لغوية إحصائية: سعد مصلوح. دار البحوث العلمية. القاهرة. الطبعة الأولى. 1980م – ص:3

3 – في النحو العربي (نقد و توجيه): مهدي المخزومي ، المكتبة العصرية لبنان. 1964م . ص:31.

4 ــ الخصائص: ابن جني. تحقيق: محمد على النجار. مطبعة دار الكتب المصرية. 17/1.

5 ــ شرح المفصّل للزمخشري. موفق الدين ابن يعيش. طبع ونشر دار الطباعة المنيرية. 18/1.

وتنقسم الجملة إلى خبرية، وإنشائية ، وظرفية، وشرطية.

أما من الناحية الوظيفية فيمكننا أن نقسمها أيضا إلى قسمين: جمل لها محل من الإعراب، وجمل أخرى ليس لها محل من الإعراب، وذلك أن القسم الأول منها يحل محل المفرد، كالفاعل، والمفعول، والحال المفرد، والنعت، بينما يتعذر على القسم الثاني أداء وظيفة المفرد، وفي ذلك يقول الناظم المرادي (ت 749 هـــ):

جمل أتت لها محل معـــرب تسع لأن حلّت محل المفـــرد

وأتت سبع مالها من موضع صلة ومعترض وجملة مهتدي[2]

أما عند البلاغيين فإن البحث في بنية الجملة انطلق عندهم مما يسمّى بـــالنظم، وأول من أدرك ذلك الجاحظ (ت 255 هـــ) بسعة ثقافته، وإذا به "يـــصيح في معاصـــريه: إن إعجاز القرآن في نظمه، ويؤلف كتابا[3] في هذا المعنى، ولكنه يسقط من يد الزمن"[4]، فها هو يقول في كتابه الحيوان: "فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخرى، ولها حينئذ دلالات أخرى، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة، والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هـــو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك"[5].

ثمّ إنّ الجاحظ يصرح بمثل هذا اللفظ في مجموعة رسائله حين قال: "فمـــن عـــرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام"[6]، والجيد عنده "مارأيتـــه مـــتلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحـــدا، فهـــو

---

1 ــ التعريفات: السيد الشريف على بن محمد بن محمد الجرجاني. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر. 1357هـــ.1938م. ص:69.

2 – التعليقات الوافية على شرح الأبيات الثمانية (نحو الجمل) عبد العزيز الهادي : دراسة وتحقيق: مختار بوعناني. منـــشورات الفجر وهران، الجزائر 1995– ص : 27 .

3 – الكتاب هو : نظم القرآن. ذكره في كتابه الحيوان.

4 – النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق . عبد الرزاق حسن إسماعيـــل . دار الطباعـــة ،المحمديـــة. مـــصر. الطبعـــة الأولى. 1998.ص:61

5 – الحيوان. أبو عثمان الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعـــة الثالثـــة. 1969م. 154/1.

6 – رسائل الجاحظ. (العثمانية). تحقيق : عبد السلام هارون. نشر السندوبي.1352 هـــ 03/14.

يجري على اللسان كما يجري الدهان"[1]، وكل هذه الأقوال تصب في قالب واحد أساسه أن الجودة تعني حسن النظم و البناء.

وتمسك العلماء به بعد الجاحظ، فجعلوه مناط الإعجاز البياني، إلى أن استقر معنى النظم مع الإمام عبد القاهر الجرجاني، فهو يعرف النظم قائلا: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، لا تخل بشيء منها... ذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق"[2].

وبهذا فقد استفاد من نحويته في كشف جماليات التركيب عندما تملى وجوه النظم بذوق سليم، مثل: التذكير، والتعريف، والاسمية، والفعلية، والاستفهام، والتقديم والتأخير، والوصل والفصل.

وليس بعيدا أن ينطلق الدرس اللساني الحديث من هذه النظرة الصائبة في دراسة اللغة، فانظر إلى دي سوسير حين عرف اللغة على أنها "منظومة من العلامات"[3]، إذ يتجلى مفهوم العلامة في ما هو مكتوب ومنطوق في الكلمة أو اللفظ، ولا يعني به سوى نظام توالي الألفاظ في السلسلة الكلامية، غير أنه عمم ذلك على اللغة، وأسس بذلك لمنهج جديد في الدراسات اللغوية أطلق عليه اسم البنيوية، وسار على نهجه جمهور غفير من علماء اللغة، وسرعان ما أتى بعده التوليديون والتحويليون، وأنشأوا لأنفسهم مذاهبا، ورأوا أن "للجملة بنية عميقة (structure profonde) تمثل التفسير الدلالي لها، وبنية سطحية (structure surface) تمثل التفسير الفونولوجي للجملة"[4]، لكن هذه البنية العميقة لا تصلح أن توضع في كلمات لأنها فكرية منطقية خالصة، أما البنية السطحية فـ"هي التنظيم

1 - البيان والتبيين. أبو عثمان الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. نشر الخانجي. القاهرة. 1948م ــ 1/ 68.

2 - دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني . دار المعرفة. بيروت . الطبعة الثانية 1978م. ص: 64 .

3 - محاضرات في الألسنية العامة. فريناند دو سوسير. ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر . منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة 1986م. ص: 26 .

4- Aspects de la théorie syntaxique chomisky.trad :Jean claude.Milner.ed de seuil .Paris 1978.P:66.

السطحي للوحدات التي تقدم الترجمة الصوتية العائدة إلى الشكل الخارجي للجملة في شكلها المراد أو المشاهد"[1]، أو هي واحدة من إمكانات التعبير عن البنية العميقة بعناصر لغوية.

وفي النحو العربي كثير من هذا، وكثير من ذلك، مما يعتز به ويفخر، وما بقي منـــه أكثر، مما يحوي أسرار بديعة تتوافق وطبيعة هذه اللغة، لذا آثرنا في هذه الرســـالة مناقـــشة المباحث النحوية والبلاغية وما يتلاءم مع طبيعة اللغة العربية والقرآن الكريم، باعتبار هـــذه الدراسات اللغوية الحديثة ذات منطلق معرفي يختلف ومواضعات نشأة وسيرورة الدراســـات اللغوية العربية، وتطبيق ما جاءت به مما يفضي بالمرء إلى مسلك موعر يوقعه في فخ لا يمكنه الخلاص منه، فارتأينا السلامة لأنفسنا بسلوك النهج الواضح على درب أسلافنا، محـــاولين استخلاص بعض أسرار النص القرآني من خلال تراكيبه وبناه.

"فالتراكيب القرآنية تثير ألوانا متعددة من الدلالات البعيـــدة تهـــدف إلى خلـــق النموذج المتكامل والمجتمع الفاضل، وإذا كانت المعاني القريبة في كتاب الله بليغة، فالمعـــاني البعيدة أبلغ، لكونها أكثر مطابقة لمقتضيات الأحوال، لأن القرآن جاء في صورة أدبية تـــثير المشاعر والانفعالات، وتتخذ قرارها إلى النفس، وأية فكرة من هذا النسق المحكم، والـــنظم العجيب تراها بحكم التركيب الذي يشتمل عليها قد انتفضت كمعان جديدة"[2].

من هنا كان لزاما علي أن أتذوق هذا المنهل العذب، محاولا تجاوز الصعب، والظفر بشيء من لذة هذا الكتاب المعجز بطرق أحد أبوابه، وهو الربع الأخير من القرآن الكريم.

وبالعودة إلى تعريف النحاة للجملة، إذ عليها المعول في تقسيم مباحث هذا البحث وفصوله ـــ يلاحظ أنهم لم يشترطوا للجملة أن تدل على معنى يحسن السكوت عليه، ولذلك كانت الجملة عندهم عبارة عن تركيب إسنادي سواء أتمت به الفائدة أم لم تتم، على حين أنهم جعلوا (الكلام) القول المفيد بالقصد، أي ما دلّ على معنى يحسن السكوت عليه، و لذلك كانت الجملة أعم من الكلام إذ شرطه الإفادة بخلافها.

والنحاة يقسمون الجمل إلى قسمين: الجمل المقصودة لذاتها، والجمل المقصودة لغيرها، فالجمل المقصودة لذاتها هي الجمل المستقلة نحو: قام محمد، وليتك معنا، وأما

1- La linguistique Cartesienne suivie de la nature formalle du langage chomsky.trad :N Delance et D. Sperber . ed de seiul.Paris 1969. P:62.

2 – المعاني الثانية في الأسلوب القرآني. فتحي أحمد عامر. منشأة المعارف. الإسكندرية. القاهرة (د ت). ص:326.

المقصودة لغيرها فهي الجمل غير المستقلة، وذلك كالجمل الواقعة خبرا أو نعتا أو حالا أو صلة[1]، أو نحو ذلك، وذلك نحو: أقبل أخوك وهو مسرع، فجملة (وهو مسرع) ليست مستقلة بل هي قيد للجملة قبلها.

تأليف الجملة:

يعرف ريمون طحان الجملة بأنها "تركيب يتألف من ثلاث عناصر أساسية المسند، والمسند إليه، والإسناد، وقد تضاف إليها عناصر أخرى حين لا تكفي العملية الإسنادية بذاتها"[2].

والجملة عموما تتألف من ركنين أساسيين هما المسند والمسند إليه، وهما عمدتا الكلام، إذ لا يمكن أن تتألف من غيرهما، وهما المبتدأ والخبر، وما أصله مبتدأ وخبر، والفعل والفاعل ونائبه، ويلحق بالفعل اسم الفعل.

والمسند إليه هو المتحدّث عنه أو المحدّث عنه عند سيبويه، ولا يكون إلا اسما، وهو المبتدأ الذي له خبر، وما أصله ذلك، والفاعل ونائب الفاعل، والمسند هو المتحدّث به أو المحدّث به[3]، ويكون فعلا واسما،وهما عمدتا الكلام، فالفعل هو مسند على وجه الدوام ولا يكون إلا كذلك، والمسند من الأسماء هو خبر المبتدأ وما أصله ذلك، والمبتدأ الذي له مرفوع أغنى عن الخبر، نحو: أقائم الرجلان، فـــ (قائم) مسند، و(الرجلان) مسند إليه، وأسماء الأفعال، وما عدا المسند والمسند إليه هو (الفضلة) كالمفاعيل والحال والتمييز والتوابع.

وليس معنى الفضلة أنه يمكن الاستغناء عنها، فإنها قد تكون واجبة الذكر، فإن المعنى قد يتوقف عليها، كما في قوله تعالى: وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ...(١٤٢) [النساء:142]، فإنه لا يمكن الاستغناء عن (كسالى) التي تصنف على أنها فضلة.

ـــ الجملة الخبرية:

الجملة الخبرية هي المحتملة للتصديق والتكذيب في ذاتها، بغض النظر عن قائلها،فكل كلام يصح أن يوصف بالصدق والكذب فهو خبر، فإذا كان الكلام صادقا لا يحتمل

1 ـــ ينظر شرح كافية ابن الحاجب: محمد بن الحسن الاستراباذي الرضي(ت688 هـــ). دار الكتب العلمية. بيروت. دت ـــ 8/1.

2 – الألسنية العربية : طحان ريمون. دار الكتاب اللبناني. بيروت. الطبعة الثانية. 1981م ـــ 2/ 54

3 – الكتاب: سيبويه. مصور على طبعة بولاق. نشر مكتبة المثنى ببغداد ـــ14/1.

الكذب، أو كان كاذبا لا يحتمل الصدق فهو خبر، فقولك (السماء فوقنا) و(شربت البحر) و(أسافر غدا) كله خبر.

وأما الإنشاء فكل كلام لا يحتمل الصدق والكذب وهو على قسمين: الإنشاء الطلبي: وهو ما يستدعي مطلوبا، كالأمر، والنهي، والاستفهام، والإنشاء غير الطلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوبا، كصيغ العقود، وألفاظ القسم والرجاء، ونحوها.

وقد ابتدأت هذه الدراسة بالجملة الخبرية فجعلت الفصل الأول للاسمية منها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

الفصل الأول

الجـــــملة الخبرية الاسمية

المبحث الأوّل: الجملة الاسمية المثبتة

المبحث الثاني: الجملة الاسمية المنفية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ الجملة الاسمية:

ونعني بالجملة الاسمية الجملة التي لا يكون فيها المسند إليه فعلا و لا جملة[1]، وتتكون من المبتدأ و الخبر، و"المبتدأ كل اسم ابتدئ ليبنى عليه الكلام"[2]، "و المبتدأ لم يكن مبتدأ لأنه منطوق به أولا، و لا كان الخبر خبرا لأنه مذكور بعد المبتدأ، بل كان المبتدأ مبتدأ لأنه مسند إليه، و مثبت له المعنى، و الخبر خبرا لأنه مسند، و مثبت به المعنى"[3].

فالجملة الاسمية موضوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه، بلا دلالة على تجدد أو استمرار، و إن كان خبرها اسما فقد يقصد به الدوام و الاستمرار الثبوتي بمعونة القرائن، وإن كان خبرها مضارعا (جملة فعلية فعلها مضارع) فقد يفيد استمرارا تجدديا إذا لم يوجد داع إلى الدوام، و ليس كل جملة اسمية مفيدة للدوام، فإن (زيدٌ قائمٌ) يفيد تجدد القيام لا دوامه، و نظامها يجري على هذا النحو: مبتدأ (مسند إليه) + خبر (مسند) ومتعلق ظرفي بالجملة الاسمية.

و تنفرد هذه الجملة بالدلالة على العلامة بين طرفي الإسناد، و على المبتدأ يعتمد في التفريق بين الجملة الاسمية و الفعلية، و قد يتقدم عليه الخبر وجوبا أو جوازا إن كانا اسمين أو كانا مما يعد في المفردات كالمصدر المؤول[4]، وقد قسمتها إلى مبحثين:

الأول للجملة الاسمية المثبتة.

والثاني للجملة الاسمية المنفية.

ونبدأ بالجملة الاسمية المثبتة على أساس أنها الأصل قبل النفي.

---

1 – مدخل إلى دراسة اللغة العربية: محمود أحمد نخلة. دار النهضة العربية. بيروت 1988. ص: 25 .

2 – الكتاب. سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت 180هـ). تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. 1977م ـ 126/2.

3 – دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني. تعليق: محمود شاكر. مكتبة الخانجي. الطبعة الثانية. القاهرة 1989.ص: 189.

4– ينظر الكليات: الكفوي. تحقيق عدنان درويش و محمد المصري. وزارة الثقافة. دمشق الطبعة الثانية 1981 –1982 - 153/2.

1ــ الجملة الاسمية المثبتة :

وهي الجملة الاسمية التي خلت من دخول النفي عليها، سواء كان بالحرف، أو الفعل، وتسهيلا للبحث فقد قسمتها على قسمين: بسيطة: وأقصد بها الجملة الخالية من دخول النواسخ عليها، وموسعة: وهي التي دخلت عليها النواسخ بأنواعها المختلفة، باستثناء ما تضمن نفي، فإني أرجأته إلى مبحث الجملة الاسمية المنفية، غير ملتزم بما درج عليها النحاة من تقسيمها إلى جملة كبرى وصغرى، وإلى جملة لا توصف بكبرى ولا بصغرى، إذ يقصدون بالجملة الكبرى الجملة الاسمية التي خبرها جملة، أو الجملة المصدرة بفعل ناسخ، والخبر فيها جملة بحسب الأصل[1].

أو ما كان الخبر فيها جملة، وذلك نحو: (محمد سافر أخوه)، و(زيد سافر)، و(كان محمد أخوه منطلق)، و(ظننت محمدا يسافر أخوه)، فهذه الجمل كلها جمل كبرى.

أما الجملة الصغرى فهي المبنية على المبتدأ، أو ما أصله مبتدأ، كالجمل المخبر بها في الأمثلة السابقة، وجملة المفعول الثاني في الجملة الأخيرة.

ونبدأ بالجملة الاسمية البسيطة مع بيان لأنماطها، واستجلاء ما أمكن من دلالات بلاغية مترتبة على تركيبها.

1 ــ ينظر حاشية الدسوقي على المغني. مكتبة ومطبعة المشهد الحسني. مصر. (دت). 39/2.

أ–الجملة الاسمية البسيطة :

وهي أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلا بنفسه، سواء تركب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر، واحتوت على المبتدأ والخبر دون غيرهما، يقول سيبويه في بيان المبتدأ: "فالمبتدأ كل اسم ابتدئ به ليبنى عليه كلام، والمبتدأ والمبنى عليه رفع، فالابتداء لا يكون إلا بمبنى عليه"[1]، وقد تنوعت أشكالها حسب نوع المبتدأ والخبر، فقسمتها انطلاقا من هذا المبدأ، فكان منها:

الابتداء بالمعرفة:

وأصل الابتداء للمعرفة، وإذا اجتمع نكرة ومعرفة فإنه يبتدأ بالأعرف، وهو أصل الكلام[2]، وقد وردت الجمل التي تبتدئ بالمعرفة وفق الأنماط التالية:

النمط الأوّل: المبتدأ معرفة والخبر معرفة

يأتي المبتدأ والخبر معرفتان، وإذا كانا كذلك فإن لهما حالات مختلفة تستدعي أولوية الابتداء بأحدهما دون الآخر، يقول السيوطي(ت911هـ) في بيانها: "إذا اجتمع معرفتان ففي المبتدأ أقوال: أحدها: وعليه الفارسي، وعليه ظاهر قول سيبويه: أنّك بالخيار، فما شئت منها فاجعله مبتدأ، والثاني: أنّ الأعمّ هو الخبر نحو: زيد صديقي، إذا كان له أصدقاء غيره، والثالث: أنّه بحسب المخاطب، فإن علم منه في علمه أحد الأمرين، أو يسأله عن أحدهما بقوله: من القائم؟ فقيل في جوابه: القائم زيد، فالمجهول الخبر، والرّابع: أنّ المعلوم عند المخاطب هو المبتدأ، والمجهول الخبر، والخامس: إن اختلفت رتبتهما في التعريف، فأعرفهما المبتدأ، وإلاّ فالسابق، والسادس:أنّ الاسم متعيّن للابتداء، والوصف متعيّن للخبر نحو القائم زيد"[3].

ويعلل ابن السراج(ت316هـ) اجتماع المعرفتين في المبتدأ والخبر بقوله: "يكون المبتدأ معرفة والخبر معرفة نحو: زيدٌ أخوك، وأنت تريد أنّه أخوه من النسب، وهذا ونحوه إنّما يجوز إذا كان المخاطب يعرف زيدا على انفراده، ولا يعلم أنّه أخوه لفرقة كانت بينهما

1 ــ الكتاب. ط الخانجي. 126/2.

2 ــ ينظر الكتاب. ط الخانجي. 328/1.

3 ــ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: جلال الدين عبد الرحمان السيوطي. تحقيق عبد السلام هارون و عبد العال سالم مكرم. دار البحوث العلمية. القاهرة. 1975م . 28/2.

أو لسبب آخر، ويعلم أن له أخا ولا يدري أنّه زيد هذا فتقول له أنت: زيدٌ أخوك، أي زيد هذا الذي عرفته هو أخوك الذي كنت علمته، فتكون الفائدة في اجتماعهما، وذلك هو الذي استفاد المخاطب، فمتى كان الخبر عن المعرفة معرفة فإنما الفائدة في مجموعهما"[1].

وقد ورد هذا النمط في الربع الأخير من القرآن على أشكال مختلفة يرجع سببها إلى تنوّع المعرفة، ومنها:

أن يكون المبتدأ علم والخبر معرّف بـــ(ال) أو مضاف إلى معرفة كقوله تعالى: وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ [محمد:38]، فـــ"التعريف باللام في (الغني) وفي (الفقراء) تعريف الجنس، وهو فيهما مؤذن بكمال الجنس في المخبر عنه، ولما وقعا خبرين وهما معرفتان أفادا الحصْر، أي قصر الصفة على الموصوف، أي قصر جنس الغنى على الله وقصر جنس الفقراء على المخاطبين بـــ (أنتم).

و"هو قصر ادعائي فيهما مرتب على دلالة (ال) على معنى كمال الجنس، فإن كمال الغنى لله لا محالة لعمومه ودوامه، وإن كان يثبت بعض جنس الغنى لغيره، وأما كمال الفقر للناس فبالنسبة إلى غنى الله تعالى، وإن كانوا قد يغْنَون في بعض الأحوال، لكن ذلك غنًى قليل وغير دائم"[2].

وقوله تعالى: (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)[الجمعة:11]. فالله يرزق الرزق لمن يرضى عنه سليماً من الأكدار والآثام، ولأنه يرزق خير الدنيا وخير الآخرة، وليس غير الله قادراً على ذلك، والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله وهو العالم بالسرائر.3

ومن ذلك قوله تعالى:(اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) [الزمر:62] وقد يبدوا تركيب هذه الآية عاديا وبسيطا فـــ(اللّه) مبتدأ، و(خالق كل شيء) خبر، إلا أن هذه الآية طرحت إشكالا في دخول ما حصل به الإخبار في الخبر، ولذلك احتج المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى: (خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) ونحو ذلك من الآيات.

1 ــ الأصول. ابن السراج:72/1.

2 ــ تفسير التحرير والتنوير. الشيخ محمد الطّاهر بن عاشور. دار سحنون للنشر والتوزيع. تونس. دت. 138/26.

3 ــ ينظر التحرير والتنوير. 230/28.

قال ابن القيم: "أجاب الأكثرون: بأنه عام مخصوص، يختص محل التراع، كسائر الصفات: من العلم والنحو.

قال ابن عقيل في الإرشاد: ووقع نحو لي هذا، أن القرآن لا تتناوله هذه الأخبار، ولا تصلح لتناوله، قال: لأن به حصل عقد الإعلام بكون اللّه خالقا لكل شيء، وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلا تحت الخبر، قال: ولو أن شخصا قال: لا أتكلم اليوم كلاما إلا كذبا، لا يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به"[1].

قال: "ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورا في قوله في قصة مريم: (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) [مريم:26] وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها، فقولها (فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) به يحصل إخبارها بأنها لا تكلم الإنس، و لم يكن ما أخبرت به داخلا تحت الخبر، وإلا كان قولها مخالفا لنذرها"[2].

ومثله قوله تعالى: (و إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) [الجاثية:19].

ولا شك أنّ هذه الآيات (الجمل) التي يأتي فيها الخبر معرفة، لا يمكن أن يكون فيها الخبر فعلا، ذكر الجرجاني إن "من فروق الخبر، الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم، وبينه إذا كان بالفعل، وبيانه أنّ موضع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء"[3].

ثم قال في توجيه الخبر حينما يكون وصفا: "ومتى اعتبرت الحال في الصفات المشبهة وجدت الفرق ظاهرا بيّنا، و لم يعترضك الشك في أنّ أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه، فإذا قلت: (زيدٌ طويل) و(عمرو قصيرٌ) لم يصلح مكانه (يطول) و(يقصر)، وإنما تقول: (يطول) و(يقصر) إذا كان الحديث عن شيء يزيد وينمو كالشجر والنبات والصبي ونحو

1 ــ تفسير القرآن الكريم (التفسير القيم): محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. تحقيق مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية. إشراف الشيخ إبراهيم رمضان.دار ومكتبة الهلال. بيروت. 1410هـ. ــ 458/1.

2 ــ نفسير القرآن الكريم: ابن القيم. 458/1.

3 ــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص: 184ــ185.

ذلك مما يتجدد فيه الطول أو يحدث فيه القصر، فأما وأنت تحدّث عن هيئة ثابتة، وعن شيء قد استقر طوله، و لم يكن ثمّ تزايد وتجدد، فلا يصلح فيه إلا الاسم"[1].

ومن ذلك أن يكون المبتدأ اسم إشارة و الخبر معرّف بـــ (ال) كقوله تعالى: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) [الحشر:9].

فاسم الإشارة في (أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) متوجه إلى الذين أجرى عليهم من الصفات ما تقدم، وأصل الإشارة أن تعود إلى ذات مشاهدة معينة إلاّ أن العرب قد يخرجون بها عن الأصل فتعود إلى ذات مستحضرة من الكلام، بعد أن يذكر من صفاتها وأحوالها مايترلها مترلة الحاضر في ذهن المتكلم والسامع، فإن السامع إذا وعى تلك الصفات وكانت مبهمة أو غريبة في خير أو ضده صار الموصوف بها كالمشاهد، فالمتكلّم يبني على ذلك فيشير إليه كالحاضر الشاهد، فيؤتى بتلك الإشارة للإيضاح في التشخيص، وبيان تلك الصفات، فتكون الإشارة إليها.

هذا أصل الاستعمال في إيراد الإشارة بعد ذكر الصفات مع عدم حضور المشار إليه، ثمّ إنهم قد يتبعون اسم الإشارة الوارد بعد تلك الأوصاف بأحكام فيدل ذلك على أن منشأ تلك الأحكام هو تلك الصفات المتقدمة على اسم الإشارة، لأنها لما كانت هي طريق الاستحضار كانت الإشارة لأهل تلك الصفات قائمة مقام الذوات المشار إليها، فكما أن الأحكام الواردة بعد أسماء الذوات تفيد أنها ثابتة للمسمّيات، فكذلك الأحكام الواردة بعد ما هو للصفات تفيد أنها ثبتت للصفات، كقول حاتم الطّائي:

ولله صعلوك يســـاور همـــّه ويَمضي على الأحداث والدّهر مُقدِما
فتى طَلَبات لا الخَمص تُرحة ولا شُبْعةً إن نـــــالها عدّ مغنـــــــما[2]

إلى أن قال: فذلك إن يهلِك فحُسنى ثناؤُه وإن عاش لم يقعد ضـــــــعيفا مذمما

و (...هم المفلحون) الضمير للفصل، والتعريف في(المفلحون) للجنس، وهو الأظهر إذ لا معهود هنا بحسب ظاهر الحال، بل المقصود إفادة أن هؤلاء مفلحون، وتعريف المسند

1 ــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص: 184ــ185.
2 ــ ديوان حاتم الطائي. حاتم الطائي. دار صادر. 1981م. ص: 82.

بلام الجنس إذا حمل على مسند إليه معرّف أفاد الاختصاص، فأما إذا كان التعريف للجنس وهو الظاهر، فتعريف المسند إليه مع المسند من شأنه إفاده الاختصاص غالبا، لكنه هنا مجرد عن إفادة الاختصاص الحقيقي، ومفيد شيئا من الاهتمام بالخبر، فلذلك جلب له التعريف دون التنكير، وهذا مثّله عبد القاهر بقولهم: هو الباطل الحامي، أي إذا سمت بالبطل الحامي وأحطت به خبرا فهو فلان[1].

ومنه قوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [الحشر:19] .

فجملة (أولئك هم الفاسقون) مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان الإبهام الذي أفاده قوله (فأنساهم أنفسهم)، كأنّ السامع سأل: ماذا كان أثر إنساء الله إياهم أنفسهم؟ فأجيب بأنهم بلغوا بسبب ذلك منتهى الفسق في الأعمال السيئة، حتى حق عليهم أن يقال:إنّه لا فسق بعد فسقهم.

وورد مثلها في قوله تعالى: (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (٦٣) [الزمر:63] والإخبار عن الذين كفروا باسم الإشارة في جملة (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) للتنبيه عن أنّ المشار إليهم خسروا لأجْلِ ما وصفوا به قبلَ اسمِ الإشارة، وهو الكفر بآيات الله، وتوسطُ ضمير الفصل لإفادة حصر الخسارة فيهم، وهو قصر مبني على عدم الاعتداد بخسارة غيرهم بالنسبة إلى خسارتهم، فخسارتهم أعظم خسارة.

ومثله قوله تعالى: (فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [الممتحنة:9].

وقوله تعالى: (أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [الحشر:8].

وجيء في الآيات السابقة بضمير الفصل للدلالة على أن ما بعده خبر وليس تابعا، قال ابن هشام عن ضمير الفصل: "ولهذا سمي فصلا، لأنه فصل بين الخبر والتابع، وعمادا لأنه يعتمد عليه معنى الكلام، وأكثر النحويين يقتصر على هذه الفائدة"[2].

ومن هذا النمط ما ذكره الله تعالى على لسان فرعون: (فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣)فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى (٢٤) [النازعات] فقوله: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) إنما هي كلمات ثلاث: مبتدأ، وخبر، وصفة للخبر ـــ لم تزد في إيجاز بليغ، ولهذا الإيجاز دلالته على الحالة النفسية للطاغية

1 ـــ ينظر التحرير والتنوير:246/01.

2 ـــ مغني اللبيب: 568/5.

حين شعر بالخطر، وهو متسق مع ما جار في السورة كلها من سرعة حاسمة، على حين كان مقام التفصيل في (سورة طه) حيث ورد "حديث موسى" في نحو تسعين آية، اتسعت لذكر الحوار بين فرعون وموسى، ثم بينه وبين السحرة، وهو ما لم يتجه القصد إلى شيء منه في (سورة النازعات) ــ وموضوعها اليوم الآخر، لا قصة موسى – اكتفاء بموضع العبرة في بيان مصير الطغاة.

وفي لفظ (الْأَعْلَى) هنا ملحظ دقيق، فليس القصد منه معنى المفاضلة، وإنما هو الإطلاق غير المحدود بمفضول، ومثله: الأشقى، والأتقى.

ويبيّن الجرجاني وجه الفرق بين الخبر حين يكون نكرة، و حين يكون معرفة، فيقول: "إعلم أنك إذا قلت: (زيد منطلق) كان كلامك مع من لم يعلم أنّ انطلاقا كان، لا من زيد ولامن عمرو، فأنت تفيده ذلك ابتداء، وإذا قلت: (زيدُ المنطلق) كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان، إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره..وتمام التحقيق أن هذا كلام يكون معك، إذا كنت قد بلّغت أنه كان من إنسان انطلاق من موضع كذا في وقت كذا لغرض كذا، فجوّزت أن يكون ذلك من زيد، فإن قيل لك: (زيد المنطلق)، صار الذي كان معلوما على جهة الجواز معلوما على جهة الوجوب، ثمّ إنهم إذا أرادوا تأكيد هذا الوجوب أدخلوا الضمير المسمّى (فصلا) بين الجزئين فقالوا: (زيد هو المنطلقُ)"[1].

ومنها أن يأتي المبتدأ اسم إشارة والخبر اسما موصولا كقوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) [محمد:16]

فـــ"جيء باسم الإشارة بعد ذكر صفاتهم [أي:الكفار] تشهيراً بهم، وجيء بالموصول وصلته خبراً عن اسم الإشارة، لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس أنهم فريق مطبوع على قلوبهم، لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمّموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم وأنهم متّبعون لأهوائهم"[2].

وورد ذلك في قوله تعالى: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) [محمد:23].

1 ــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص:178/177.

2 ــ التحرير والتنوير: 101/26.

وقوله تعالى: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواخَاسِرِينَ) [الأحقاف:17].

وقوله تعالى: (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) [الشورى:23] .

وجيء باسم الإشارة في الآية الأخيرة ــ البعيد استعارة لكون المشار إليه بعيد المكانة، وأما الإخبار بالاسم الموصول فقد جعل الجرجاني هذا على معنى الوهم والتقدير، وأن يصوّر في خاطره شيئا لم يره و لم يعلمه، ثم يجريه مجرى ما عهد وعلم، فقال: " وليس شيء أغلب على هذا الضرب الموهوم من الذي، فإنّه يجيء كثيرا على أنك تقدّر شيئا في وهمك، ثمّ تعبر عنه (بالذي)... فهذا ونحوه على أنك قدرت إنسانا هذه صفته وهذا شأنه، وأحلت السامع على من يعنّ في الوهم، دون أن يكون قد عرف رجلا بهذه الصفة."[1]

ومن ذلك أن يأتي المبتدأ اسم إشارة والخبر معرفا بالإضافة كقوله تعالى: (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) [الزمر:34] فالمشار إليه بـــ(ذالكَ جزاء المُحسنين) هو (ما يشاءون)، لما تضمنه من أنه جزاء لهم على التصديق، و(ذلك) مبتدأ و(جزاء المحسنين) خبر، والجملة في محل نصب على الحال، وأشير إليه باسم الإشارة لتضمنه تعظيماً لشأن المشار إليه، والمراد بالمحسنين أولئك الموصوفون بأنهم المتقون، وكانَ مقتضى الظاهر أن يؤتى بضميرهم، فيقال: ذلك جزاؤهم، فوقع الإظهار في مقام الإضمار لإفادة الثناء عليهم بأنهم محسنون[2].

ومن صور ذلك أن ترى المبتدأ ضميرا منفصلا والخبر علما (اسم الجلالة)كقوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) [الحشر:22]

فـــ(هو) مبتدأ، واسم الجلالة خبر عنه، و(الذي) صفة لاسم الجلالة، وكان مقتضى الظاهر الاقتصار على الضمير دون ذكر اسم الجلالة، لأن المقصود الإخبار عن الضمير بـــ (الذي لاإله إلا هو)، وبما بعد ذلك من الصفات العليا، فالجمع بين الضمير وما يساوي

1 ــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص:183/184.

2 ــ ينظر التحرير والتنوير: 9/24.

معاده اعتبار بأن اسم الجلالة يجمع صفات الكمال، لأن أصله الإله، ومدلوله الإله، بمقتضى جمع صفات الكمال"1.

ومن ذلك قوله تعالى: (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [المنافقون:4]، فقد ورد المبتدأ ضميرا، وورد الخبر اسما معرّفا بـــ (ال)، وهو من باب من اتّضح أمره وعرف شأنه، فهم المتّضح أمرهم المنكشف سرّهم في العداوة، فأتي بالتعريف هنا للتعيين والبيان,

النمط الثاني: المبتدأ معرفة والخبر نكرة.

وجاء هذا النمط على أشكال متعددة: كأن تجد المبتدأ اسم إشارة و الخبر نكرة مثل قوله تعالى: هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ [الجاثية:11]،

فالإشارة بقوله (هذا) إلى القرآن الذي هو في حال النزول والتلاوة، فهو كالشيء المشاهد، ولأنه قد سبق من أوصافه من قوله (تنزيل الكتاب من العزيز الحكيم)، وقوله (تلك آيات الله) إلى آخره، ماصيره متميزا شَخصا يحسن الإشارة إليه، ووصف القرآن بأنه هدى من الوصف بالمصدر للمبالغة، أي هاد للناس، فمن آمن فقد اهتدى، ومن كفر فله العقاب لأنه حرم نفسه من الهدى2.

ومثله قوله تعالى: (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [الجاثية:20]

و قوله تعالى: (أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ) [المعارج:35].

ومنها أن يكون المبتدأ اسم علم و الخبر نكرة كقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [الحجرات:18].

وقوله تعالى: (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [المجادلة:03].

و فيه وعيد يتضمن التحذير، و(خبير) للمبالغة، وهو العلم بما لطف والتقصي له.

ومن صور ذلك أن يكون المبتدأ اسما موصولا والخبر نكرة موصوفة، وذلك كقوله تعالى: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) [المعارج:24 – 25]، وجاء في

1 ــ التحرير والتنوير: 118/27.

2 ــ ينظر التحرير والتنوير: 334/25.

سورة الذاريات: (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) [الذاريات:19] فزيدت الصفة في سورة المعارج من قوله (معلوم) وسقطت في الذاريات، لأن آية المعارج قد تقدمها متصلاً بها قوله تعالى: (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) [المعارج:22]، والمراد بالصلاة هنا المكتوبة، وأيضاً قرن بها في آي الكتاب الزكاة المفروضة، وبها فسر المفسرون الحق المعلوم في آية المعارج.

قال الزمخشري: "لأنها مقدرة معلومة"[1]، وليس في المال حق مقدر معلوم وقتاً ونصاباً ووجوباً غيرها، فلما أريد بالحق هنا الزكاة أتبع بوصف يحرز المقصود.

ولما قصد في آية الذاريات غير هذا المقصد بدليل ما تقدمها من قوله تعالى: (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الذاريات:16-18]، فوصف هؤلاء بطول صلاتهم وتهجدهم ومداومتهم الاستغفار في الأسحار، فذُكِروا بزيادة من التطوع والنفل على ما فرض عليهم، ومن الزيادة في أعمالهم على ما فرض عليهم مما يعد تاركه إذا تركه مهملاً، فناسب هذا الإطلاق الوارد في إنفاقهم، ليفهم الزيادة على ما فرض عليهم من الزكاة المقدرة، ولم يكن ليناسب آية الذاريات الإشارة إلى قدر المنفوق كما في سورة المعارج، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، فورد كل على ما يجب.

ومن هذا النمط قوله تعالى: (لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣) [الحشر:13]، واللام في (لأنتم) لام الابتداء، و(أنتم) مبتدأ، و(أشد خبر)، و(رهبة) تمييز، وهو مصدر رهب المبني للمجهول هنا، لأن المخاطبين مرهوب منهم لا راهبون، و(في صدورهم) نعت لرهبة، و(من اللّه) جار ومجرور متعلقان برهبة، و (من الله) على حذف مضاف، أي من رهبة الله، أي: من رهبتهم الله، كما قال النابغة:

وقد خفت، حتى ما تزيد مخافتي على وَعِلٍ، في ذي المطارة، عاقل[2]

أي: على مخافة وَعل .

---

1 ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. المؤلف: العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت538هـ. الكتاب مذيل بحاشية الإمام العلامة أحمد بن محمد ، المعروف بابن المنير. وتخريج أحاديثه للإمام الزيلعي. دار الكتاب العربي. بيروت.1407هـ ــ 613/4.

2 ــ ديوان النابغة الذبياني: اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس. دار المعرفة. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. 2005م. ص:93.

وإسناد (أشَدّ) إلى ضمير المسلمين المخاطبين إسناد سببيّ، كأنه قيل: لرهبتكم في صدورهم أشد من رهبة الله فيها، فالرهبة في معنى المصدر المضاف إلى مفعوله ، وكل مصدر لفعل متعدّ يحتمل أن يضاف إلى فاعله أو إلى مفعوله، ولذلك فسره الزمخشري بأشد مرهوبية[1].

قال ابن عاشور: "وهذا تركيب غريب النسج بديعه، والمألوف في أداء مثل هذا المعنى أن يقال: لَرهبتهم منكم في صدورهم أشد من رهبتهم من الله، فحُوّل عن هذا النسج إلى النسج الذي حبك عليه في الآية، ليتأتّى الابتداء بضمير المسلمين اهتماماً به، وليكون متعلّق الرهبة ذوات المسلمين، لتوقع بطشهم، وليأتي التمييز المحول عن الفاعل، لما فيه من خصوصية الإجمال مع التفصيل، كما تقرر في خصوصية قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيباً) [مريم:4] دون: واشتعل شيبُ رأسي"[2].

وليتأتى حذف المضاف في تركيب (من الله)، إذ التقدير: من رهبة الله لأن حذفه لا يحسن إلا إذا كان موقعه متصلاً بلفظ (رهبة)، إذ لا يحسن أن يقال: لرهبتهم أشد من الله.

قال أبو حيان: "ثم خاطب المؤمنين بأن هؤلاء يخافونكم أشد خيفة من الله تعال، لأنهم يتوقعون عاجل شركم، ولعدم إيمانهم لا يتوقعون أجل عذاب الله، وذلك لقلة فهمهم، ورهبة: مصدر رهب المبني للمفعول، كأنه قيل : أشد مرهوبية، فالرهبة واقعة منهم لا من المخاطبين، والمخاطبون مرهوبون، وهذا كما قال[3]:

فلهو أخوف عندي إذ أكلمه ... وقيل إنك مأسور ومقتول

من ضيغم بثراء الأرض مخدره ... ببطن عثر غيل دونه غيل[4]

---

1 ــ ينظر الكشاف: 507/4.

2 ــ التحرير والتنوير:102/28ــ103.

3 ــ البيتين من بردة كعب بن زهير التي جاء بها معتذرا ومادحا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وهو في ديوانه هكذا:

لذاك أهيبُ عنـــدي إذ أكلّمُـــه ... وَقيل إنّك مَسبُور ومسؤول

من ضَيغم من ضِراء الأسد مخدرُه ... ببطن عثَّرَ غِيلٌ دونه غيـــلُ

ديوان كعب بن زهير.حققه وشرحه وقدّم له الأستاذ علي فـــاعور. منـــشورات دار الكتـــب العلميـــة. بـــيروت. لبنـــان. 1997م.ص:66.

4 ــ تفسير البحر المحيط. المؤلف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق : ا عادل أحمد عبد الموجـــود. واعلـــي محمد معوض. شارك في التحقيق: زكريا عبد المجيد النوقي . أحمد النجولي الجمل. دار الكتب العلمية .الطبعـــة الأولى. لبنـــان. بيروت.1422 هـــ .2001م ــ 247/8.

فاليهود والمنافقون من شأنهم أن يخشوا الله، أما اليهود فلأنهم أهل دين فَهُم يخافون الله، ويحذرون عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وأما المنافقون فهم مشركون، وهم يعترفون بأن الله تعالى هو الإله الأعظم، وأنه أولى بأن يخشى، لأنه ربّ الجميع، وهم لا يثبتون البعث والجزاء، فخشيتهم الله قاصرة على خشية عذاب الدنيا من خسف وقحط واستئصال، ونحو ذلك، وليس وراء ذلك خشية، وهذا بشارة للنبيء والمسلمين بأن الله أوقع الرعب منهم في نفوس عدوّهم، كما قال النبي (ﷺ): نُصِرت بالرعب مسيرة شهر.

و"وجه وصف الرهبة بأنها (في صدورهم) الإشارة إلى أنها رهبة جدُّ خفيّة، أي أنهم يتظاهرون بالاستعداد لحرب المسلمين ويتطاولون بالشجاعة ليرهبهم المسلمون، وما هم بتلك المثابة، فأطلع الله رسوله على دخيلتهم"[1].

النمط الثالث: المبتدأ معرفة والخبر جملة اسمية

ومن أشكاله أن يكون المبتدأ اسما موصولا والخبر (مبتدأ وخبره مفرد)كقوله تعالى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ [الشورى:06]

فجاء المبتدأ اسما موصولا و الخبر جملة اسمية، فـــ(الذين) مبتدأ، و جملة (الله حفيظ عليهم) خبره[2]، وأشرب الموصول معنى الشرط، ليفيد كل من اتصف بمضمون الصلة المنزلة منزلة جملة الشرط، فيفيد أن ذلك مستمر الارتباط و التعليل في جميع أزمنة المستقبل التي يتحقق فيها معنى الصلة، فقد حصل في هذه الجملة من الخصوصيات البلاغية ما لا يوجد مثله في غير الكلام المعجز.

والحفيظ:فعيل بمعنى فاعل،أي حافظ، وتختلف معانيها ومرجعها إلى رعاية الشيء والعناية به، ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال المرقوب وأعماله، وباختلاف معانيه

1 ــ التحرير والتنوير: 103/28.

2- جاء في الهمع : "ولما كان الخبر مرتبطا بالمبتدأ ارتباطا المحكوم به بالمحكـــوم عليه لم يحتج إلى حرف رابط بينهما كـــما لم يحتج الفعـــل و الفاعل إلى ذلك , فكان الأصل أن لا تدخل الفاء على شيء من خبر المبتدأ ، لكنه لما لحظ في بعض الأخبـــار معنى ما يدخل الفاء فيه دخلت وهو شرط الجزاء " همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: -56/2

تختلف تعديته بنفسه أو بحرف جر يناسب المعنى، وقد عدي هنا بحرف (على) كما يعدى الوكيل لأنه بمعناه1.

ومثله قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [التغابن:10]

فقوله: (الذين كفروا وكذّبوا) مبتدأ، و(أولائك أصحاب النار) خبره، أي: كفروا وكذّبوا من قبل، واستمروا على كفرهم وتكذيبهم، فلم يستجيبوا لهذه الدعوة، فثبت لهم أنهم أصحاب النار، ولذلك جيء في جانب الخبر عنهم بالجملة الاسمية الدّالة على الثبات لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وجيء لهم باسم الإشارة لتميزهم تمييزا لا يلتبس معهم غيرهم بهم، مثل قوله (أولئك على هدى من ربهم)، مع ما يفيده اسم الإشارة من أن استحقاقهم لملازمة النار ناشئ عن الكفر والتكذيب بآيات الله، وهذا وعيد.

ومنها أن يكون المبتدأ اسم إشارة والخبر جملة اسمية منسوخة، من ذلك قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) [محمد:03]

فاسم الإشارة مبتدأ، وقوله: (بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) الخ خبره، والباء للسببيّة ومجرورها في موضع الخبر عن اسم الإشارة، أي: ذلك كائن بسبب اتّباع الكافرين الباطل واتّباع المؤمنين الحق.

قال صاحب التحرير معلقا على مناسبة الخبر في هذه الآية وعلاقتها بالخبرين المتقدمين عليها في الآيتين الأوليين: "ولما كان ذلك جامعاً للخبرين المتقدمين، كان الخبر عنه متعلقاً بالخبرين وسبباً لهما، وفي هذا محسن الجمع بعد التفريق، ويسمونه كعكسه التفسيرَ، لأن في الجمع تفسيرا للمعنى الذي تشترك فيه الأشياء المتفرقة، تقدمَ أو تأخَّرَ، وشاهده قول حسان من أسلوب هذه الآية:

قوم إذا حاربوا ضَرّوا عدوَّهم ... أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نفَعوا

سَجية تلكَ فيهم غير مُحدثة ... إنَّ الخَلائق فاعَـــلمْ شرُّها البِدَع"[1][2]

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 32/25.

وكان الزمخشري قد سبق إلى بيان هذا المحسن البلاغي ذاكرا الوجهين المحتملين لإعراب للآية السابقة، فقال:

"(ذلِكَ) مبتدأ، وما بعده خبره، أى: ذلك الأمر، وهو إضلال أعمال أحد الفريقين، وتكفير سيئات الثاني: كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل، وهؤلاء الحق، ويجوز أن يكون (ذلك) خبر مبتدإ محذوف، أي: الأمر كما ذكر بهذا السبب، فيكون محل الجار والمجرور منصوبا على هذا، ومرفوعا على الأوّل، والْباطِلَ ما لا ينتفع به، وعن مجاهد: الباطل الشيطان: وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير"[3].

ثم عرّج ابن عاشور على المعنى البلاغي المستفاد من مجيء المبتدأ اسم إشارة، فقال: "والإتيان باسم الإشارة لتمييز المشار إليه أكملَ تمييز تنويهاً به ...والإشارة إلى ما تقدم من الخبرين المتقدمين، وهما (أضَلَّ أعْمَالَهُم) [محمد:1]، و(كفَّرَ عَنهُم سَيِئاتِهِمْ وأَصْلَحَ بَالَهُمْ) [محمد:2]، مع اعتبار علتي الخبرين المستفادتين من اسمي الموصول والصلتين، وما عطف على كلتيهما"[4].

النمط الرّابع: المبتدأ معرفة و الخبر جملة فعلية

وقد ترى فيه المبتدأ ضميرا والخبر جملة فعلية مثبتة كقوله تعالى: (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) [الواقعة:57]

وتقدّم فيها المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوية الحكم، ردّا على إحالتهم أن يكون الله قادرا على إعادة خلقهم بعد فناء معظم أجسادهم حين يكونون ترابا وعظاما، فهذا تذكير لهم بما ذهلوا عنه، بأن الله خلقهم لما لم يجروا على موجب ذلك العلم، بإحالتهم بإعادة الخلق، نزلوا منزلة من يشك في أن الله خلقهم"5.

وقد تجد المبتدأ اسما علما والخبر جملة فعلية كقوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ [الرحمن:1ـــ5]

---

1 ـــ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري. شرح عبدأ مهنّا. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. 1994م. ص:152.

2 ـــ التحرير والتنوير: 76/26.

3 ـــ الكشاف: 315/4.

4 ـــ التحرير والتنوير: 76/26.

5 ـــ التحرير والتنوير:312/27.

وافتتح باسم (الرحمن) ليكون فيه تشويق السامعين إلى الخبر الذي يخبر به عنه، إذ كان المشركون لا يألفون هذا الاسم، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) [الفرقان:60] فهم إذا سمعوا هذه الفاتحة ترقّبوا ما سيرد من الخبر عنه، والمؤمنون إذا سمعوا هذا الاسم استشرفوا لما سيرد من الخبر المناسب لوصفه هذا مما هم متشوقون إليه من آثار رحمته[1].

وأوثر استحضار الجلالة باسم (الرحمن) دون غيره من الأسماء، لأن المشركين يأبون ذكره، فيجمع في هذه الجملة بين ردين عليهم، مع ما للجملة الاسمية من الدلالة على ثبات الخبر، وجيء بالمسند فعلا مؤخرا عن المسند إليه لإفادة التخصيص، أي علّم القرآن لا بشر علّمه.

كما ورد المبتدأ لفظ الجلالة والخبر جملة فعلية في قوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) [محمد:19].

وقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) [محمد:26]

قال الجرجاني: "فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدّث عنه بفعل فقدمت ذكره، ثم بنيت الفعل عليه فقلت: (زيدٌ قد فعل)، و(أنا فعلت)، و(أنت فعلت)، اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل، إلا أن المعنى في هذا القصد ينقسم قسمين:

أحدهما جلي لا يشكل: وهو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له، وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر، أو دون كل أحد، ومثال ذلك أن تقول: (أنا كتبت في معنى فلان، وأنا شفعت في بابه)، تريد أن تدّعي الانفراد في ذلك والاستبداد به، وتزيل الاشتباه فيه، وتردّ على من زعم أن ذلك كان من غيرك، أو أن غيرك قدكتب فيه كما كتبت...

والقسم الثاني: أن لا يكون القصد إلى الفاعل على هذا المعنى، ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل، وتمنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذكره، وتوقعه أولا، ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه، لكي تباعده في ذلك من الشبهة، وتمنعه من

1 ــ التحرير والتنوير:230/27.

الإنكار، أوأن يظن بك الغلط أو التزيّد، ومثال قولك (هو يعطي الجزيل)، و(هو يحب الثناء)، لاتريد أن تدّعي أنه ليس هنا من يعطي الجزيل ويحب الثناء غيره، ولا أن تعرّض بإنسان وتحطّه عنه...ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه، وأن تمكّن ذلك من نفسه"[1].

ثمّ قال:"فإن قلت:فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدَّث عنه بالفعل، آكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله: (هما يلبسان المجد) أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال: (يلبسان المجد)؟...جملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة غُفلا، مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجري تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام، ومن ههنا قالوا: إن الشيء إذا أضمر ثم فسِّر كان أفخم له من أن يذكر من غير تقدمة إضمار"[2].

وقال: "واعلم أن هذا الصنيع يقتضي في الفعل المنفي ما اقتضاه في المثبت"3.

ومنه قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [الجاثية:26] وتقديم اسم الله على المسند الفعلي وهو (يحييكم ثم يميتكم) يفيد تخصيص الإحياء والإماتة به لإبطال قولهم، إن الدهر هو الذي يميتهم.

ومنه قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ...) [الزمر:23] وافتتاح الجملة باسم الجلالة يؤذن بتفخيم أحسن الحديث المنزل، بأن منزّله هو أعظم عظيم، ثم الإخبار عن اسم الجلالة بالخبر الفعلي يدل على تقوية الحُكم، إذ هو على نحو قولهم: هو يعطي الجزيل، ويفيد مع التقوية الدلالة على الاختصاص، أي: اختصاص تنزيل الكتاب بالله تعالى، والمعنى: الله نزّل الكتاب لا غيرُه وضَعه، ففيه إثبات أنه منزّل من عالم القدس، وذلك أيضاً كناية عن كونه وحياً من عند الله لا من وضع البشر.

فدلت الجملة على تقَوٍ واختصاصٍ بالصراحة، وعلى اختصاص بالكناية، وإذ أخذ مفهوم القصْر، ومفهوم الكناية، وهو المغاير لمنطوقهما، كذلك يؤخذ مغاير التنزيل فعلاً يليق بوضع البشر، فالتقدير: لا غير الله وضَعه، ردّاً لقول المشركين: هو أساطير الأولين.

1 ــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص:128ــ129.

2 ــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص:132.

3 ــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص:138.

قال ابن عاشور: "ومفاد هذا التقديم على الخبر الفعلي فيه تحقيقٌ لما تضمنته الإضافة من التعظيم لشأن المضاف في قوله تعالى: (مِن ذِكرِ الله) [الزمر:22] ، فالمراد بـــ (أحْسَنَ الحديثِ) عين المراد بـــ (ذِكرِ الله) وهو القرآن، فعدل عن ذكر ضميره لقصد إجراء الأوصاف الثلاثة عليه، وهي قوله:(كِتاباً مُتشابِهاً مثَاني تَقْشَعر منه جلودُ الذين يخشونَ ربَّهُم) الخ، فانتصب (كِتاباً) على الحال من (أحْسَنَ الحديثِ) أو على البدلية من (أحْسَنَ الحديثِ)، وانتصب (مُتَشَابِهاً) على أنه نعتُ (كِتَاباً)"[1].

ومن ذلك أن يكون المبتدأ اسما موصولا والخبر جملة فعلية: ومن أمثلته: قوله تعالى: (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) [محمد:01]، فـــ (الذين) مبتدأ، وجملة (كفروا) صلة، و(صدوا) عطف على (كفروا)، و(عن سبيل الله) متعلقان بـــ (صدّوا)، و(أضل أعمالهم) فعل، وفاعله مستتر يعود على الله تعالى، ومفعول به، والجملة خبر (الذين)، وأجاز أبو البقاء أن ينتصب (الذين) بفعل دل عليه المذكور، أي: أضل الذين كفروا[2].

و"في الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كُفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي: لأجل كفرهم وصدهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود"3.

وقوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ [محمد:02]

والغريب في الآيتين هو ذلك التقابل الجملي بين الأوصاف الثلاثة:

فـــ(الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يقابل (الذين كفروا)

و(وصدّوا عن سبيل الله) يقابل (وآمنوا بما نزّل على محمد ـــ وهو الحق من ربهم ـــ)

و(كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) يقابل (أضلّ أعمالهم)

---

1 ـــ التحرير والتنوير:384/23.

2 ـــ ينظر إعراب القرآن وبيانه. تأليف الأستاذ: محي الدين الدرويش. دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق. بيروت. الطبعة السابعة. 1420هـــ. 1999م ـــ 189/7.

3 ـــ التحرير والتنوير: 73/26.

و من مبررات الابتداء بالموصول والإخبار عنه بالجملة الفعلية بيان أن صلة الموصول هي علة الخبر الوارد بعدها، ولإفادة تقوية الخبر، كما في قوله تعالى في السورة نفسها: (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) [محمد:4].

وهذا ما صرح به صاحب التحرير والتنوير في قوله: "وذكر (الذين قاتلوا في سبيل الله) إظهار في مقام الإضمار، إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فلن يُضل الله أعمالكم، وهكذا بأسلوب الخطاب، فعدل عن مقتضى الظاهر من الإضمار إلى الإظهار، ليكون في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة تقوّي الخبر، وليكون ذريعة إلى الإتيان بالموصول للتنويه بصلته، وللإيماء إلى وجه بناء الخبر على الصلة، بأن تلك الصلة هي علة ما ورد بعدها من الخبر"[1].

ثم أوضح دلالة ارتباط الخبر الفعلي بالفاء مفسرا إياها بما تتضمنه هذه الفاء من معنى السببية قائلا: "فجملة (فلن يضل أعمالهم) خبر عن الموصول، وقرنت بالفاء لإفادة السببية في ترتب ما بعد الفاء على صلة الموصول، لأن الموصول كثيراً ما يشرب معنى الشرط فيقرن خبره بالفاء، وبذلك تكون صيغة الماضي في فعل (قاتلوا) منصرفة إلى الاستقبال، لأن ذلك مقتضى الشرط، وجملة (سيهديهم) وما عطف عليها بيان لجملة (فلن يضل أعمالهم)"[2].

ومن فوائد الإخبار بالفعل المضارع الدلالة على التجدد والتكرار كقوله تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) [غافر:7]، و"صيغةُ المضارع في (يسبحون) و (يؤمنون) و (يستغفرون) مفيدة لتجدد ذلك وتكرره، وذلك مشعر بأن المراد أنهم يفعلون ذلك في الدنيا، كما هو الملائم لقوله: (فَاغْفِرْ لِلَّذِين تَابُوا) [غافر:7]، وقوله: (وأدخِلهم جَنَّات عَدنٍ التي وعَدتَّهُم) [غافر:8]، وقوله: (ومَن تَقِ السَّيِّئات...) [غافر:9]"[3].

ومن الأغراض التي يفيدها الإخبار بالفعل المضارع بمعية القرائن الدعاء، مثل قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي

1 ــ التحرير والتنوير: 83/26.
2 ــ التحرير والتنوير: 84/26.
3 ــ التحرير والتنوير: 90/24.

مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) [الزمر:46]، فجملة (أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ) خبر مستعمل في الدعاء، فـــ(أنت) مبتدأ، وجملة (تحكم) خبر، و(بين عبادك) الظرف متعلق بـــ (تحكم) والمعنى: احكم بيننا، وفي تلقين هذا الدعاء للنبيء (صلى الله عليه وسلم) إيماء إلى أنه الفاعل الحق، وتقديم المسند إليه على الخبر الفِعْلي في قوله: (أنت تحكم) لإفادة الاختصاص، أي: أنت لا غيرك.

ومنه أن يكون المبتدأ معرفا بالإضافة والخبر جملة فعلية كقوله تعالى: فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)[الفجر]

وجاء تقديم (ربي) على فعل (أكرمني) وفعلِ (أهانني)، دون أن يقول: أكرمني ربي أو أهانني ربي، لقصد تقوّي الحكم، أي: يقول ذلك جازماً به غير متردد، وأوثِر الفعل المضارع في الجوابين لإفادة تكرر ذلك القول وتجدده كلما حصل مضمون الشرطين.

الابتداء بالنكرة:

الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة، وقد يكون نكرة، ولكن بشرط أن تفيد[1]، وتحصل الفائدة بأحد أمور، أخذ المتأخرون من النحويين يتتبعون شروط الفائدة بها، حتى أنهى بعضهم ذلك إلى نيف وثلاثين موضعا، قال سيبويه: "ولو قلت: (رجل ذاهب) لم يحسن حتى تعرّفه بشيء، فتقول: (راكب من فلان سائر)، وتبيع الدّار فتقول: (حدّ منها كذا، وحدّ منها كذا) فأصل الابتداء للمعرفة"[2]، وهي في مجملها ترجع إلى العموم والخصوص، وجيء بالمبتدأ نكرة في آيات متعددة ووفق أنماط مختلفة منها:

النمط الأول: المبتدأ نكرة و الخبر شبه جملة

منها أن يكون المبتدأ نكرة يقصد بها الدعاء والخبر شبه جملة كقوله تعالى : (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ) [الصافات:130]

أو أن يكون المبتدأ نكرة يقصد بها التهديد والخبر شبه جملة كقوله تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) [الجاثية:07]

1 ــ قال ابن مالك: ولا يجوز الابتـــدا بالنّكرة ما لم تُفِد كعند زيد نَمِرَه. شرح ابن عقيل. 195/1

2 ــ الكتاب. سيبويه. ط الخانجي .29/1.

ومنه قوله تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) [الهمزة:01] فـ (ويل) مبتدأ، و(لكل همزة) خبره، وسوّغ الابتداء به مع أنه نكرة ما تضمنه من معنى الدعاء عليه بالهلكة.

قال ابن خالويه:" فإن سأل سائل : فقال : ويل نكرة، والنكرة لا يبتدأ بها، فما وجه الرفع؟ فقل: النكرة إذا قربت من المعرفة صلح الابتداء بها، نحو: خير من زيد رجل من بني تميم، ورجل في الدار قائم، وكذلك ألف الاستفهام مسهلة الابتداء بالنكرة، نحو قوله: أمنطلق أخوك؟ هذا قول. وقال آخرون: ويل معرفة، لأنه اسم واد في جهنم نعوذ باللّه منه،

فإن قيل: وهل تعرف العرب ذلك؟ فقل: إن ألفاظ القرآن تجي ء لفظا عربيا مستعارا كما سمى اللّه تعالى الصنم بعلا، حيث اتخذ ربا، والصنم عذابا ورجزا، فقال: (والرجز فاهجر) [المدثر:5] لأن من عبد الصنم أصابه الرجز فسمي باسم مسبّبه، فلما كان الويل هلاكا وثبورا، ومن دخل النار فقد هلك، جاز أن يسمّى المصير إلى الويل ويلا، وكذلك: (فسوف يلقون غيا) [مريم:59] قيل واد في جهنم نعوذ باللّه منه.

ويجوز في النحو: ويلا لكل همزة على الدعاء، أي ألزمه اللّه ويلا"[1].

قال جرير :

كَسَا اللُّؤمُ تَيمًا خُضرَةً فِي جُلُودِهَا فَوَيلًا لِتَيْمٍ مِن سَرَابِيلِهَا الخُضرِ[2]

وقال: (ويل) بالرفع، ولم يقل: (ويلا) بالنصب، وذلك أنه بالرفع جملة اسمية، وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذابا دائما لا ينقطع أو دعا عليهم به، ولو قال: (ويلا) بالنصب، لكان إخبارا بالعذاب غير الدائم، وقال في آخر السورة: (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨)فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) [الهمزة:8ـــ9]، فأخبر أن أبوابها مغلقة عليهم لا تنفتح، إذ فيه إشارة إلى دوام العذاب وخلوده، وقد ناسب ذلك أول السورة برفع الويل.

ومن ذلك تعالى: (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُون) [الماعون:4ـــ5]

وقد يكون المبتدأ نكرة في حكم المختصة والخبر شبه جملة كقوله تعالى: (وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) [الحديد:16]

---

1 ـــ إعراب القرآن وبيانه: 407/8.

2 ـــ ديوان جرير. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت. 1986م.ص: 162. مروي هكذا:

كسا اللّؤم تيما خُضرة في وُجوهها فيا حزيَ تيم من سَرابيلها الخُضْرِ

وقوله: (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) [الأحقاف:24]

وقد يكون المبتدأ نكرة يقصد بها التفصيل والخبر شبه جملة مثل قوله تعالى: (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) [الشورى:07] فجملة (فريق في الجنة) مستأنفة استئنافا بيانيا، وعطفت عليها جملة (وفريق في السعير)، فكأن الجملتان جوابا لسؤال سائل عن شأن هذا الجمع، فقيل: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وسوّغ الابتداء بالنكرة لوقوعها في معرض التفصيل كقول امرئ القيس:

فأقبلت زحفا على الركبتين فثوبٌ لبست وثوبٌ أجر[1]

النمط الثاني: المبتدأ نكرة والخبر جملة فعلية

ومن ذلك قوله تعالى: رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً [البينة:02]

الرتبة :

إن النحاة جعلوا للكلام رتبا بعضها أسبق من بعض، ويكون لكل عبارة معنى يميّزها عن العبارة الأخرى، وقد ذكر سيبويه أن العرب"كأنهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنياهم"[2].

هذا هو الأصل في الكلام العربي، قد قرره علماء العربية ببيان واضح، جاء في (الإيضاح) في تقديم معمولات الفعل: "وأما تقديم بعض معمولاته على بعض فهو: إما لأن أصله التقديم ولا مقتضي للعدول عنه، كتقديم الفاعل على المفعول نحو (ضرب زيدٌ عمرا) وتقديم المفعول الأول على الثاني نحو (أعطيت زيدا درهما)، وإما لأن ذكره أهم، والعناية به أتم"[3].

وهذه الحقيقة تراها جلية في أفصح الكلام وأعلاه، أعني في كتاب الله تعالى، فقد يأتي بالجملة على أصلها، وقد يقدم الكلمة على الكلمة، أو يقدمها على الكلمتين، أو يقدّمها على الجملة كلها، ولكل ذلك سبب وقصد، وإلا كان ضربا من العبث.

---

1 ــ هو في ديوان امرؤ القيس هكذا: فلمّا دنوتُ تَسَدّيتُها فثوبا نسيتُ وثوبا أجُرُّ. والصيغة المذكورة أعلاه هي الموجودة في كتب النحاة. ديوان امرؤ القيس. اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي. دار المعرفة. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. 2004م. ص:106.

2 ــ الكتاب. سيبويه. ط بولاق ــ 15/1.

3 ــ الإيضاح في علوم البلاغة. للخطيب الغزويني. تحقيق لجنة من أساتذة الأزهر. مطبعة السنة المحمدية. (دت).113/1.

وفي الجملة الاسمية، فإن الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، وذلك لأن الخبر وصف في المعنى للمبتدأ، فاستحقّ التأخير كالوصف، ويجوز تقديمه إذا لم يحصل بذلك لبس أو نحوه، قال سيبويه: "وتأخير الخبر على الابتداء أقوى لأنه عامل فيه"[1]، لكن قد يتأخر المبتدأ ويتقدّم الخبر، و"ذلك قولك: فيها عبد الله، ومثله: ثَمَّ زيدٌ، وههنا عمرو، وأين زيد، وكيف عبد الله، وما أشبه ذلك"[2]، وقد تقدّم الخبر وفق الأنماط التالية:

النمط الأول: الخبر شبه جملة والمبتدأ معرفة

إن إدراك النكات البلاغية في تقديم المسند على المسند إليه في الإثبات إنما يعود إلى جانبين رئيسيين يؤول إليهما مناط المتعلقات فيما يمكن معرفته من الأسرار الأسلوبية في التقديم، بإعادة التركيب إلى الأصل، واستظهار نكاته من خلال ملاحظة التباين بينها، ويتمثل ذلك الجانبان في الاختصاص والاهتمام.

ومن ذلك أن يأتي الخبر جارا ومجرورا والمبتدأ معرفا بـــ(ال) كقوله تعالى: (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى) [النجم:25]

وقوله تعالى: (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) [ق:12]

وجاء تقديم المجرور على المبتدأ للاهتمام بالخبر، لما في الخبر من رفع الاستحالة، وإظهار التقريب، وفيه تشويق لتلقي المسند إليه.

ومنه قوله تعالى: (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الجاثية:36]، وقد أفاد هذا التركيب قصر الحمد على الله في صيغة الإخبار، كما يجوز أن يكون إنشاءً حمدا لله تعالى وثناءً عليه، وتقديم (لله) لإفادة الاختصاص، أي: الحمد الحق الكامل مختص به تعالى، وإجراء وصف (رب السماوات) على اسمه تعالى إيماء على علة قصر الحمد على الله، إخبارا وإنشاءً تأكيدا لما اقتضته الفاء في قوله (فلله الحمد).

ومنه قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) [التغابن:03]وجملة (وإليه المصير) تكميل للتذييل، والتعريف في (المصير) للجنس، أي: المصير كله إلى الله .

1 ــ الكتاب. سيبويه. ط الخانجي ــ 124/2.

2 ــ الكتاب. سيبويه. ط الخانجي ــ 128/2.

وتقديم المجرور في قوله: (وإليه المصير) للاهتمام، للتنبيه على أنه مصير إلى من اقتضى اسمه الجليل الصفات المناسبة لإقامة العدل وإفاضة الفضل.

ومنها أن يكون الخبر جار ومجرور والمبتدأ معرف بالإضافة

كقوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرضِ) [الجاثية:27]

وقوله: (وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الحديد:10]

وقوله: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الفتح:07]

وقوله: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2).[الحديد]

وقال بعدها بآيتين: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5). [الحديد]

فأعيدت هذه الجملة في مكان قريب من الأولى، ووصلت في الأولى بقوله: (يُحْيِي وَيُمِيتُ)، ثم وصلت في الأخرى بقوله: (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)، والمعنى: له الملك أولا وآخرا.

وذلك أن الأول في الدنيا، وهو وقت الإحياء والإماتة، والآخر في الآخرة حين ترجع الأمور إليه، ولا يملك أحد سواه لا مَلِكًا ولا مَلَكًا، فقرن بالأول: (يُحْيِي وَيُمِيتُ) لأنهما من أمارات الملك، وقرن بالآخر ما يكون في الآخرة من مرجع الخلق وجزائهم بالثواب والعقاب إليه، فجاء في كل مكان ما اقتضاه، وما شاكل معناه.

ومن ذلك قوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها) [محمد:24] فالهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على مقدّر يقتضيه السياق، و(لا) نافية، و(يتدبرون القرآن) فعل مضارع، وفاعل، ومفعول به، و(أم) منقطعة بمعنى بل، والهمزة للتدليل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر، و(على قلوب) خبر مقدم، و(أقفالها) مبتدأ مؤخر وجوبا.

ففي جملة (..أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها) يُصوّر القلب كأنه بمنزلة الباب المرتج، الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه إن مالم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب، والوصول إلى ما وراءه، وكذلك مالم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان ولا القرآن.

و"تأمل تنكير القلوب وتعريف الأقفال بالإضافة إلى ضمير القلوب، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء من هم بهذه الصفة (صفة عدم تدبر القرآن)، ولو قال: أم على القلوب أقفالها، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة.

وفي قوله (أقفالها) بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى ضمير القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة العقل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها، التي لا تكون لغيرها واللّه أعلم"[1].

النمط الثاني: الخبر شبه جملة والمبتدأ نكرة

ومن صوره أن ترى الخبر جارا ومجرورا والمبتدأ نكرة موصوفة كقوله تعالى: عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠) [البلد:20]، و(عليهم) خبر مقدّم، و(نار) مبتدأ مؤخر، و(مؤصدة) صفة لنار[2]، و"(عليهم) متعلق بـــ (مؤصدة)، وقدم على عامله للاهتمام بتعلق الغلق عليهم تعجيلاً للترهيب، وقد استتب بهذا التقديم رعاية الفواصل بالهاء، ابتداء من قوله: (فلا اقتحم العقبة) [البلد:11].

وإسناد المُوصَدِيَّة إلى النار مجاز عقلي ، والموصد هو موضع النار، أي جهنم"[3].

ومثله قوله تعالى: وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ[الحديد:11]

وقوله: وَلَهُم أَجْرٌ كَرِيمٌ [الحديد:18]

وقوله: وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ [المجادلة:05]

وقوله: فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ[الرحمن:70]

ومن تقديم الخبر النكرة على المبتدأ لإفادة الاختصاص قوله تعالى: (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) [القدر:5]، فـــ(سلام) خبر مقدّم و(هي) مبتدأ مؤخر، و(حتى) حرف غاية وجر، و(مطلع الفجر) مجرور بـــ (حتى)، والجار والمجرور متعلقان بـــ(سلام)، وفيه إشكال: وهو الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ، ومع ذلك فإن النحويين يبررون هذا، لأن الظروف والجار والمجرور يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها.

1 ــ تفسير القرآن الكريم: ابن القيم.477/1.

2 ــ ينظر إعراب القرآن وبيانه: 324/8.

3 ــ التحرير ولتنوير:363/30ــ364.

وقد أبرز العلامة ابن عاشور دلالة تنكير الخبر وتقديمه على المبتدأ، فقال: "وتنكير (سلام) للتعظيم، وأخبر عن الليلة بأنها سلام للمبالغة، لأنه إخبار بالمصدر، وتقديم المسند وهو (سلام) على المسند إليه لإفادة الاختصاص، أي ما هي إلا سلام، والقصر ادعائي لعدم الاعتداد بما يحصل فيها لغير الصائمين القائمين"[1].

ثم استطرد في كلامه موضحا وجوها محتملة لمعنى الأية قائلا: "ثم يجوز أن يكون (سلام هي) مراداً به الإخبار فقط، ويجوز أن يراد بالمصدر الأمرُ، والتقدير: سلِّمُوا سلاماً، فالمصدر بدل من الفعل، وعدل عن نصبه إلى الرفع ليفيد التمكن مثل قوله تعالى: (قالوا سلاماً قال سلام) [الذاريات:25]، والمعنى: اجعلوها سلاماً بينكم، أي لا نزاع ولا خصام، ويشير إليه ما في الحديث الصحيح: (خرجتُ لأخْبِرَكم بليلة القدر، فتلاحَى رجلان فرُفِعَتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة[2])"[3].

وومن دواعي تقدم الخبر إذا كان شبه جملة، أن يكون المبتدأ نكرة موصوفة، من ذلك قوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) [الزمر]، فجملة (فِيهِ شُرَكَاءُ) صفة لـــ (رَّجُلاً)، وجاء تقديم المجرور على (شُرَكَاءُ) لأن خبر النكرة يحسن تقديمه عليها إذا وصفت، فإذا لم توصف وجب تقديم الخبر، لكراهة الابتداء بالنكرة.

1 ــ التحرير والتنوير: 465/30.

2 ــ المقصود: من العشر الأواخر من رمضان.

3 ــ التحرير والتنوير: 465/30.

- الحـــــذف :

يعدّ الحذف أحد أساليب الإيجاز البلاغية وإن كان أيضا ظاهرةً نحويةً، وقد عرّفه الرّماني على أنه" إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام"[1].

ودل كلام الرّماني على أن الحذف لا يأتي جزافا، لأنه "من سنن العرب: ألا تحذف شيئا إلا إذا أبقيت في النص ما يدل عليه"[2].

وإنما يُصار إلى الحذف حينما يكون ذلك أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب حينها كل مذهب، ولو ذكر المحذوف لقصر المعنى على الذي تضمنه البيان.

وينبهنا ابن هشام إلى أن دليل الحذف نوعان: أحدهما غير صناعي وينقسم إلى حالي ومقالي، والثاني: صناعي، وهذا يختص بمعرفته النحويون، وهو ما اقتضته الصناعة، وذلك بأن تجد خبرا بدون مبتدأ أو العكس، أو شرطا بدون جزاء أو بالعكس، أو معطوفا بدون معطوف عليه، أو معمولا بدون عامل نحو: (ليقولن: الله)، ونحو (قالوا: خيرا)، ونحو (خيرا عافاك الله)[3].

ثم يحدد شروطا للدليل اللفظي للحذف، منها أن يكون طبق المحذوف، وأن لا يكون ما يحذف كالجزء، وأن لا يكون مؤكدا، و أن لا يؤدي حذفه إلى اختصار المختصر، وأن لا يكون عاملا ضعيفا، كما لا يكون عرضا في شيء، وأن لا يؤدي حذفه إلى تهيئة العامل للعمل وقطعه عنه، ولا إلى إعمال العامل الضعيف مع إمكان إعمال العامل القوي ثم قطعه عنه.

أما النوع الثاني من الحذف فهو الذي يلزم المفسر و البياني، ويصور لنا الإمام الذواقة عبد القاهر الجرجاني الحذف على أنه "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، و أتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[4].

---

1 - النكت في إعجاز القرآن .ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز. ص : 76 .

2 - التوجيه النحوي للقراءات في سورة البقرة . الطاهر قطي .ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنـــون. الجزائـــر. 1991 ص:196.

3 - مغني اللبيب. 325/6.

4 - دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص : 146 .

وفرق بعضهم بين الحذف والإيجاز فذكر "أن يكون في الحذف ثَمّ مقدرٌ، نحو ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ﴾[يوسف:5]، بخلاف الإيجاز، فإنه عبارة عن اللفظ القليل الجامع للمعاني الجمة بنفسه"[1].

وجواز الحذف في المبتدأ والخبر على ثلاثة أضرب:

حذف المبتدأ وذكر الخبر: وهو كثير، لأنه يتقدّر تقديرا واحدا، قال الله تعالى: (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا..) [النور:1]، والتقدير: هذه سورة.

وحذف الخبر وذكر المبتدأ: وهو قليل، لأن الفائدة إنما تكون في الخبر، وذلك مثل قوله تعالى: (طاعةٌ..) [محمد:21] تقديره: طاعة أمثل ما تعلمون.

وحذف بعض الخبر نحو قولك: البُرُّ مدٌّ بدينارٍ، والتقدير: مدٌّ منه بدينار[2].

ـــ حذف المبتدأ:

قال سيبويه:"وذلك أنك رأيت صورة شخص، فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت: عبدُ الله وربِّي، كأنك قلت: ذاك عبدُ الله، أو هذا عبد الله، أو عرفت صوتا، فعرفت صاحب الصوت، فصار آية لك على معرفته، فقلت: زيدٌ وربّي، أو مسست جسدا، أو شممت ريحا، فقلت: زيدٌ، أو المسكُ، أو ذقت طعاما، فقلت: العسلُ"[3].

قال الجرجاني: "ومن المواضع التي يطّرد فيها حذف المبتدأ: القطع والاستئناف، يبدأون بذكر الرجل، ويقدّمون بعض أمره، ثمّ يدعون الكلام الأول، ويسأنفون كلاما آخر، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ...وقولهم بعد أن يذكروا الرجل: (فتى من صفته كذا)، و(أفرّ من صفته كيت وكيت)"4،.

وقد جاءت فيما يأتي بعض مواضعه، من ذلك:

قوله تعالى: تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [الزمر:01]

---

1 ـــ البرهان في علوم القرآن . بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. تحقيق محمد أبو الفضل إبـــراهيم . المكتبـــة العـــصرية بيروت . (د.ت) 102/3.

2 ـــ ينظر كشف المشكل في النحو. علي بن سليمان الحيدري اليمني (ت 599هـــ). تحقيق هادي عطية مطر. مطبعة الإرشاد. بغداد. 1984م ـــ322/1.

3 ـــ الكتاب. سيبويه. ط الخانجي ـــ 120/2.

4 ـــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص:147ـــ149.

قال ابن أبي العز الهمذاني: "وفيه وجهان: أحدهما:مبتدأ، والظرف خبره، وهو (من الله). والثاني: خبر مبتدأ محذوف، أي هذا تنزيل الكتاب، والظرف على هذا يحتمل أوجها ــ أن يكون من صلة الخبر، وأن يكون خبرا بعد خبر، وأن يكون حالا، والعامل فيها ما في هذا من معنى الفعل، وإما من الكتاب، والعامل التنزيل: ينزل الكتاب من الله"[1].

وفي إحدى أوجه قوله تعالى: (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ) [محمد:21]، وهو مبتدأ خبره محذوف، أي طاعة وقول معروف خير لهم، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر طاعة، وقول معروف، أي أمر الله أن يطيعوا.

قال أبو حيان: "والأكثرون على أن: (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ) كلام مستقل محذوف منه أحد الجزأين، إما الخبر وتقديره: أمثل، وهو قول مجاهد، ومذهب سيبويه والخليل؛ وإما المبتدأ، وتقديره: الأمر، أو أمرنا طاعة، أي الأمر المرضي لله طاعة"[2].

ومنه قوله تعالى: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) [الصافات:05].

ومما اجتمع فيه حذف الخبر من جهة، وحذف المبتدأ من جهة ثانية قوله تعالى: (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا: سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) [سورة الذاريات:25]

ففي قوله (سلام) بالرفع: أي سلام عليكم، فحذف الخبر المقدر بشبه الجملة، أي: أن تحية إبراهيم للملائكة كانت برفع مبتدأ، وسلم عليه الملائكة بالنصب، فإن قولهم (سلاما) يقتضي أن يكون التقدير: سلمنا سلاما، والسلام بالرفع أكمل، فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم.

وأما حذف المبتدأ ففي قوله (قوم منكرون)، فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم منكرون، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام.

ثمّ بنى الفعل للمفعول، وحذف فاعله، فقال: (منكرون)، ولم يقل: إني أنكركم، وهو أحسن في هذا المقام، وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

---

1 ــ الفريد في إعراب القرآن المجيد: ابن أبي العز الهمذاني. تحقيق: فهمي حسن النمر و فؤاد علي مخيمر. دار الثقافة. الدوحة. (د ت) ــ183/4.

2 ــ البحر المحيط: 81/8.

وذكر الزمخشري تقديره للمحذوفين بقوله في (فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ): "بإضمار اذكر سَلاماً، مصدر سادّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه، وأصله: نسلم عليكم سلام، وأمّا (سَلامٌ) فمعدول به إلى الرفع على الابتداء، وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذا بأدب اللّه تعالى، وهذا أيضا من إكرامه لهم"[1].

ويقدّر ابن عاشور المبتدأ المحذوف في قوله: (قوم منكرون) بـــ (هم) بدل (أنتم) فقال: "وقوله: (قوم منكرون) من كلام إبراهيم، والظاهر أنه قاله خَفْتا، إذ ليس من الإكرام أن يجاهرَ الزائر بذلك، فالتقدير: هُم قوم منكرون"[2].

ثمّ شرح المراد بالمنكر، قال: "والمنكر: الذي ينكره غيره، أي لا يعرفه، وأطلق هنا على من ينكّر حاله، ويظن أنه حال غيرُ معتاد، أي يخشى أنه مضمر سوء، كما قال في سورة هود (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً (٧٠) [هود:70]"[3] ومنه قول الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نَكِرَتْ من الحوادث إلا الشيبَ والصَّلَعا[4]

ـــ حذف الخبر :

و"يحذف الخبر أيضا لعلم السامع"[5]، وقد حذف الخبر بعد لولا في الربع الأخير، وهي من المواضع التي يطّرد حذف الخبر فيها، ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ) [الفتح:25]

1 ـــ الكشاف:401/4.

2 ـــ التحرير والتنوير: 358/26.

3 ـــ التحرير والتنوير: 358/26.

4 ـــ البيت قاله الأعشى يمدح هَوْذَة بن علي الحنفي. وقبله المطلع:

بانت سعاد وأمسى حبْلُها انقطعا واحتلّت الغَمرَ فالجُدّينِ فَالفَرَعا

ديوان الأعشى ميمون بن قيس. شرح وتعليق محمد حسين. مكتبة الآداب بالجماميزت. المطبعة النموذجية. (دت). ص:101.

5 ـــ الأصول في النحو أبو بكر محمد بن سهل النحوي المعروف بابن السّراج (ت 316هـــ) تحقيق عبد الحسن الفتلى. مطبعة النعمان. النجف. 1973م . 1/ 75 .

فـــ(لولا) حرف دال على امتناع لوجود، وما بعد (لولا) مبتدأ، وخبره محذوف، إذ جرى حذف الخبر مع (لولا) إذا كان تعليق امتناع جوابها على وجود شرطها وجودا مطلقا غير مقيد بحال، فالتقدير: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون، كما يدل عليه قوله بعده: (لو تزيّلوا)، أي: لو لم يكونوا موجودين بينهم، أي: أن وجود هؤلاء هو الذي امتنع لأجله حصول مضمون جواب (لولا).

و قال ابن عقيل: "والطريقة الثالثة: أن الخبر إما أن يكون كونا مطلقا، أو كونا مقيدا، فإن كان كونا مطلقا وجب حذفه، نحو (لولا زيد لكان كذا)، أي: لولا زيد موجود، وإن كان كونا مقيدا، فإما أن يدل عليه دليل، أو لا، فإن لم يدل عليه دليل وجب ذكره نحو: (لولا زيد محسن إلي ما أتيت)، وإن دلّ عليه دليل جاز إثباته وحذفه، نحو أن يقال: (هل زيد محسن إليك؟) فتقول: (لولا زيد لهلكت)، أي: (لولا زيد محسن إلي)، فإن شئت حذفت الخبر، وإن شئت أثبتّه"[1].

تعدد الخبر:

قد تتعدد الأخبار عن المبتدأ الواحد، فيكون للمبتدأ خبران أو أكثر، نحو قولهم (الرمان حلو حامض)، وكقوله تعالى: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) [البروج:14ـــ15] وهذه الأخبار قد تأتي متعاطفة بالواو، وقد تأتي غير متعاطفة، ويذكر النحاة لها من حيث اقترانها بالواو أحوالا ثلاثة:

أـــ قسم يجب فيه ذكر الواو، وهو أن يتعدد الخبر لتعدد ما هو له، أو بعبارة أخرى أن تكون الأخبار متعددة لأن المخبر عنهم متعددون، كأن تقول: (بنوك كاتب وصائغ وفقيه) أي: بعضهم كاتب، وبعضهم صائغ، وبعضهم فقيه، و(هما عالم وجاهل)، وبهذا حصل الفرق "بين هذا النوع، ونحو (هم سراة شعراء)، لأن تعدد الخبر فيه ليس لتعدد المبتدأ، لأن كلاّ من أفراد المبتدأ فيه متصف بأنه سري شاعر، بخلاف نحو (بنوك كاتب وصائغ وفقيه)، فإنه لم يتصف كل من البنين بالأوصاف الثلاثة، بل اختص كل بوصف فتعدد الخبر لتعدد المبتدأ"[2].

1 ـــ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: تحقيق :محي الدين عبد الحميد. دار الطلائع. القاهرة. 2004م ـــ225/1.

2 ـــ حاشية الصبان على شرح الأشموني. دار إحياء الكتب العربية. (دت). 222/1ـــ223.

ب ــ قسم يجب فيه ترك العطف وهو ما تعدد في اللفظ دون المعنى، وضابطه أن لا يصدق الإخبار ببعضه عن المبتدأ، كقولهم (الرمان حلو حامض) بمعنى مزّ, وزيد أعسر أيسر بمعنى أضبط، فالخبر إنما يكون بمجموع الكلمتين، ولايصح الاكتفاء بواحدة دون الأخرى، وقد ذهب بعض النحاة إلى أنه يجوز العطف في هذا القسم أيضا[1].

ج ــ قسم يجوز فيه العطف وتركه كقولك: زيد كريم شجاع، وزيد كريم وشجاع.

واختُلِف في جواز تعدد الخبر لمبتدأ واحد على أقوال: أحدها، وعليه الجمهور: الجواز، كما في النعوت، سواء اقترن بعاطف أم لا، والثاني: المنع، واختاره ابن عصفور وكثير من المغاربة، وعلى هذا فما ورد من ذلك جعل فيه الأول خبرا، والباقي صفة للخبر، ومنهم من يجعله خبر مبتدإ مقدّر، والقول الثالث: الجواز إن اتحدا في الإفراد، والجملة، والمنع إن كان أحدهما مفردا والآخر جملة، والرابع: قصر الجواز على ما كان المعنى منهما واحد، وهذا يتعيّن فيه ترك العطف[2].

والذي يبدو أنه في حال تكررت النعوت والأخبار، فالأحسن إن تباعد معنى الصفات العطف، نحو قوله تعالى: هُوَ الأوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ...(٣) [الحديد:3] وإلاّ تركه، نحو قوله تعالى: وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاف مَهِين (١٠)هَمَّاز مَشَّاء بِنَمِيم (١١)مَنَّاع لِلْخَيْرِ مُعْتَد أَثِيم (١٢)عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم (١٣)[القلم:10ــ13]، فمقتضى تعدد الصفات ألا يعطف بعضها على بعض لاتحاد محلها، ولجريها مجرى الوصف في الصدق على ما صدق، ولذلك يقل عطف بعض صفات الله على بعض في التنزيل، وذلك كقوله: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ...)(٢٤)[الحشر:24]

وإنما عطف قوله: (هُوَ الأوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) لأنها أسماء متضادة المعاني في موضوعها، فوقع الوهم بالعطف عمن يستبعد ذلك في ذات واحدة، لأن الشيء لا يكون ظاهرا باطنا من وجه، وكان العطف فيه أحسن، والواو هنا تدل على الاهتمام وتحقيق الأمر، إذ يبعد في الذهن اجتماع هذه الصفات المتباعدة المتناقضة في الظاهر في ذات واحدة، فجاء بالواو تحقيقا وتقريرا لهذا الأمر.

1 ــ ينظر شرح رضي الدين الاستراباذي على الكافية لابن الحاجب: 1/107ــ108.

2 ــ ينظر الهمع:2/53ــ54.

قال ابن القيم: "إن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم، وتقريره يكون في الكلام متضمنا لنوع من التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة إلى مانحن فيه، فإذا كان لرجل مثلا أربع صفات، هو عالم، وجواد، وشجاع، وغني، وكان المخاطب لا يعلم ذلك، أو لا يقرّ به، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل، فإذا قلت: (زيد عالم) وكان ذهنه استبعد ذلك، فتقول (وجواد)، أي: وهو مع ذلك جواد، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت (وشجاع)، أي: وهو مع ذلك شجاع، و(غني)، فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه، تدرأ به توهم الإنكار"[1].

وظهر تعدد الخبر في صور: منها أن يأتي المبتدأ ثمّ خبر أول مفرد، ثمّ خبر ثان مفرد، كقوله تعالى: وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [الحجرات:05]

وقوله: وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [الحجرات:08].

أو أن يأتي المبتدأ وخبر أول مفرد، ثمّ خبر ثان جملة فعلية، كقوله تعالى: (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) [الشورى:19].

ومن بديع تعدد الأخبار ووقوعها جملا، ما جاء في سورة غافر في قوله تعالى: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢)، وما قابلها في سورة الأنعام في قوله تعالى: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) [الأنعام:102]

فقدم في سورة غافر: (خالق كل شيء)، على قوله تعالى: (لا إله إلا هو)، وأخرها عنها في سورة الأنعام .

وذلك لأن ما في سورة غافر جاء بعد قوله تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) [غافر:57]، فكان الكلام على تثبيت خلق الإنسان، لا على نفي الشريك عنه هنا، كما كان في آية الأنعام فكان تقديم خالق كل شيء هاهنا أولى.

وما في آية الأنعام جاء بعد قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) [الأنعام:100]، فلما قال:

1 ــ بدائع الفوائد. ابن القيم. المطبعة المنيرية. (دت). 191/1.

(ذلكم الله ربكم)، أتى بعده بما يدفع قول من جعل لله شريكا، فقال: (لا إله إلا هو)، ثم قال: (خالق كل شيء).

وقد رأينا من خلال هذا التتبع للجملة الاسمية البسيطة المثبتة مختلف الأنماط الممكنة فيها، فرأينا المبتدأ معرفة بأقسامها المختلفة، من الاسم المعرف بـــ (ال)، والذي أتي به للدلالة على التعريف، والتبيان، والاهتمام، والحصر، والاختصاص، كما أتي بالاسم الموصول لكثير من الأغراض، وقد أشرب معنى الشرط في كثير من الجمل لإفادة التعليل، وتمييز الصلة، وأتي باسم الإشارة للتشهير، وإحالة أوصاف الذات المشار إليها ماثلةً، وكأنها رأي العين.

وأخبر بالفعل للدلالة على التجدد والتكرار، كما ابتدئ بالنكرة إفادة لمعنى الدعاء، والتهديد، والتفصيل، والوصف.

وجاء تقديم المسند إليه على المسند لإفادة تقوية الحكم، والدلالة على التخصيص والاهتمام.

وشدت انتباهنا ظاهرة الحذف، فحذف المبتدأ للاستئناف كثيرا، وحذف الخبر في مواقع مختلفة كما هو الشأن بعد لولا، وحذف المبتدأ والخبر معا لأعراض شتى.

وورد الخبر مفردا ومتعددا بالعطف وبغير عطف، سواء كان كلمات مفردة أم جملا.

فالجملة الاسمية البسيطة المثبتة في الربع الأخير من القرآن الكريم قد استوفت ماكان مقررا في كتب النحو، وأمتعتنا بكثير من الأغراض مما لم تذكره تلك الكتب.

ب ــ الجملة الاسمية الموسعة:

وهي الجملة الاسمية التي دخلت عليها النواسخ، سواء كانت حرفية أم فعلية، وقد قسمتها إلى قسمين: الجملة المنسوخة بـــ(إن) وأخواتها، والجملة المنسوخة بـــ (كان) وأخواتها، ونبتدئ بـــ:

الجملة الاسمية المنسوخة بـــ"إنّ وأحواتها":

وهي الجملة التي دخلت عليها (إنّ) وأخواتها، وأطلق عليها النحاة اسم الأحرف المشبهة بالفعل، وهي بضعة أحرف ينتصب بعدها المبتدأ ويرتفع الخبر، وهي: إنّ، وأنّ، وليت، ولعل، ولكن، وكأن.

وورد تركيب إنّ وأخواتها مع الجملة الاسمية في أنماط متنوعة بحيث تتلوّن المعاني وفقا للبناء الأفقي للجملة منها:

النمط الأول: إنّ واسمها ثمّ خبرها

قال الجرجاني: "واعلم أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه، أن تغني غناء الفاء العاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجبا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف، مقطوعا موصولا معا، أفلا ترى أنك لو أسقطت (إن) من قوله (إن ذاك النجاح في التبكير) لم تر الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى، ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء فتقول: بكرا صاحبي قبل الهجير فذاك النجاح في التبكير، ومثله قول بعض العرب في الرجز:

فغَنِها وهيَ لكَ الفِداءُ إنّ غِناءَ الإبلِ الحداءُ

فانظر إلى قوله (إن غناء الإبل الحداء)، وإلى ملاءمته الكلام قبله، وحسن تشبثه به، وإلى حسن تعطف الكلام الأول عليه، ثم انظر إذا تركت (إن) فقلت: فغنها وهي لك الفداء غناء الإبل الحداء، كيف تكون الصورة، وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر، وكيف يشئم هذا ويعرق ذاك، حتى لا تجد حيلة في ائتلافهما، حتى تجتلب لهما الفاء، فتقول: فغنها وهي لك الفداء فغناء الإبل الحداء، ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان، وأن قد ذهبت الأنسة التي كنت تجد، والحسن الذي كنت ترى"[1].

1 ــ دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. دار المنار. مصر. 1366هـــ. ص: 211ــ 212.

ثمّ ذكر أن ذلك ممّا لا يطّرد في كل موضع، وإنما هي حالات مختلفة، بعضها يحتاج إلى الاستعاضة بالفاء عن (إنّ)، وبعضها لا يمكن أن تسد فيه الفاء موضع (إن)، بل إن دخولها عليه مما يفسد معناه، فقال: "واعلم أن الذي قلنا في (إن) من أنها تدخل على الجملة، من شأنها إذا هي أسقطت منها أن يحتاج فيها إلى الفاء، لا يطّرد في كل شيء، وكل موضع، بل يكون في موضع دون موضع، وفي حال دون حال، فإنك قد تراها قد دخلت على الجملة ليست هي مما يقتضي الفاء، وذلك فيما لا يحصى، كقوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) [الدخان:51ــ52] وذلك أن قبله: (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ) [الدخان:50] ومعلوم أنك لو قلت: إن هذا ما كنتم به تمترون، فالمتقون في جنات وعيون، لم يكن كلاما"[1].

ومنه قوله تعالى: (إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) [يس:14] وتأكيد: (إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) لأجل تكذيب المرسل إليهم الرسل، فأكدوا الخبر تأكيداً وسطاً، ويسمى هذا ضرباً طلبياً، وتقديم المجرور للاهتمام بأمر المرسل إليهم المقصود إيمانهم بعيسى.

وفي السياق نفسه نجد قوله تعالى: (إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) [يس:16] مع دخول اللام عل الخبر في الآية الثانية، ذلك أن التوكيد يتفاوت بحسب قوة الإنكار وضعفه، فالآية الأولى أكّدت بـــ(إن)، واسمية الجملة، وذلك في رد رسل عيسى حينما كذّبوا في المرة الأولى، وأُكّدت الثانية بالقسم، ذلك أن قبلها قوله (رَبُّنَا يَعْلَمُ) وهي تفيد القسم عند العرب ــ و(إن)، واللام، واسمية الجملة، لمبالغة المخاطبين في الإنكار، حيث قالوا: (مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ) [يس:15]، فكان رد الرسل بالصيغة الثانية، فلما كان التكذيب والإنكار في المرة الثانية أشد، كان الرد فيها أقوى، ويسمى هذا المقدار من التأكيد يسمى ضرباً إنكاريّاً.

ومثله قوله تعالى من سورة الزخرف : (... وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14).[الزخرف]

وقال في سورة الشعراء : (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50).[الشعراء]

1 ــ دلائل الإعجاز. ط المنار. ص: 248.

فأوجب التوكيد في قوله هنا (لمنقلبون)، ولم يوجبه في سورة الشعراء، فلم تدخل اللام على خبر (إنا) دخولها في الأول، لأن معنى قوله: (وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا) إلى آخر الآية: لتذكروا إنعام الله عليكم وتشكروه، وتخالفوا الكفار بأن تقروا بما أنكروه، فتؤمنوا بالبعث والحياة بعد الموت، وهذا خطاب لكل مَن كان في ذلك العصر، وممّن يكون بعدهم إلى انقضاء الدهر، فالتوكيد لمثله لازم، فجاءت اللام للتأييد.

والذي في سورة الشعراء إنما هو خبر عن السحرة لما آمنوا، ووصفوا حالهم واستهانتهم بما خوّفوا أن ينالهم من عقوبة فرعون، إذ كان منقلبهم إلى ربهم، وكانوا مجازين على إيمانهم وصدقهم وصبرهم، فلم يحتج من التوكيد إلى ما احتاج إليه ما هو على التأييد.

ومن هذا الشكل مع إتيان اسم (إن) ضميرا والخبر مفردا قوله تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [فصلت:36] ففصل بين اسم (إن) وخبرها بضمير الفصل، مع مجيء الخبر معرفا بـــ(ال)، وذلك من أجل التأكيد، عكس ما هو موجود في الآية المماثلة لها في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأعراف:200] فلا يوجد فيها ضمير الفصل، وخبر (إن) فيها نكرة، وذلك لورودهما في سياقين مختلفين يحيث اقتضى الأمر فيهما اختلاف بنيتهما الشكلية.

فقد قال في سورة فصلت: (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) [فصلت:34ــ36]

وقال في سورة الأعراف: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) [الأعراف:199ــ200]

إذ طلب الله عزّ وجل نبيّه والمؤمنين في سورة فصلت أن يقابلوا السيئة بالحسنة، وهذا أمر شاق على النفس، فإن عادة الناس أن يقابلوا السيئة بمثلها، فإذا أرادوا أن يحسنوا عفوا عن المسيء، أما أن يقابلوا السيئة بالحسنة فذلك أمر شاق على الإنسان عسير عليه،

فإن الشيطان يحث على الانتصار للنفس، والأخذ بالحق، ويثبطه عن الإحسان إلى المسيء، ولذا قال: (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيم) [فصلت:35].

وأما في سورة الأعراف فقد أمر بالإعراض عن الجاهلين، وهو أيسر من الإحسان إلى من أساء، ولذا أكد وعرّف في سورة فصلت، فقال: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وترك ذاك في سورة الأعراف، فوضع كل تعبير في المكان الذي يقتضيه.

فالتوكيد في سورة حم السجدة في قوله: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وتعريفه الصفتين بالألف واللام، وترك التوكيد بقوله (هو)، وترك التعريف في (سميع عليم) من الأعراف، لأن الذي في سورة فصلت كان بعد دعاء إلى ما يشق الإنسان فعله، وهو أن يدفع السيئة بالحسنة، ويقابل غلظة عدوه بالملاينة استكفافا لشره وأذاه، حتى يعود إلى اللطف في المقال والجميل من الفعال، فيصير وإن كان عدوا كأنه صديق قريب، إذ قال بعدها: (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) [فصلت:35].. فكان الأمر الذي حثّ الله تعالى أولياءه عليه شاقا عظيما حتى قال: (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)، كانت وسوسة الشيطان في مثله أعظم والمؤمن لها أيقظ...

وأما الآية التي في سورة الأعراف فإن قبلها: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) [الأعراف:199]، ولم تعظم فيه الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة فصلت، بل كان ما هناك حثا على أحسن الأخلاق، ولم يخص نوعا من المشاق كما خص في سورة فصلت، فلم تقع المبالغة في اللفظ، واقتصر في الخبر على الأصل، وهو أنه: سميع عليم[1].

وممّا يفيده دخول (إنّ) على الجملة الاسمية الاهتمام بالخبر، وذلك في قوله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) [الكوثر] فافتتاح الكلام بحرف التأكيد يوحي بالاهتمام بالخبر، والتنبيه بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي (صلى الله عليه وسلم)، والكلام مسوق مساق البشارة، وإنشاء العطاء، لا مساق الإخبار بعطاء سابق، وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم.

ومثله قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) [القدر:1]

1 ــ ينظر درة التنزيل: 1145/1

ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ) [غافر:59]، فأكد إتيان الساعة بـــ (إنّ)، واللام، وذلك أن الكلام على الكفار الذين ينكرون الساعة، إذ قال: (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [غافر:56] ثم قال: إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ) [غافر:59] أي: لايؤمنون بالساعة.

أما في سورة طه فقد قال: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) [طه:15] وذلك أن الخطاب لموسى عليه السلام، وموسى غير منكر لها، ولذا أكدها مع الكافرين الذين ينكرونها أكثر مما أكدها مع موسى عليه السلام.

وإذا نظرنا إلى السياق تبين لنا هذا فقد قال تعقيبا على إتيان الساعة في سورة غافر: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) فحسن أن يؤكد إتيانها إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بها، بخلاف سورة طه فقد قال: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) [طه]،فسياق كل من الآيتين يقتضي أن يضع ما وضع، وأن يحذف ما حذف.

ومن ناحية أخرى، فإن الكلام في سورة غافر على الساعة والقيامة، قال تعالى: (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) [غافر] فاقتضى المقام زيادة التوكيد.

جاء في درة التنزيل في هاتين الآيتين: "إن العرب تحرص على التوكيد في موضعه وتركه في غير موضعه...والخطاب لقوم كفار ينكرونها، والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام، وهي ضمن كلام الله تعالى له: (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ...(١٢) [طه].

وقال: (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا... [طه] و لم يكن موسى عليه السلام ممن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكريه والجاحدين له، على أنه تحميل له ليعلم قومه وهو: (فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا

مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) [طه]ــ فإذا كان الأمر على ما بينا وضح الفرق بين الموضعين بالذي ذكرناه"[1].

ومن بلاغة هذا النوع من الجمل ما ورد في سورة الزخرف في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)[الزخرف:64]

وحكاية عمن حكى عنه في السورة ورد قوله تعالى في آل عمران: (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) [آل عمران :51].

ومثله في سورة مريم: (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) [مريم].

فزاد (هو) في آية الزخرف، واختصت بهذا التوكيد دون الموضعين الآخرين، وهي كلها فيما أخبر الله تعالى به عن عيسى عليه السلام.

وذلك أن زيادة ضمير الفصل فى سورة الزخرف يحرز بمفهومه معنى ضروريا دعا إليه ما تقدم فى الآية قبله، وذلك ما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى: (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) [الزخرف] إلى ما يتلو هذه، ففى التفسير أنه لما نزل قوله تعالى: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨))[الأنبياء] الآية تعلق بها الكفار، وقالوا: قد عبدت الملائكة، وعبد المسيح، وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبى مقرب، وأن الملائكة عباد مقربون، فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا فى النار فقد رضينا، وجادلوا بهذا، فأنزل الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)) [الأنبياء] وهذا مبسوط فى كتب التفسير[2].

فلما تقدم فى سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: (.. أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ.. (٥٨)) [الزخرف] يعنون المسيح ــ ناسبه ما أعقبه به من قوله تعالى حاكيا عن المسيح عليه السلام:

---

1 ــ درة التنزيل: 1125/1.

2 ــ أورد الطبري ذلك في تفسيره مسندا قال: "حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل، قال: ثنا أسباط، عن السديّ، في قوله: (وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) قال: خاصموه، فقالوا: يزعم أن كلّ من عبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى، وعُزير، والملائكة، هؤلاء قد عُبدوا من دون الله، قال: فأنزل الله براءة عيسى". جامع البيان في تأويل القرآن. المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ت310 هـــ.المحقق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى. 1420هـــ .2000 م.: 628/21. ينظر أيضا: 625/21.

(إن الله هو ربي وربكم)، فكأن قد قيل: هؤلاء غيره، فأحرز (هو) هذا المعنى، ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ما ورد هنا، فلم يحتج إلى الضمير.

ثم إنّ قوله عز وجل: (إن الله ربي وربكم فاعبدوه) في آل عمران حكاية عن عيسى عليه السلام بعد ما مضت آيات كثيرة في ذكره، وابتداء أمره من مبتدأ الآية التي نزلت في شأن مريم، وهي: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)) [آل عمران:42] إلى آخر هذه العشر.

فلما تناصرت هذه الآيات المتقدمة في ذكره، ودلت على إحداثه وخلقه، كانت فيها دلالة على أنه مربوب مخلوق بكثرة الأفعال التي أسندت إليه، وجعلت آيات له، وأنه عبد من عبيده، والله مالكه والقائم بمصالحه، وأنه أصحبه معجزات تدل على صدقة في نبوته، وكذب من قال ببنوته، فصرفتهم تلك الأفعال التي ذكرها إلى العلم بأنه تعالى ربه.

وكذلك في سورة مريم جاء قوله: (وإن الله ربي وربكم) بعد ما مضت آيات كثيرة، ابتدأها بقوله: (واذكر في الكتاب مريم) [مريم:16] وبعد عشرين آية مرت في قصتها قال: (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه) [مريم :36]، كانت تلك العشرون آية ناطقة بأن الله تعالى ربه، فاكتفى بما طال من الكلام المؤكد لحاله على حقيقتها عن التوكيد الذي جاء في سورة الزخرف، لأنه لم يذكر هذه الآية إلا بعد قوله: (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣)إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤)) [الزخرف:63-64].

فالموضع الذي خلا من الآيات الكثيرة الدالة على أن الله تعالى ربه، وهو عبده، لا ابنه حسن تأكيد الكلام فيه صرفا للناس عما ادعوا من أنه ابن الله، إلى أنه عبده، ألا ترى قوله في سورة مريم (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥)وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)) [مريم:35-36].

و التأكيد بـــ (هو) في مثل هذا الموضع يكون لأخذ وجهين، إما أن تريد أنه على الصفة التي جعلتها خبرا عنه، لا على غيرها، وإما أن تريد أن تعلق هذه الصفة التي جعلت خبرا عنه إنما هو فلان، لا غيره.

إذا قال القائل: إن زيدا هو أخوك، أي هو صديقك لا عدوك، أو يريد أن يقول: هو أخوك لا عمرو، فكذلك قوله تعالى: (إن الله هو ربي وربكم) يحتمل أن يريد التأكيدين: أن يريد أنه هو خالقي والقائم بمصالحي، لا غيره من الآلهة التي ترون عبادتها، وأن يريد أنه هو ربي، لا أبي كما زعمت النصارى، تعالى الله عن أن يكون له ولد.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) [الشورى] فأكدت الجملة بـــ (إن)، واللام، في حين أكّد قوله تعالى: يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) [لقمان] بـــ(إن) فقط، وسياق الآيتين يوضح الفارق.

فقد أوصى الله تعالى في سورة الشورى بشيئين: الصبر والمغفرة لمن أساء إلينا، فقال: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ)، وأوصى لقمان ابنه بالصبر فقال: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)، والأول أشق على النفس من مجرد الصبر، فاحتاج إلى زيادة التوكيد، فقال: إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) [الشورى].

وذلك لأن الصبر على وجهين: صبر على مكروه ينال الإنسان ظلما، كمن قتل بعض أعزته، وصبر على مكروه ينال الإنسان ليس بظلم، كمن مات بعض أعزته، فالصبر على الأول أشد، والعزم عليه أوكد، وكان ما في هذه السورة من الجنس الأول، لقوله: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ)، فأكد الخبر باللام، وفي لقمان من الجنس الثاني، فلم يؤكده باللام[1].

ومثله قوله تعالى: إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الأحقاف:33]

و قوله: إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [القلم:45]

وقوله: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ [غافر:77]

و قوله: إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [الحديد:22]

ويضاف إلى هذا النمط مجيء (إن) واسمها ثمّ ضمير الفصل ثمّ الخبر في قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [القلم: 7].

والتوكيد المفاد بـــ (إنَّ) وبضمير الفصل راجع إلى المعنى الكنائي، وأما كونه تعالى أعلم بذلك، فلا مقتضى لتأكيدها لما كان المخاطب به النبي (صلى الله عليه وسلم)، والمعنى:

1 ــ ينظر درة التنزيل:1160/1.

هو أعلم منك بحالهم، وضمير الفصل مفيد القصر، وهو قصر حقيقي، والمعنى: أنت لا تعلم دخائلهم فلا تتحسر عليهم[1].

ومنها أن تأتي (إنّ) واسمها ثمّ يأتي خبرها جملة اسمية، كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) [محمد:25]، فـ"(إن) حرف مشبه بالفعل، و(الذين) اسمها، وجملة (ارتدوا) صلة الموصول، و(على أدبارهم) حال، و(ما) المصدرية وما دخلت عليه في محل جر بالإضافة إلى الظرف، و(لهم) متعلقان بـ(تبين)، و(الهدى) فاعل، و(الشيطان) مبتدأ، وجملة (سوّل لهم) خبر الشيطان، والجملة الاسمية خبر(إن)، ومعنى سوّل لهم: سهّل لهم، من السول، وهو الاسترخاء، و(أملى لهم) عطف على (سول لهم)"2.

و"أوثر أن يكون خبر (إنَّ) جملة، ليتأتّى بالجملة اشتمالها على خصائص الابتداءِ باسم الشيطان للاهتمام به في غرض ذمه، وأن يسند إلى اسمه مُسند فعلي ليفيد تقوّي الحكم نحو: هو يعطي الجزيل"3.

ومثله قوله تعالى: (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [الحديد:24]

وقوله: (إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [المجادلة:19]

النمط الثاني: إنّ واسمها وخبرها جملة فعلية

وذلك كقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢)[الزمر:2]

وحرف (إن) مراعى فيه ما استعمل فيه من الخبر من الامتنان، فيحمل حرف (إن) على الاهتمام بالخبر، وما أريد به من التعريض بالذين أنكروا أن يكون منزلا من الله، فيحمل حرف (إن) على التأكيد استعمالا للمشترك في معنييه.

ومن ثمّ فلابد للبليغ أن يتبصر بجميع مقاصد المعاني في التركيب التي يمكن استظهارها منه، بشمولية النظر وقرائن الأحوال، دون تكلف أو تضاد، وعليه أن لا يقف على استظهار معنى واحد مكتفيا به، ويتغاضى في الوقت نفسه عن معان أخر يفيدها التركيب، لأن في

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 118/27.

2 ــ إعراب القرآن وبيانه: 209/7.

3 ــ التحرير والتنوير: 115/26.

ذلك تحجيرا لما يمكن أن يجود بإثراء المعاني في أوجز العبارات، ولعل من يحاول أن يستخرج معنى واحدا ويراه هو أصل هذا التركيب وبيت قصيده، ويعد ما سواه هذرا من القول، وتكلفا يقلق النصوص، هو الذي يقف بالبلاغة في غير مكانها، ويتكلم بغير لسانها، ويحجم من وظيفتها في المسألة العلمية الجادة في استظهار جميع نكات التركيب ودلالاته.

النمط الثالث: إنّ واسمها وخبرها شبه جملة

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:47].

واقتران الكلام في الآية بحرف (إنّ) لفائدتين: إحداهما: الاهتمام بصريحه الإخباري، وثانيهما: تأكيد ما تضمنه من التعريض بالمشركين، لأن الكلام وإن كان موجها للنبي (صلى الله عليه وسلم) وهو لا يشك في ذلك، فإن المشركين يبلغهم، ويشيع بينهم، وهم لا يؤمنون بعذاب الآخرة، فكانوا جديرين بتأكيد الخبر في جانب التعريض، فتكون (إن) مستعملة في غرضيها من التوكيد والاهتمام.

فـــ (إن) المؤكدة تحمل على غرضين أو معنيين في الجملة نفسها، باعتبارين: باعتبار معنى الخبر الصريح فهي للاهتمام، وباعتبار فحوى الخبر الضمنية من التعريض بالمشركين فهي للتأكيد.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾ [الطور:31]، والجملة مركبة من (إن)، واسمها، و(معكم) ظرف متعلق بمحذوف حال، و(من المتربصين) خبر (إني).

وقد أفاد تأكيد الخبر بـــ (إن) في قوله : (فإني معكم من المتربصين) تنزيل المخاطبين منزلة من ينكر أنه يتربص بهم، كما يتربصون به، لأنهم لغرورهم اقتصروا على أنهم يتربصون به ليروا هلاكه، فهذا من تنزيل غير المنكر منزلة المنكر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١)إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر:1ـــ2] فهذه الآية مركبة من (إن)، واسمها، واللام المزحلقة، و(في خسر) خبر (إن).

وتعريف (الإنسان) تعريف الجنس، مراد به الاستغراق، لأنه يستغرق أفراد النوع الإنساني الموجودين في زمن نزول الآية، وهو زمن ظهور الإسلام، ومخصوص بالناس الذين بلغتهم الدعوة في بلاد العالم على تفاوتها.

ومجيء الخبر على العموم مع تأكيده بالقَسم وحرفِ التوكيد في جوابه، يفيد التهويل والإنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس، ويراد به الحصول في المستقبل، بقرينة مقام الإنذار والوعيد، أي لفي خسر في الحياة الأبدية الآخرة، فلا التفات إلى أحوال الناس في الحياة الدنيا، قال تعالى: (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) [آل عمران:196ــ197].

وتنكير (خسر) يمكن أن يكون للتنويع، ويمكن أن يكون مفيداً للتعظيم والتعميم في مقام التهويل، وفي سياق القسَم، والمعنى: إن الناس لفي خسران عظيم: وهم المشركون.

ومن بديع التناسق في آي السورة الواحدة ممّا فرضه دخول (إن) على الجملة فى أواخر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في سورة الصافات قوله تعالى: (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81).[الصافات]

وقال بعدها في قصة إبراهيم: (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111).[الصافات].

وقال فيما بعدها فى قصة موسى وهارون: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122). [الصافات].

وبعدها فى قصة إلياس: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132). [الصافات].

فجاء في كل ذلك: (إِنَّا كَذَلِكَ) إلا فى قصة إبراهيم عليه السلام فإنه جاء بها: (كَذَلِكَ) من دون (إِنَّا).

فاختص هذا المكان بسقوط (إنا) منه، ووردت فيما سواه من الآيات التي أنهيت بها قصص الأنبياء عليهم السلام.

وذلك أن قوله: (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) جعلت أمارة لانتهاء كل قصة، وكانت قصة إبراهيم عليه السلام متضمنة ذكره وذكر ولده الذي رأى في المنام ذبحه، فقيل له بعدما تلّه للجبين: (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) [الصافات]، فجاء: (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105)، وقد بقيت من القصة آيات وهي: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) [الصافات].

ثم جاء ما جُعل خبرا في آخر كل قصة من قصصهم: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) ،[الصافات] فلم يذكر "إنا" هنا لسببين:

أحدهما: تقدم ذكره في هذه القصة حيث قال: (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105). [الصافات].

والآخر: أن يخالف بين منتهى هذه الآية لأنها من القصة الأولى التي ختمت بـــ (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) [الصافات]،وبين منتهى قصة يس، لأن ما قبلها منها فكان: (إنّا كذلك) إذا ذكرت في هذه القصة مرة اكتفى بها، و لم يكن منقطعا لها، فخالفت ما تقدمها وما تأخّر عنها لذلك[1].

وقد تأتي (إن) مخففة كما هو الأمر في قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) [الزمر:56] فـــ (إنْ) مخففة من (إنّ) المشددة، واللام في (لَمِنَ الساخرين) فارقة بين (إنْ) المخففة و(إنْ) النافية.

قال ابن عاشور: "وجملةُ (وإن كنت لَمِن الساخرين) خبر مستعمل في إنشاء الندامة على ما فاتها من قبول ما جاءها به الرسول من الهُدى فكانت تسخر منه، والجملة حال من فاعل (فرطت)، أي: فرطت في جنب الله تفريطَ الساخر لا تفريط الغافل، وهذا إقرار بصورة التفريط...، و (من الساخرين) أشد مبالغةً في الدلالة على اتصافهم بالسخرية من أن يقال: وإن كنتُ لَساخرة"[2].

1 ــ ينظر ملاك التأويل: 410/2 وما بعدها.

2 ــ التحرير والتنوير:46/24.

النمط الرابع: لكنّ واسمها ثم خبرها

وفي جميعها وقع الخبر جملة فعلية

ومن نكت إظهار المضاف إليه وإضماره في خبر (لكن)، ما جاء في قوله عز وجل: (.. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61)[غافر]، على عكس ما جاء في سورة يونس في قوله تعالى : (.. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ...) [يونس].

فقد أظهر الناس فى موضع الإضمار فى سورة غافر، وأضمر فى موضع الإظهار فى سورة يونس، وذلك أنّ كل موضع يحتمل الإضمار لقرب الذكر ويحتمل الإظهار لتعظيم الأمر، وذكر أخصّ الأسماء المقصود بالتقريع والتفنيد، فإنه يحمل على ما يلائم الآيات المتقدمة له، ليكون قد جمع إلى صحة المعنى واللفظ مشاكلة ما قبله من الآي.

فأما قوله تعالى فى سورة غافر: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) فجاء بعد قوله : (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) – ولو قال: ولكن أكثرهم لا يشكرون لقرب الذكر، ولَكان من الجائز الحسن، فإنه محمول على الآيات التى قبله، وهى قوله : (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨)، وقال بعده: (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)[غافر]، ثم جاء (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61)[غافر]

فأظهر ذكر الناس كما أظهر فى الآيتين قبلها للمشاكلة والملاءمة، وليس كذلك الأمر في سورة يونس عليه السلام، لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآي المتقدمة، ألا ترى أنه قال تعالى مخبرا عمّن يدخل من الظالمين النار: (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)[يونس] فانقضى هذا الكلام، واستؤنف خبر عن القوم الذين بعث الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – إليهم فقال: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) [يونس] ، فأضمر ذكره فى قوله: (ويستنبئونك) ثم قال بعده: (..أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٥٥)، فأضمر ما أضاف إليه أكثر، ثم انتهى إلى قوله تعالى بعده: (.. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) [يونس]، فاقتضى ما بني عليه الكلام في هذه الآيات أن يكون ما بعد الشرط بلفظ الإضمار، كما كان ما تقدمه، ولذلك اختلف الموضعان في الإظهار والإضمار1.

ومنه قوله تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58). [غافر]

وبعده: (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59) وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) [غافر]

ثم بعده: (.. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61). [غافر]

فهذه المواضع الثلاثة جاء فيها (لا يعلمون) وجاء فيها (لا يؤمنون) وجاء فيها (لا يشكرون) خبرا لـــ (لكن)، وهي تشترك في تركيب بنيتها، غير أنه خصّ كلاّ بمكان.

وذلك أنّ مَن أقر بخلق السموات والأرض وأنكر الإعادة والبعث نُبِّه على أن يعلم أنّ من قدر على الأكبر قادر على الأصغر، وهذا موضع يفتقر إلى العلم الذي نفاه عمن لم يقرّ به، فقال: (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، فاختص هذا الموضع بنفي العلم، والعلم هو المحتاج إليه والمبعوث عليه.

وجاء قوله: (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) لمن أنكر البعث، فهو محتاج إلى الإيمان به بعد علمه بأن القادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم.

وأما الآية الأخيرة فقوله: (.. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61).[غافر]، فهي لَمن كان لله فضل عليه، فهو محتاج إلى أن يؤدي حقّه بالشكر، فقال تعالى: (ولكن أكثر الناس لا يشكرون)، أي: لا يقابلون نعمة اللّه عليهم بما

1 ــ ينظر درة التنزيل وغرة التأويل: 1128/1 وما بعدها.

يستديمها لهم من الشكر الذي يربطها لديهم، فقد بان أن كل ما ختمت به آية هو في مكانه اللائق به، ولا يقتضي سواه[1].

ومثله قوله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ) [الحجرات:07]

وقوله: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [غافر:61]

وقوله: (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الطور:47]

وقوله: (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [المنافقين:08]

ـــ الرتبة:

لا يجوز تقدّم خبر هذه الأحرف عليها بحال، لأن عملها بحق الفرعية، فلم يتصرّفوا فيها، وأما تقديمه على الاسم دونها فإن كان شبه جملة جاز، وإلا فلا، ولذلك قال الرضي (ت 688هـــ): "إلاّ إذا كان ظرفا، فإن حكمه إذن حكمه في جواز التقديم إذا كان معرفة، نحو قوله: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية:25ـــ26]) وفي وجوبه إذا كان نكرة"2.

ومن لطيف ما وقع في اسم (إنّ) المتأخر الفرق بين تعريفه بالإضافة وتعريفه بـــ (ال) في قوله تعالى في سورة ص: (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)

وقوله تعالى في سورة الحجر: (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥).

وهذا ممّا يدفع إلى التساؤل: إن كان المراد بـــ (اللعنة) و(لعنتي) شيئا واحدا، لاختلاف اللفظين، فجاء في سورة الحجر بالألف واللام، وفي سورة ص مضافا.

وذلك أن القصة في سورة الحجر ابتدأت في المعتمد بالذكر، وهو خلق الإنس والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦)وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) [الحجر:26-27]، ثم قال: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) [الحجر:32]، فكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدأت بمثله القصة، وهو اسم الجنس المعرف بالألف واللام.

---

1 ـــ ينظر درة التنزيل وغرة التأويل: 1132/1 وما بعدها.

2 ـــ شرح الرضي على الكافية:110/1.

وكان الأمر في سورة ص بخلاف ذلك، لأن أول الآية (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣)إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)[ص:71ــ75] فلم تفتتح الآية بذكر الصنفين من الإنس والجن باللفظ المعرف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر.

وجاء في موضع: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) في [الحجر:32] قوله تعالى: (ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) في [ص:75]، فجعل بدل الساجدين (أن تسجد)، ثم قال: (لما خلقت بيدي) فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بخلقه، فأجري لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ الإضافة، كما قال: (بيدي)، فقال: (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) [ص:68] فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ التي افتتحت بها الآية واستمرت إلى آخرها هذا.

وقد تقدم خبر الحروف المشبهة بالأفعال على اسمها في كثير من الآيات، كقوله تعالى: (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى)[النجم:42]

وقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى)[ق:37]

وقوله تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى)[الليل:12ــ13]

وقوله تعالى: (إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا) [المزمل:12]

وقوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) [الحجرات:07]

ــ تعدد الخبر:

وجاء تعدد الخبر في عمومه على شكل واحد، مع اختلاف في الحرف الداخل على الجملة وفق الصيغة: الناسخ واسمه ثمّ خبر أوّل ثمّ خبر ثان، كقوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الحجرات:01]

وقوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) [الحجرات:12]

وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات:13]

وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الحجرات:14]

يذكر عن عيسى بن عمر أن بعض النحاة قال له: إنّي أجد في كلام العرب تكرارا في قولهم: (زيد قائم، وإنّ زيدا قائم، وإنّ زيدا لقائم) والمعنى واحد، فقال له: إنّ معانيها مختلفة، فالأوّل لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد، والثاني لمن سمعه فتردّد فيه، والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره، فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال[1].

الجملة الاسمية الداخلة عليها كان وأخواتها:

تدخل (كان) وأخواتها كثيرا على الجملة الاسمية المتكونة من اسمين أصلهما عند الجمهور مبتدأ وخبر، فترفع الأول ويسمى اسمها، وتنصب الثاني ويسمى خبرها، وهي حينئذ ناقصة، وقد تكتفي بمرفوعها وتكون تامة، كما تحول زمن الجملة الداخلة عليها إلى الماضي، قال المبرد:" اعلم أن هذا الباب إنما معناه الابتداء والخبر، وإنما دخلت (كان) لتخبر أن ذلك وقع فيما مضى، وليس بفعل وصل منك إلى غيرك"[2].

وهي لا تدخل على المبتدأ اللازم الصدر، كأسماء الشرط، والاستفهام، والمقرون بلام الابتداء، عدا ضمير الشأن، ولا تدخل على المبتدأ اللازم الحذف، كالمخبر عنه بنعت مقطوع، ولا ما لزم الابتداء كقولهم: أقل رجل يقول ذلك، ولله درك، وما التعجبية، وما تضمن معنى الدعاء كقولهم: سلام عليك، وويل له، وكذا بعد (لولا) الامتناعية، و(إذ) الفجائية[3].

ولا تدخل على الخبر إذا كان جملة طلبية، فلا يقال (كان زيد اضربه)، وشرط ما تدخل عليه (صار) وما بمعناها، و(دام) و(زال) وأخواتها، زيادة على ما سبق، أن لا يكون خبره فعلا ماضيا، فلا يقال: (صار زيد علم)، وكذا البواقي، لأنها تفهم الدوام على الفعل واتصاله بزمن الإخبار، والماضي يفهم الانقطاع[4].

ويرى معظم النحويين أن (كان) ليس فيها عنصر الحدث، وإنما تجردت للزمن فقط، قال ابن يعيش: "وأما كونها ناقصة، فإن الفعل الحقيقي يدل على معنى وزمان، نحو قولك (ضرب)، فإنه يدل على ما مضى من الزمان، وعلى معنى الضرب، و(كان) إنما تدل على ما

1 ــ ينظر المقدمة. ابن خلدون. ص:524.

2 ــ المقتضب. المبرد. محمد عبد الخالق عظيمة. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة. 1962م ــ 97/3.

3 ــ ينظر حاشية الخضري على شرح ابن عقيل. مطبعة دار إحياء الكتب العربية. (دت) ــ110/1.

4 ــ ينظر حاشية الخضري ــ 110/1.

مضى من الزمان فقط، و(يكون) تدل على ما أنت فيه، أو على ما يأتي من الزمان، فهي تدل على زمان فقط، فلما نقصت دلالتها كانت ناقصة...إلا أنها لما دخلت على المبتدأ والخبر، وأفادت الزمان في الخبر، صار الخبر كالعوض من الحدث، فلذلك لا تتم الفائدة بمرفوعها، حتى تأتي بالمنصوب"[1].

وتعقبه رضي الدين الاستراباذي بقوله في شرح الكافية: "وما قال بعضهم من أنها سميت ناقصة، لأنها تدل على الزمان دون المصدر ليس بشيء، لأن (كان) في نحو: (كان زيد قائما) يدل على الكون الذي هو الحصول المطلق، وخبره يدل على الكون المخصوص، وهو كون القيام، أي: حصوله، فجيء أولا بلفظ دال على حصول ما، ثم عين بالخبر ذلك الحاصل، فكأنك قلت: حصل شيء، ثم قلت: حصل القيام، فالفائدة في إيراد مطلق الحصول أولا ثم تخصيصه، كالفائدة في ضمير الشأن قبل تعين الشأن،...مع فائدة أخرى ههنا، وهي دلالته على تعيين ذلك الحصول المقيد، ولو قلنا: (قام زيد)، لم تحصل هاتان الفائدتان معا، فكان يدل على حصول حدث مطلق تقييده في خبره، وخبره يدل على حدث معين واقع في زمن مطلق تقييده في (كان)، لكن دلالة (كان) على الحدث المطلق أي الكون وضعية، ودلالة الخبر على الزمان المطلق عقلية،...فمعنى (كان زيد قائما): إن زيدا متصف بصفة القيام المتصف بصفة الكون، أي الحصول والوجود"[2].

والظاهر أنها تدل على الحدث الذي هو الكون، لكثرة إتيان المصدر منها واسم الفاعل في كلام العرب.

وورد تركيب كان مع الجملة الاسمية البسيطة على النمط التالي: (كان ثمّ اسمها ثمّ خبرها) وقد يكون خبرها مفردا،وفي مثل هذا التركيب كثيرا ما ترد (كان) لإفادة الدوام والاستمرار، بمعنى (لم يزل)، كقوله تعالى: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [الفتح:04]، أي يعلم الأمر قبل وقوعه، وهو أكمل من العلم عند الوقوع أو بعده، ومثله قوله تعالى: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) [الفتح:7]، وهنا حكمة هامة قد لاتدرك من خلال التركيب السطحي للآيتين، إذ هما يخضعان للمنوال نفسه، غير أن التملي في السياق وارتباط مضمون الآيات نتج عنه استبدال لبعض وحداته، فقد قال في الآية الأولى

1 ــ شرح المفصّل للزمخشري. 7/89ــ90.

2 ــ شرح الرضي على الكافية: 2/221.

من سورة الفتح: (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)، وقال في الآية الثانية منها: (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)، وسبب ذلك أن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة، وازدياد المؤمنين إيمانا، إذ قال قبلها: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) [الفتح:4] فهذا موضع علم وحكمة فقال: (عَلِيمًا حَكِيمًا).

وأما الآية الثانية فهي في موضع العذاب والعقوبات، فقد جاءت بعد قوله: (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) [الفتح:6ـــ7] فهذا موضع عزة وغلبة وحكم فقال: (عَزِيزًا حَكِيمًا).

وشبيه بهذا قوله تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) [الفتح:18ـــ19] فهذا في مقام النصر، وأخذ الأموال والغنائم، فكان الموضع موضع عزة وغلبة وحكم فقال: (عَزِيزًا حَكِيمًا).

ومن الشكل نفسه قوله تعالى: (وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) [الأنبياء:81] وهذا أكمل من القول: ونحن بكل شيء عالمون، ذلك لأن هذا كائن قبل وقوعه، فهو علم بما لم يقع، بخلاف نحن عالمون، فإنه ليس نصا في ذلك، وهذا كما تقول لصاحبك في أمر كنت تنهاه عنه فلم ينته، فجاءه منه سوء لم يكن في حسبانه: كنت عالما بهذا علم اليقين منذ أمد بعيد، لتدل على مقدار علمك، وصدق ظنك البعيد في الزمن.

وإن كان الأصل فيها أن يدل على حصول ما دخلت عليه فيما مضى، مع انقطاعه أو عدمه، وأنكر بعضهم مجيئها لهذا المعنى، قال الرضي: "وذهب بعضهم إلى أن (كان) يدل على استمرار مضمون الخبر في جميع زمن الماضي، وشبهته قوله تعالى: (وَكَانَ اللَّهَ سَمِيعًا بَصِيرًا)، وذهل أن الاستمرار مستفاد من قرينة وجوب كون الله سميعا بصيرا لا من لفظ (كان)، ألا ترى أنه يجوز (كان زيد نائما نصف ساعة فاستيقظ)، وإذا قلت (كان زيدا

ضاربا) لم يستفد الاستمرار، وكان قياس ما قال أن يكون (كن) و(يكون) أيضا للاستمرار"[1].

وجاء الشكل نفسه لتتزيل المستقبل منزلة الماضي، من ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)[الإنسان:5] وقوله تعالى: (وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)[الإنسان:7] وذلك لبيان تحقق الوقوع، وهذا في القرآن كثير، فإن القرآن كثيرا ما يخبر عن المستقبل بلفظ الماضي لبيان أن هذا المستقبل بمنزلة ما مضى، فكما أن الذي وقع وحصل لا شك فيه، فهذا كذلك.

ومن سورة الفتح قوله تعالى: (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) [الفتح : 11]، ثم قال فيما بعد : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) [الفتح:24].

واختلف الوصفان الواقع بهما ختام الآيتين، وهما: (خبير) في الأولى، و(بصير) في الثانية، لأنه قد تقدم قبل الآية الأولى قوله تعالى: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) [الفتح:11] فناسب هذا وصفه تعالى بالخبير، لأن الخبير هو العليم بما خفي وبطن، وفيه مناسبة هذا لقوله: (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ).

وأما الآية الثانية فتقدمها قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) [الفتح:24] وليس في هذا إبطان شيء أظهر خلافه، فكان إيراد وصفه سبحانه بـــ (بصير) أنسب.

ومنها قوله تعالى: (.. كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا...) [الحديد:20]، وقال فيما تقدم من سورة الزمر: (.. ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا..) [الزمر:21].

فقال في سورة الحديد: (ثُمَّ يَكُونُ)، وقال في سورة الزمر: (ثُمَّ يَجْعَلُهُ)، وذلك أن الأفعال التي نسق هذا الفعل عليها في سورة الزمر هي أفعال اللّه تعالى، لأنه قال : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ

1 ــ شرح الرضي على الكافية: 324/2.

اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا)، فهو معطوف على قوله: (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا).

والذي في سورة الحديد لم يسند الفعل المتقدم فيه إلى اللّه تعالى فيسنَد إليه ما بعده، وإنما هو: (.. كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ ...) فلم يصلح في كل مكان إلا ما جاء فيه من اختيار الكلام.

و"العرب تستعير هذه الأفعال فتوقع بعضها مكان بعض، فأوقعوا (كان) هنا بمعنى (صار) لما بينهما من التقارب في المعنى، لأن (كان) لما انقطع أتى بمعنى انتقل من حال إلى حال، ألا تراك تقول: كنت غائبا وأنا الآن حاضر، فـــ (صار) كذلك تفيد الانتقال من حال إلى حال، نحو قولك: صار زيد غنيا، أي انتقل من حال إلى هذه الحال"[1]، إلا أن الشيء الذي يميز معنى (كان) هنا هو اختصاره للزمن المرافق للانتقال والتحول في معنى (صار)، والدليل على ذلك أنك لا تستطيع أن تستعيض عنها بها هنا.

وقد يكون خبر (كان) جملة فعلية، وفي هذا الشكل إما أن يكون خبرها فعلا ماضيا أومضارعا، فإذا أتى خبرها على صيغة الماضي فإنه يدل على حصوله في الماضي كقوله تعالى: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)[القمر:14].

و الكلام هنا عن هلاك قوم نوح بالإغراق، ونجاته مع من آمن به في الفلك الذي صنعه، أما إذا أتى على صيغة المضارع فإنه يدل على أن الفاعل كان يعتاد الفعل، نحو (كان يقوم الليل)، ومنه قوله تعالى: (كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) [الذاريات:17]، وقوله تعالى: (...أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) [الزمر:46] فالإتيان بفعل الكون صلة لـــ (مَا) الموصولة يدُل على تحقق الاختلاف، وكونُ خبر (كان) مضارعاً تعريض بأنه اختلاف متجدد، إذ لا طماعية في ارعواء المشركين عن باطلهم، وتقديم (فِيهِ) على (يَخْتلفون) لرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بالأمر المختلَف فيه.

فهذه الصيغة تدل على الماضي المستمر أو العادة، و"من هذا الباب الحكاية عن النّبيّ (صلّى الله عليه وسلم) بلفظ (كان يصوم)، و(كنا نفعل)، وهو عند أكثر الفقهاء

1 ــ شرح المفصل: 102/7.

والأصوليين يفيد الدوام، فإن عارضه ما يقتضي عدم الدوام مثل أن يروى أنه (كان يمسح مرة) ثم نقل عنه (أنه كان يمسح ثلاثا) فهذا من باب تخصيص العموم"[1].

وقد يكون خبرها شبه جملة كقوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) [الممتحنة:4]، وبعد هذا قال: (لقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) [الممتحنة:6]

فأعاد: (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة)، وذلك أنه تعالى أمر المؤمنين ألا يتخذوا أعداءه وأعداءهم أولياء، بإلقاء أسباب المودة والنصيحة لهم، وسبب نزول هذه السورة قصة حاطب بن أبي بلتعة (رضي الله عنه)، فى كتابه إلى أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما يريده فيهم، ودفعه الكتاب إلى ظعينة، ونزول الوحي بذلك، فبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علياً والمقداد، وأمرهما أن يأتيا روضة خاخ، وقال لهما: إن بها ظعينة معها كتاب إلى أهل مكة، فذهب علي والمقداد (رضي الله عنهما)، فوجدا الظعينة كما أخبرهما النّبيّ (صلى الله عليه وسلم)، وأنكرت الكتاب، فاشتد عليها علي (رضي الله عنه)، وقال: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتى به علي (رضي الله عنه) رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فإذا الكتاب من حاطب، فدعاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وتبرأ حاطب من أن يكون فعل ذلك نفاقاً، واعتذر بما قبله منه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فنزل القرآن بتصديقه في اعتذاره فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) [الممتحنة:1]، فأمر تعالى بالتبرؤ منهم، وذكر كفرهم بما جاء المؤمنين (من الحق)، وإخراجهم الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) والمؤمنين من مكة من أجل إيمانهم، وتوعد فاعل ذلك، فأخبر أنه قد ضل سواء السبيل، وقبل تعالى توبة حاطب[2].

وأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام، حين تبرأ هو ومن معه من المؤمنين من قومهم، إلا ما كان من موعدة إبراهيم لأبيه بالاستغفار، إلى أن تبين له أنه عدو الله تبرأ منه، فقال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ) [الممتحنة:4].

1 ــ البرهان في علوم القرآن. الزركشي. تحقيق أبي الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. ط1. 1957 . 125/4.

2 ــ ينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: 82/8.

فلما أوضح تعالى من ذلك ما فيه شفاء المؤمنين أتبعه تعالى بالقسم المؤكد لذلك فقال: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [الممتحنة:6]، ودلت اللام الموطئة للقسم في (لقد كان) على تأكيد ما تقدمه من الأمر بالاقتداء والتأسي بإبراهيم عليه السلام، ومن كان معه فقال تعالى: (لقد كان لكم فيهم) ــ أي: المذكورين ــ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ثم قال: (ومن يتول) أي: عن الاقتداء والتأسي بمن أرشد سبحانه إلى التأسي به فيما ذكر (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [الممتحنة:6]، فالأولى تنبيه وإرشاد، والثانية تأكيد، ولا يلائم كل واحدة ولا يناسبها غير موضعها.

الحذف:

يحذف اسم كان لدلالة السياق عليه، قال سيبويه: "ومثل ذلك قول العرب: (من كذب كان شرّا له) يريد كان الكذب شرّا له، إلا أنه استغنى بأن المخاطب قد علم أنه الكذب، لقوله كذب في أوّل حديثه"[1].

ومنه قوله تعالى: (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) [محمد:21]

وقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) [الأحقاف:10].

ومن أخوات كان (صار)، وقد وردت في موضع واحد تامة، في قوله تعالى: (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) [الشورى:53] وذلك في كلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله، وانتظار حكمه، وهي (ألا إلى الله تصير الأمور).

وشرح الرضي معناها بقوله: "وصار للانتقال، هذا معناها إذا كانت تامة..، ومعناها إذا كانت ناقصة: كان بعد أن لم يكن...ومعنى يصير، يكون بعد أن لم يكن"[2].

وقد ذكر النحاة أن مثل صار في العمل ما وافقها في المعنى من الأفعال، وهي: آض، ورجع، وعاد، واستحال، وقعد، وحار، وارتد، وتحول، وغدا، وراح، وجاء[3]..وأن دلالتها

1 ــ الكتاب. سيبويه. ط الخانجي ــ391/2.

2 ــ شرح الرضي على الكافية:226/2.

3 ــ ينظر شرح الرضي على الكافية:221/2ــ222.

على الحدث لا تنافي نقصها، واقتصار دلالتها على المجرد، فهي تدل على الحدث والزمن كسائر الأفعال.

و بهذا فقد وظف الأسلوب القرآني الجملة الاسمية الموسعة بتراكيبها المختلفة والمتنوعة توظيفا دقيقا حسب السياق، فجاءت (إنّ) للتوكيد، إضافة على ما يستفاد من البنية الأصلية للجملة، فشهدنا دخولها على الجمل الاسمية للاهتمام بالخبر، مع زيادة معنى التوكيد فيها بإضافة لام التوكيد والقسم أحيانا، وكانت أم بابها لكثرة تواردها في الجملة، وتلتها (لكن) مع بعض الأدوات الأخرى التي وضعت في مباحث أخرى كـ (ليت) في التمني.

كما استعملت كان في الجملة القرآنية بمختلف صياغاتها لإفادة الدوام والاستمرار، ولتنزيل المستقبل منزلة الماضي، ومن أخواتها الفعل (صار)، و لم يخرج في دلالته عن مضمون (كان).

ولا يتوقف وجود النواسخ في الجملة عند الدلالة العامة للكلمة، بل يجعل منها كائنا يتلون وفقا و الموقف، فجمع توظيفها بين صحة المعنى واللفظ، ومشاكلة ما قبلها من الآي، مما يضفي عليها في كل مرة لباسا خاصا لا يكاد يميزه إلا الأذكياء من المفسرين، و هو في كل وقت لا يبخل بعطاءاته الدلالية و البلاغية المتجددة.

2 ــ الجملة الاسمية المنفية:

سبق تعريفنا للجملة الاسمية على أنها التركيب الذي يتضمن عملية إسنادية واحدة، أما "النفي فهو سلب الأمر بواسطة أحد أحرف النفي ... أو بواسطة فعل يفيد النفي، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ البِرُ أنْ تُوَلُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ و المَغْرِبِ﴾ [البقرة:177]"1، ففعل النفي هو (ليس).

ونفي الجملة الاسمية يكون بتسبيق أداة نفي على ركنها الأول (المبتدأ)، بحيث يسلب نسبة الخبر إليه، و تنقسم أدوات النفي إلى ثلاثة أقسام: منها ما كان لنفي الفعل، و منها ما كان لنفي الاسم، و منها ما كان مشتركا.

فمن الأدوات التي تختص بنفي الاسم (لات)، و هي من أخوات (ما) الناسخة تعمل عمل (ليس)، و تدخل على المبتدأ و الخبر، رافعة الأول اسما لها، و ناصبة الثاني خبرا لها، و هي تعمل بشرطين:

1 – أن يكون معمولاها اسمي زمان.

2 – أن يحذف أحد معموليها، و الغالب حذف الاسم2.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْن فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:02]

و مما يشترك فيه نفي الاسم و الفعل من الأدوات:

لا: وتعمل في ما بعدها فتنصبه من غير تنوين، كما تعمل عمل (ليس الناسخة)

وما: العاملة عمل ليس.

وإن: تعمل عمل ليس أيضا.

وليس: والغالب في استعمال (ليس) نفي الحال، و"يلاحظ أن خبرها كثيرا ما يتقدم على اسمها إذا كان جارا و مجرورا، و لم يأت اسمها معرفا بـ "ال"، والغالب فيه التنكير"3.

و أما أدوات نفي الفعل فنرجئها إلى فصل لاحق.

1– المعجم المفصل في النحو العربي: عزيزة قوال بابيتي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1992 –2/ 1126

2 – مختصر النحو: الهادي الفضلي . دار الشرق. جدة. المملكة العربية السعودية. 1990 – ص : 91 .

3 – أساليب النفي في القرآن: أحمد ماهر البقري. دار المعارف. مصر. 1980م. ص :79.

ـــ الجملة الاسمية المنفية بفعل كون منفي:

وقد أتت الجملة الاسمية المنفية بـــ (ما كان) لقصد المبالغة في النفي، قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) [الشورى:51]، فـــ"جيء بصيغة حصر مفتتحة بصيغة الجحود المفيدة مبالغة النفي، وهي (وما كان لبشر أن يكلمه الله)، أي: لم يتهيّأ لأحد من الرسل أن يأتيه خطاب من الله إلا بنوع من هذه الثلاثة.

ودل ذلك على انتفاء أن يكون إبلاغ مراد الله تعالى لأمم الرسل بغير أحد هذه الأنواع الثلاثة: أعني خصوص نوع إرسال رسول، بدلالة فحوى الخطاب، فإنه إذا كان الرسل لا يخاطبهم الله إلاّ بأحد هذه الأنحاء الثلاثة، فالأمم أولى بأن لا يخاطبوا بغير ذلك، من نحو ما سأله المشركون من رؤية الله يخاطبهم، أو مجيء الملائكة إليهم، بل لا يتوجه إليهم خطاب الله إلاّ بواسطة رسول منهم، يتلقى كلام الله بنحو من الأنحاء الثلاثة، وهو مما يدخل في قوله: (أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء)، فإن الرسول يكون مَلَكاً، وهو الذي يبلّغ الوحي إلى الرسُل والأنبياء"[1].

والصيغة المتعارف عليها هي دخول لام الجحود على فعل، وهي (ما كان ليفعل)، واللام فيه داخلة بعد كون ناقص ماض لفظا أو معنى منفي بما، أو لم، أو إنّ، وهذا التعبير يستعمل لتأكيد النفي، وذلك أن إثباته (كان سيفعل)، وفي السين معنى التأكيد، قال تعالى: (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) [البقرة:137] فتقول: كان سيكتب، فإن أردت نفيه قلت: ما كان ليكتب، جاء في الكتاب:"واعلم أن اللام قد تجيء في موضع لا يجوز فيها الإظهار (يعني أن) وذلك: (ما كان ليفعل) فصارت (أن) ههنا بمنزلة الفعل في قولك: إياك وزيدا، وكأنك إذا مثلت قلت: ما كان لأن يفعل، أي ما كان زيد لهذا الفعل، فهذا بمنزلته، ودخل فيه معنى نفي (كان سيفعل)، فإذا قال هذا، قلت: ما كان ليفعل، كما كان (لن يفعل) نفيا لـــ (سيفعل)، وصارت بدلا من اللفظ"[2].

ومن ذلك قوله تعالى: (قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩)وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) [الصافات]، وفي الآية فعل الكون منفي بصيغتي

1 ـــ التحرير والتنوير: 140/25ـــ141.

2 ـــ الكتاب. سيبويه. ط بولاق ـــ408/1.

المضارع والماضي، و(بل) حرف إضراب وإبطال، و(قالوا) فعل وفاعل، و(بل) حرف إضراب إبطالي، و(لم) حرف نفي وقلب وجزم، و(تكونوا) فعل مضارع مجزوم بـــ (لم)، والواو اسمها، و(مؤمنين) خبرها.

(وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ) وفيها (ما) نافية، وكان فعل ماض ناقص، و(لنا) خبرها المقدم، و(عليكم) حال، و(من) حرف جر زائد، و(سلطان) مجرور لفظا اسم كان محلا.

جاء في التحرير والتنوير:"وجواب الزعماء بقولهم (بَل لَمْ تَكُونوا مؤمِنينَ) إضراب إبطال لزعم الأتباع أنهم الذين صدّوهم عن طريق الخير، أي: بل هم لم يكونوا ممن يقبل الإيمان، لأن تسليط النفي على فعل الكون دون أن يقال: بل لم تؤمنوا، مشعر بأن الإيمان لم يكن من شأنهم، أي بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان، و (ما كان لنا عليكم من سلطان) أي: من قهر وغلبة حتى نُكرهكم على رفض الإيمان"[1].

ومن نفي الجملة بفعل الكون قوله تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) [غافر:85] فلم يقل: فلم ينفعهم، وإنّما قال: (فَلَم يَكُ يَنفَعُهُم) لدلالة فعل الكون على أن خبره مقررُ الثبوتِ لاسمه، فلما أريد نفي ثبوت النفع إياهم بعد فوات وقته، اجتلب لذلك نفي فعل الكون الذي خبره (ينفعهم)، والمعنى: أن الإيمان بعد رؤية بوارق العذاب لا يفيد صاحبه مثل الإيمان عند الغَرْغرة، ومثل الإيمان عند طلوع الشمس من مغربها.

ومن ذلك قوله تعالى: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) [غافر:21]

ومعنى (وما كانَ لَهُم مِنَ الله من وَاق): ما كان لهم واق من عقابه وقدرته عليهم، و (مِن) الأولى متعلقة بواقٍ، وقدم الجار والمجرور للاهتمام بالمجرور، و (من) الثانية زائدة لتأكيد النفي بحرف (ما)، وذلك إشارة إلى المذكور، وهو أخذ الله إياهم بذنوبهم.

1 ــ التحرير والتنوير: 105/23.

ـــ حذف نون (كان) المنفية:

ومن مبررات حذف نون كان المنفية ما جاء في البرهان: "ويلحق بهذا القسم النون الذي هو لام الفعل فيحذف تنبيها على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى) (٣٧)[القيامة:37]، فحذفت النون تنبيها على مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه، ثم يترقى في أطوار التكوين (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (٧٧) [يس:77]، فهو حين كان نطفة ناقص الكون...

وكذلك: (قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) (٥٠) [غافر:50]، فجاءت الرسل أقوامهم من أقرب شيء في البيان من أقل مبدأ فيه، وهو الحس إلى العقل إلى الذكر، ورقوهم من أخفض رتبة وهي الجهل، إلى أرفع درجة في العلم وهي اليقين، وهذا بخلاف قوله تعالى: (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ) (١٠٥) [المؤمنون:105]، فإن كون تلاوة الآيات قد أكمل كونه وتم، وكذلك: (قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)(٩٧) [النساء:97] هذا قد تم تكوينه...وكذلك: (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ) (٨٥) [غافر:85] انتفى عن إيمانهم مبدأ الانتفاع وأقله ما انتفى أصله"[1].

وقد يكون الحذف إشارة إلى أن المتكلم لا يقوى على إتمام الكلام لما فيه من الضعف أو لرغبته عن الحديث، فيوجز في كلامه ما أمكنه ذلك، ولعل من ذلك قوله تعالى: قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) [المدثر:43ـــ44].

ومن الجملة الاسمية المنفية قوله تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) [الجاثية:25]، ويقدر قوله : (أن قالوا ائتوا بآبائنا) في محل رفع بالاستثناء المفرغ، فهو اسم (كان)، و (حجتهم) خبرها، لأن حجتهم منصوب في قراءة جميع القراءات المشهورة، وتقديم خبر (كان) على اسمها لأن اسمها محصور بـــ (إلاّ) فحقه التأخير عن الخبر.[2]

1 ـــ البرهان في علوم القرآن. الزركشي. تحقيق أبي الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. ط1. 1957م. 407/1ـــ408.

2 ـــ التحرير والتنوير: 364/25.

ومن الجمل الاسمية المنفية قوله تعالى: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) [البيّنة:1] فـ (لم) حرف نفي وقلب وجزم، و(يكن) فعل مضارع ناقص مجزوم بـ (لن)، و(الذين) اسمها، وجملة (كفروا) صلة، و(من أهل الكتاب والمشركين) متعلق بمحذوف حال، و(منفكين) خبر (يكن)، و(حتى) حرف غاية وجر، (تأتيهم) فعل مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد (حتى)، والهاء مفعول به، و(البيّنة) فاعل.

وعلى بساطة البنية التركيبية لهذه الآية، فإن فيها إشكالية من أصعب ما في القرآن نظما وتفسيرا، وقد اختلف فيها الكبار من العلماء، وقد حاول الإمام الفخر الرّازي تحديدها قائلا: "وجه الإشكال أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا؟ لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر والشرك اللذيْن كانوا عليهما فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم إن كلمة (حتى) لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم قال بعد ذلك: (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) [البينة:4] وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فحينئذ حصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر"[1]اه.

ومن الكلام السابق للرازي يتبين لنا أن الآية الأولى في السورة مخالفة لما تضمنته الآية الرابعة، فالأولى تفيد انفكاكهم عن الكفر والشرك بعد مجيء الرسول (صلّى الله عليه وسلم) ممّا يعني تجمعهم، والآية الرابعة تفيد تفرقهم بعد مجيئه ممّا يعني بقاءهم على الكفر والشرك، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية وهو ما لم يذكره الرّازي من وجه الإشكال: أن المشاهدة دلت على أن الذين كفروا لم ينفكوا عن الكفر في زمن مَّا، وأن نصب المضارع بعد (حتى) بـ (أنْ) مضمرة، يقتضي أنّ إتيان البينة مستقبل، وذلك لا يستقيم، فإن البينة فسرت بـ (رسول من

1 ــ مفاتيح الغيب: الرّازي. دار الكتب العلمية. بيروت . لبنان. الطبعة الأولى.1411هـ. 1990م ــ 37/32.

اللّه) وإتيانْ الرسول وقع قبل نزول هذه الآيات بسنين، وهم مستمرون على ما هم من كفرهم وشركهم.

قال ابن عاشور:"وإذ قد تقرر وجه الإِشكال، وكان مظنوناً أنه ملحوظ للمفسرين إجمالاً أو تفصيلاً، فقد تعين أن هذا الكلام ليس وارداً على ما يتبادر من ظاهره في مفرداته أو تركيبه، فوجب صرفه عن ظاهره، إما بصرف تركيب الخَبر عن ظاهر الإِخبار، وهو إفادة المخاطَب النسبة الخبرية التي تضمنها التركيب، بأن يُصرف الخبر إلى أنه مستعمل في معنى مجازي للتركيب، وإمّا بصرف بعض مفرداته التي اشتمل عليها التركيب عن ظاهر معناها إلى معنى مجازٍ أو كناية.

فمن المفسرين من سلك طريقة صرف الخبر عن ظاهره، ومنهم من أبقوا الخبر على ظاهر استعماله، وسلكوا طريقة صرف بعض كلماته عن ظاهر معانيها، وهؤلاء منهم من تأول لفظ (منفكين)، ومنهم من تأول معنى (حتى)، ومنهم من تأول (رسول)، وبعضهم جوز في (البينة) وجهين"[1].

وقد تعددت أقوال المفسرين ومراجع تأويل الآية نذكر منها:

الأول: تأويل الجملة بأسرها بأن يُؤوَّل الخبر إلى معنى التوبيخ والتعجيب، وإلى هذا ذهب الزمخشري، قال: "كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم: لا ننفك مما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد (صلّى اللّه عليه وسلّم)، فحكى اللّه تعالى ما كانوا يقولونه، ثم قال: (وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ)، يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق: إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول (صلّى اللّه عليه وسلّم)"[2].

ثمّ استدل على ذلك بمثال محاولا توضيح رؤيته، قائلا: "ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفك مما أنا فيه حتى يرزقني اللّه الغنى، فيرزقه اللّه الغنى فيزداد فسقا، فيقول واعظه: لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك في

1 ــ التحرير والتنوير:470/30.

2 ــ الكشاف: 782/4.

الفسق إلا بعد اليسار: يذكره ما كان يقوله توبيخا وإلزاما"[1]، فهذا مذهب الزمخشري للخروج من ورطة ظاهر التركيب.

الثاني: تأويل معنى (منفكين) بمعنى الخروج عن إمهال الله إياهم، ومصيرهم إلى مؤاخذتهم، وتركهم دون إقامة الحجة عليهم، وهو لابن عطية، إذ ذكر ترجيح اختياره في تفسيره، فقال: "ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى، وذلك أن يكون المراد لم يكن هؤلاء القوم "منفكين" من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم، حتى يبعث إليهم رسولا منذرا تقوم عليهم به الحجة، وتتم على من آمن النعمة، فكأنه قال ما كانوا ليتركوا سدى"[2].

الثالث: تأويل متعلِّق (منفكين) بأنه عن الكفر، أو عن الاتفاق على الكفر، وهو لأبي حيّان، فسرد أقوالا عدة، ثم ذكر مستدلا:"قال مجاهد وغيره: لم يكونوا منفكين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة"[3].

الرابع: تأويل (رسول) بأنه رسول من الملائكة يتلو عليهم صحفاً من عند الله، فهو في معنى قوله تعالى: (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ) [النساء:153]، وعزاه الفخر إلى أبي مسلم وهو يقتضي صرف الخبر إلى التهكم[4].

وقد نبه العلامة ابن عاشور إلى الآراء المتقدّمة غير أنها لم تف عنده بالحاجة البيانية والدليل المقنع، ممّا إلى ألجأه إلى القول بصرف النظر عن ظاهر تركيبها، واللجوء إلى المجاز، فقال: "فهذه الآيات وردت مورد إقامة الحجة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، وعلى المشركين، بأنهم متنصلون من الحق متعللون للإصرار على الكفر عناداً، فلنسلك بالخَبر مسلك مورد الحجة، لا مسلك إفادة النسبَةِ الخبرية، فتعين علينا أن نصرف التركيب عن استعمال ظاهره إلى استعمال مجازي على طريقة المجاز المرسل المركب، من قَبيل استعمال الخبر في الإنشاء، والاستفهامِ في التوبيخ ونحو ذلك"[5].

---

1 ــ الكشاف: 782/4.

2 ــ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي. تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية.لبنان. الطبعة الأولى. 1413هـ .1993م ــ 507/5.

3 ــ البحر المحيط: 494/8.

4 ــ مفاتيح الغيب: 41/32.

5 ــ التحرير والتنوير: 471/30.

ثمّ ذكر أن بيان أنه من أيّ أنواع المجاز هُو مما لم يَحُم أحد حوله، فهذا الكلام مسوق مساق نقل الأقوال المستغربة المضطربة الدالة على عدم ثبات آراء أصحابها، فهو من الحكاية لِما كانوا يَعدُون به، فهو حكاية بالمعنى، كأنه قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتى تأتينا البينة، وهذا تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجيب أو الشكاية من صَلَف المُخبر عنه، وهو استعمال عزيز بديع، وقريب منه قوله تعالى : (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤)) [التوبة:64]إذ عَبَّر بصيغة (يَحْذَر) وهم إنما تظاهروا بالحذر ولم يكونوا حذرين حقاً، ولذلك قال الله تعالى: (قل استهزئوا)[1].

ومن دلالة النفي بـــ (لم) بعدها فعل كون التهويل والإيهام، كما في قوله تعالى: (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لم يكونوا يحتسِبُون (٤٧) [الزمر:47]، ففى الجملة الاسمية تهويل في عظم ما ينالهم من العذاب، وهو ما في الموصول من قوله: (ما لم يكونوا يحتسِبُون) من الإيهام الذي تذهب فيه نفس السامع إلى كل تصوير من الشدة.

ـــ الجملة الاسمية المنفية بـــ(ما):

أعملت (ما) عمل ليس في لغة أهل الحجاز، قال تعالى: (مَا هَذَا بَشَرًا) (٣١) [يوسف:31] ولم تعملها تميم، ويذكر النحاة أوجه المشابهة بينهما فيقولون: إن كلتيهما تدخل على المبتدأ والخبر، وإن كانت (ما) لا تختص بالدخول على الجمل الاسمية، وكلتاهما لنفي الحال، ويقوي هذه المشابهة بينهما دخول الباء في خبرها، كما تدخل في خبر ليس[2].

و (ما) ليس لنفي الحال على الإطلاق، فإذا قيّدت فهي بحسب ذلك التقييد، قال تعالى: (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) [البقرة:167]، وقال: (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) [الانفطار:16] وهي في ذلك للاستقبال[3].

ومن إتيان النفي بـــ(ما) قوله تعالى: (فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) [الحاقة:47]، وإنما أخبر عن (أحد) وهو مفردبـــ (حاجزين) جمعاً، لأن (أحد) هنا وإن كان لفظه مفرداً فهو في معنى الجمع، لأن (أحد) إذا كان بمعنى ذات أو شخص لا يقع إلاّ

1 ـــ ينظر التحرير والتنوير: 471/30.

2 ـــ شرح المفصّل:108/1.

3 ـــ ينظر شرح الرضي على الكافية: 291/1.

في سياق النفي مثل غريب، ودَيّار، ونحوهما من النكرات التي لا تستعمل إلاّ منفية، فيفيد العموم، أي كل واحد لا يستطيع الحجز[1] عنه، ويستوي في لفظه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، قال تعالى: (لا نُفرق بين أحد من رسله) [البقرة:285]، وقال: (لَسْتُنَّ كأحدٍ من النساء) [الأحزاب:32]، والمعنى: ما منكم أناس يستطيعون الحجز عنه.

والضمير عائد إلى (رسول كريم) [الحاقة:40]، و (مِن) في قوله: (مِن أحد) مزيدة لتأكيد النفي وللتنصيص على العموم.

وهذه الآية دليل على أن الله تعالى لا يُبقي أحداً يدعي أن الله أوحى إليه كلاماً يبلغه إلى الناس، وأنه يعجل بهلاكه، وكذلك من يدعي النبوءة دون ادعاء قولٍ أُوحي إليه، فإن الله قد يهلكه بعد حين، كما كان في أمر الأسود العنسي الذي ادعى النبوءة باليَمن، ومُسيلمة الحنفي[2].

ومن النفي بـــ (ما) قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) [الزمر:41]، وفيها الواو عاطفة، و(ما) نافية حجازية، و(أنت) اسمها، و(عليهم) جار ومجرور متعلقان بـــ (وكيل)، والباء حرف جر زائد، و(وكيل) مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر (ما).

و"جملة (وما أنت عليهم بوكيل) معطوفة على جملة (فمن اهتدى)، فهي داخلة في حيز التفريع، وإتمام للمفرع، لأنه إذا كان اهتداء المهتدي لنفسه وضلال الضال على نفسه تحقق أن النبي (صلى الله عليه وسلم) غير مأمور من الله بأكثر من التبليغ، وأنه لا نفع لنفسه في اهتدائهم، ولا يضره ضلالهم، فلا يحسبوا حرصه لنفع نفسه أو دفع ضر عنها حتى يتمطّوا ويشترطوا، وأنه ناصح لهم، ومبلغ ما في اتباعه خيرهم، والإعراض عنه ضُرُّهم.

والإتيان بالجملة الاسمية المنفية للدلالة على دوام انتفاء ذلك الحكم وثباته في سائر الأحوال، ومعنى الوكيل: الموكول إليه تحصيل الأمر، و(عليهم) بمعنى: على اهتدائهم، فدخل حرف الجر على الذات، والمراد بعض أحوالها بقرينة المقام"[3].

---

1 ــ الحجز : الدفع والحيلولة، أي لا أحد منكم يحجزنا عنه .

2 ــ ينظر التحرير والتنوير:147/29.

3 ــ التحرير والتنوير: 309/11.

ومثله قوله تعالى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) [الشورى:6] وفيه تسكين لحزن الرّسول (صلى الله عليه وسلم) من أجل عدم إيمانهم بوحدانية الله تعالى.

ومثله قوله تعالى: (...وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر:36]، والآية تفيد نفي جنس الهادي، إلا أن إفادة ذلك هنا بزيادة (من) تنصيصاً على نفي الجنس، وفي آية الأعراف: (مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الأعراف:186] ببناء هادي على الفتح بعد (لا) النافية للجنس، فإن بناء اسمها على الفتح مشعر بأن المراد نفي الجنس نصًّا، والاختلاف بين الأسلوبين تفنن في الكلام، وهو من مقاصد البلغاء.

و"تقديم (له) على (هَادٍ) للاهتمام بضميرهم في مقام نفي الهادي لهم، لأن ضلالهم المحكي هنا بالغ في الشناعة، إذا بلغ بهم حدَّ الطمع في تخويف النبي بأصنامهم في حال ظهور عدم اعتداده بأصنامهم... وإذْ بلغ بهم اعتقاد مقدرة أصنامهم مع الغفلة عن قدرة الرب الحَقّ، بخلاف آية الأعراف فإن فيها ذكر إعراضهم عن النظر في ملكوت السماوات والأرض، وهو ضلال دون ضلال التخويف من بأس أصنامهم"[1].

ومن ذلك قوله تعالى: (... وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ) [غافر:31]، والواو عاطفة، و(ما) نافية حجازية، و(لفظ الجلالة) اسمها، وجملة (يريد) خبرها، و(ظلما) مفعول به، و(للعباد) شبه جملة صفة لـــ (ظلما).

قال ابن عاشور: "وقد جمع قوله: (وما الله يريد ظلماً للعباد) نفي الظلم بمعنييه على طريقة استعمال المُشترك في معنييه: الأول: الشرك كما في قوله: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان:13]، والثاني: المعاملة بغير الحق، وكذلك فعل (يريد) يطلق بمعنى المشيئة كقوله: (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ..) [المائدة:6]، ويطلق بمعنى المحبة كقوله: (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ) [الذاريات:57]

فلما وقع فعل الإرادة في حيّز النفي اقتضى عموم نفي الإرادة بمعنييها، على طريقة استعمال المشترك في معنييه، فالله تعالى لا يحب صدور ظلم من عباده ولا يشاء أن يَظلِم عبادَه، وأول المعنيين في الإرادة وفي الظلم أعلق بمقام الإنذار، والمعنى الثاني تابع للأول، لأنه

1 ــ التحرير والتنوير:14/24.

يدل على أن الله تعالى لا يترك عقاب أهل الشرك لأنه عَدْل، لأن التوعد بالعقاب على الشرك والظلمِ أقوى الأسباب في إقلاع الناس عنه، وصدق الوعيد من متممات ذلك مع كونه مقتضى الحكمة لإقامة العدل"[1].

قال أبو حيان في تفسير الآية منبها على فائدة ارتباط نفي الظلم بفعل الإرادة: "أي: إن إهلاكه إياهم كان عدلاً منه، وفيه مبالغة في نفي الظلم، حيث علقه بالإرادة، فإذا نفاه عن الإرادة، كأن نفيه عن الوقوع أولى وأحرى"[2].

أما صاحب التحرير فقد استطرد في بيان فائدة تقديم لفظ الجلالة على الخبر الفعلي، بتقدير المعنيين الذين أوردهما للظلم، فقال: "وتقديم اسم (اللَّهُ) على الخبر الفعلي لإفادة قصر مدلول المسند على المسند إليه، وإذ كان المسند واقعاً في سياق النفي كان المعنى: قصر نفي إرادة الظلم على الله تعالى قصرَ قلب، أي: الله لا يريد ظلماً للعباد بل غيره يريدونه لهم، وهم قادة الشرك وأيمتُه إذ يدعونهم إليه، ويَزعمون أن الله أمرهم به، قال تعالى: (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ..) [الأعراف:28].

هذا على المعنى الأول للظلم، وأما على المعنى الثاني، فالمعنى: ما الله يريد أن يَظلم عبادَه ولكنهم يظلمون أنفسهم باتباع أيمتهم على غير بصيرة، كقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [يونس:44] ... ، فلم يَخْرُج تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في سياق النفي في هذه الآية عن مهيع استعماله في إفادة قصر المسند على المسند إليه فتأمله"[3].ا هـــ

ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) [فصلت:46]، و(ما) نافية حجازية، و(ربك) اسمها، و(بظلام) الباء حرف جر زائد، و(ظلام) مجرور لفظا منصوب محلّا على أنه خبر (ما)، و(للعبيد) متعلقان بـــ(ظلام).

و"المراد بنفي الظلم عن الله تعالى لعبيده: أنه لا يعاقب من ليس منهم بمجرم، لأن الله لما وضع للناس شرائع وبيّن الحسنات والسيئات، ووعد وأوعد فقد جعل ذلك قانوناً، فصار

1 ــ التحرير والتنوير:135/24.

2 ــالبحر المحيط: 444/7.

3 ــ التحرير والتنوير:135/24ــ135.

العدول عنه إلى عقاب من ليس بمجرم ظلماً، إذ الظلم هو الاعتداء على حق الغير في القوانين المتلقاة من الشرائع الإلهية أو القوانين الوضعية المستخرجة من العقول الحكيمة.

وأما صيغة (ظلام) المقتضية المبالغة في الظلم فهي معتبرة قبل دخول النفي على الجملة التي وقعت هي فيها، كأنه قيل: ليعذب الله المسيء وما له هو بظلاّم، وهذا معنى قول علماء المعاني: إن النفي إذا توجه إلى كلام مقيَّد قد يكون النفي نفياً للقيد، وقد يكون القَيد قيداً في النفي، ومثلوه بهذه الآية، وهذا استعمال دقيق في الكلام البليغ في نفي الوصف المصوغ بصيغة المبالغة، فمن تمام عدل الله تعالى أن جعل كل درجات الظلم في رتبة الظلم الشديد"[1].

فليس المعنى: ما أنا بشديد الظلم، كما قد يستفاد من توجُّه النفي إلى المقيّد، بل يفيد أن يتوجه إلى القيد لأن ذلك أغلبي، والأكثر في نفي أمثلة المبالغة أن يقصد بالمبالغة مبالغة النفي، قال طرفة:

ولستُ بحَلاَّل التِّلاع مخافةً ولكنْ متى يسْتَرفد القومُ أَرْفِدِ[2]

فإنه لا يريد نفي كثرة حلوله التلاع، وإنما أراد كثرة النفي.

وحاول الزمخشري أن يؤول النهي الظاهر دخوله على صيغة المبالغة، بأن يربط الصيغة بعدم استحقاق العقوبة: "فإن قلت: كيف قال بِظَلَّامٍ على لفظ المبالغة؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده، وظلام لعبيده، والثاني: أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاما مفرط الظلم، فنفى ذلك"[3].

ثمّ إن في عَدّ مثل صيغة المبالغة في عِداد القيود محل نظر، فإن المعتبر من القيود هو ما كان لفظاً زائداً على اللفظ المنفي، من صفة، أو حال، أو نحو ذلك.

والتعبير بالعبيد دون التعبير بالناس ونحوه، لزيادة تقرير معنى الظلم في نفوس الأمة، أي: لا أظلم ولو كان المظلوم عبدي، فإذا كان الله الذي خلق العباد قد جعل مؤاخذة من

---

1 ــ التحرير والتنوير: 319/24.

2 ــ شرح المعاقات السبع. ص:44. معلقة طرفة بن العبد والتي مطلعها:

لخولةَ أطلالٌ ببَــرقةِ ثَهــمدِ تلوح كباقي الوشْم في ظَاهر اليَدِ

وقوفا بها صحبي عليّ مطيُّهم يقــولون لا تهلك أســى وتجلَّدِ

3 ــ الكشاف: 388/4.

لم يسبق له تشريع ظلماً، فما بالك بمؤاخذة الناس بعضهم بعضاً بالتبعات دون أن يقدّم إليهم بالنهي من قبل، ولذلك يقال: لا عقوبة إلا على عمل فيه قانون سابق قبل فعله.

قال صاحب إعراب القرآن: "اعلم أن العرب نسبوا على غير المنهاج المعروف في النسبة، وذلك لأنهم لم يأتوا بياء النسبة، ولكنهم يبنون بناء يدل على نحو ما دلت عليه ياء النسبة، كقولهم لصاحب البتوت ــ وهي الأكسية، وواحدها بت: بتّات، ولصاحب الثياب: ثواب، ولصاحب البزّ: بزّاز ..وللصيرفي: صراف، وهو أكثر من أن يحصى، كالعطّار، والنقّاش ، وهذا النحو إنما يعملون فيما كان صنعة ومعالجة للتكثير، إذ صاحب الصنعة مداوم لصنعته، فجعل له البناء الدّال على التكثير، وهو: فعّال بتضعيف العين، لأن التضعيف للتكثير.

وما كان من هذا ذا شي ء، وليس بصنعة يعالجها، أتوا بها على صيغة (فاعل)، وذلك لأن فاعلا هو الأصل، وإنما يعدل عنه إلى (فعال) للمبالغة، فإذا لم ترد المبالغة جيء به على الأصل، لأنه ليس فيه تكثير، قالوا لذي الدرع: دارع، ولذي النبل: نابل، ولذي النشاب: ناشب، ...وإن كان شي ء من هذه الأشياء صنعة وما شاكلها يداومها صاحبها نسب على فعّال، فيقال لمن يبيع اللبن والتمر: لبّان وتمّار، ولمن يرمي بالنبل: نبال،...وهذا القبيل وإن كان كثيرا واسعا ليس بالقياس، بل هو مقتصر على السماع، فلا يقال لبائع البر: برار، ولا لصاحب الفاكهة: فكاه، وحمل عليه كثير من المحققين، كما قال ابن مالك: (و ما ربك بظلام للعبيد) أي: بذي ظلم، والذي حملهم على ذلك أن النفي منصبّ على المبالغة، فيثبت أصل الفعل، واللّه تعالى منزه عن ذلك"[1]. ا هـــ

ــ الجملة الاسمية المنفية بـــ (لات):

ومما تنفى به الجملة الاسمية (لات)، ويرى النحويون أن هذا الحرف مركب من (لا) النافية، وتاء تأنيث الكلمة، ومثلها ثمت وربت، وقيل دخلت للمبالغة في النفي، كما قالوا علاّمة ونسّابة، وذهب آخرون إلى أنها (لا) والتاء الزائدة في أول الحين، وقال آخرون هي فعل، وهؤلاء على قولين: أحدهما: أنها في الأصل لات يليت بمعنى نقص، والآخر: "أن أصلها ليس بكسر الياء فقلبت الياء ألفا لتحريكها وانفتاح ما قبلها وأبدلت السين تاء"2.

1 ــ إعراب القرآن وبيانه:8/7.

2 ــ ينظر شرح المفصّل: 109/1. و شرح الرضي على الكافية: 296/1. ينظر مغني اللبيب:398/3. وما بعدها

وأيًّا مَّا كان فقد صارت (لا) بلزوم زيادة التاء في آخرها حرفاً مستقلاً خاصاً بنفي أسماء الزمان، وما يتضمن معنى الزمان من إشارة ونحوها، ولعملها شرطان: كون معموليها اسمي زمان، وحذف أحدهما، والغالب في المحذوف هو الاسم، نحو قوله تعالى: (وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)) [ص:3] أي: ليس الحين حين فرار، ومن القليل قراءة بعضهم برفع الحين على أنه اسمها، وخبرها محذوف، أي: ليس حين فرار حينا لهم، وقرئ أيضا: (ولات حينِ مناص) بخفض حين، فزعم الفراء: أن لات تستعمل حرفا جارا لاسم الزمان خاصة، كما أن مذ ومنذ كذلك[1]، وقد جرى المتنبي على هذا القول بقوله:

لقد تَصبرت حتى لاتَ مصطبَرِ فالآن أقحم حتى لات مقتحمِ[2]

وذكر عن أبي عبيد القاسم بن سلام أن التاء في (ولاَتَ حينَ مناصٍ) متصلة بـــ(حِينَ)، وأنه رآها في مصحف عثمان متصلة بـــ(حين)، وزعم أن هذه التاء تدخل على: حين وأوان وآن، يريد أن التاء لاحقة لأول الاسم الذي بعد (لا)، ولكنه لم يفسر لدخولها معنى[3].

قال ابن عاشور: "وقد اعتذر الأئمة عن وقوع التاء متصلة بـــ(حين) في بعض نسخ المصحف الإمام، بأن رسم المصحف قد يخالف القياس، على أن ذلك لا يوجد في غير المصحف الذي رآه أبو عبيدة من المصاحف المعاصرة لذلك المصحف والمرسومة بعده. والمناص: النجاء والفوت، وهو مصدر ميمي، يقال: ناصه، إذا فاته.

والمعنى: فنادَوا مبتهلين في حال ليس وقت نجاء وفَوت، أي قد حق عليهم الهلاك كما قال تعالى: (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ...(٨٥)) [غافر:85]"[4].

ـــ الجملة الاسمية المنفية بـــ (لا):

ومن النفي بـــ (لا) قوله تعالى: (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) [يس:40] فإذا راعينا بنيتها التركيبية وجدناها

1 ـــ إعراب القرآن وبيانه: 437/6.

2 ـــ من قصيدة قالها في صباه أولها: ضيفٌ ألمَّ برأسي غيرَ مُحتشم السيفُ أحسن فعلا منه باللِّمَمِ. ص: 303.

3 ـــ ينظر مغني اللبيب: 398/3 وما بعدها.

4 ـــ التحرير والتنوير: 207/23ـــ208.

تتألف من الجملة المنفية الأولى، وهي: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ)، وفيها (لا) نافية، و(الشمس) مبتدأ، وجملة (ينبغي) خبر، و(لها) متعلقان بـــ (ينبغي)، و(أن) وما دخلت عليه فاعل (ينبغي)، و(القمر) مفعول، ومعنى إدراك الشمس للقمر الإخلال بالسير المقدر، والنظام المتبع، لئلا يختل تكوين الكون ونظامه.

والجملة المنفية الثانية: (وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ) وهي عطف على ما تقدم، و(الليل) مبتدأ، و(سابق) خبر، و(النهار) مضاف إليه.

وفي قوله: (لا الشِّمْسُ يَنبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ) خُصوصيتان:

الأولى: صيغة الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي لإفادة تقوّي حكم النفي، فذلك أبلغ في الانتفاء مما لو قيل: لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر.

والثانية: افتتاح الجملة بحرف النفي قبل ذكر الفعل المنفي، ليكون النفي متقرراً في ذهن السامع أقوى مما لو قيل: الشمسُ لا ينبغي لها أن تدرك القمر.

وفي التركيبين السابقين استعارة بديعة، فقد استعار الإدراك للشمس، والسبق لليل والنهار، ليبين ما هو مقرر في علم الجغرافيا من دورات الشمس والقمر، والأرض، وتكون الليل والنهار، وجعل الشمس غير مدركة، والقمر غير سابق، لأن الشمس ثابتة لا تدور إلا دورة لم تعرف مدتها حول شي ء مجهول لنا بالكلية، ولها أيضا دورة على محورها كالأرض تقطعها في خمسة وعشرين يوما، أما القمر فله حركتان: إحداهما حول محوره وثانيتهما حول الأرض، وكل منهما يتجه من المغرب إلى المشرق، ويقطع مداره حول الأرض في تسعة وعشرين يوما ونصف تقريبا، وهذا هو المسمى بالشهر القمري، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها، والقمر خليق بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره.

ولّما ذكر الشمس والقمر، وكانت الشمس مقارنة للنهار في مخيلات البشر، وكان القمر مقارناً لليل، وكان في نظام الليل والنهار منافع للناس اعترض بذكر نظام الشمس والقمر أثناء الاعتبار بنظام الليل والنهار.

ومن النفي بـــ(لا) قوله تعالى: (لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ) [الصافات:47]، وجملة (لا فِيها غَوْلٌ[1]) صفة لكأس باعتبار إطلاقه على الخمر.

1 ــ الغَول: ما يعتري شارب الخمر من الصداع والألم.

وتقديم الظرف المسند على المسند إليه لإفادة التخصيص، أي هو منتف عن خمر الجنة فقط دونَ ما يعرف من خمر الدنيا، فهو قصر قلب، ووقوع (غَوْلٌ) وهو نكرة بعد (لا) النافية أفاد انتفاء هذا الجنس من أصله، ووجب رفعه لوقوع الفصل بينه وبين حرف النفي بالخبر.

وجملة (ولا هم عنها يُترفون) معطوفة على جملة (لا فيها غَوْلٌ)، وقدّم المسند عليه على المسند، والمسند فعل ليفيد التقديم تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي، أي بخلاف شاربي الخمر من أهل الدنيا[1].

ومن النفي بـــ (لا) ما جاء في قوله تعالى: (يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)[الزخرف:68] والجملة مقول قول محذوف، أي: ويقال لهم، و(يا) حرف نداء، و(عباد) منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، مراعاة لخط المصحف، و(لا) نافية، و(خوف) مبتدأ، وساغ الابتداء به لأنه سبق بنفي، و(عليكم) خبر، و(اليوم) ظرف متعلق بمحذوف حال، و(لا) عطف على ما تقدم، و(أنتم) مبتدأ، و(تحزنون) جملة فعلية في محل رفع خبر.

قال ابن عاشور مبررا الرفع في (خوف): "و(لا خوف) مرفوع منون في جميع القراءات المشهورة، وإنما لم يفتح، لأن الفتح على تضمين (مِن) الزائدة المؤكدة للعموم، وإذ قد كان التأكيد مفيداً التنصيص على عدم إرادة نفي الواحد، وكان المقام غير مقام التردد في نفي جنس الخوف عنهم، لأنه لم يكن واقعاً بهم حينئذٍ مع وقوعه على غيرهم، فأمارة نجاتهم منه واضحة، لم يحتج إلى نصب اسم (لا) ، ونظيره قول الرابعة من نساء حديث أمّ زرع: (زوجِي كَلَيْل تِهامهْ، لا حَرٌّ ولا قُرٌّ ولا مخافةٌ ولا سآمهْ). روايته برفع الأسماء الأربعة، لأن انتفاء تلك الأحوال عن ليل تهامة مشهور، وإنما أرادت بيان وجوه الشبه من قولها كليلِ تهامة"[2].

وجيء في قوله: (ولا أنتم تحزنون) بالمسند إليه مخبراً عنه بالمسند الفِعلي لإفادة التقويّ في نفي الحزن عنهم، فالتقوي أفاد تقوّي النفي لا نفي قوة حزن الصادق بحزن غير قوي، هذا هو طريق الاستعمال في نفي صيغ المبالغة كما في قوله تعالى: (وما ربّك بظلامٍ للعبيد)

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 23 /113ــ114.

2 ــ التحرير والتنوير: 253/25.

[فصلت:46]، تطميناً لأنفسهم بانتفاء الحزن عنهم في أزمنة المستقبل، إذ قد يهجس بخواطرهم هل يدوم لهم الأمْن الذي هم فيه.

ـ الجملة الاسمية المنفية بـــ (ليس):

ومن النفي بـــ (ليس) قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) [الشورى:11] و(ليس) فعل ماض ناقص، والكاف زائدة، و(مثله) مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر (ليس)، و(شي ء) اسمها، و(هو) مبتدأ، و(السميع البصير) خبران لـــ (هو).

ومعنى (ليس كمثله شيء) ليس مثلَه شيء، فأقحمت كاف التشبيه على (مِثل) وهي بمعناهُ، لأن معنى المِثْل هو الشبيه، فتعيّن أن الكاف مفيدة تأكيداً لمعنى المِثل، وهو من التأكيد اللّفظي باللّفظ المرادف من غير جنسه.

وإذ قد كان المثل واقعاً في حيّز النفي، فالكاف تأكيد لنفيه، فكأنَّه نُفِي المثلُ عنه تعالى بجملتين تعليماً للمسلمين كيف يُبطلون مماثلة الأصنام لله تعالى.

قال الزمخشري في تفسير الآية السابقة: "تقول العرب: مثلك لا يبخل، فينفون البخل عن مثله، والمراد نفسه، ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم، ومنه قولهم: قد أيفعت لداته، وبلغت أترابه، وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته، تريد طهارته وطيبه، فإذا علم أنه من باب الكناية: لم يكن فرق بين قولك: ليس كاللّه شيء، وبين قوله: (ليس كمثله شيء)، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها، ونحوه قوله تعالى: (بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ) فإن معناه: بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط، لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون بها شيئا آخر، حتى أنهم يستعملونها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل، وفيمن لا مثل له"[1].

ثمّ أورد وجها ثانيا في دخول كاف التشبيه على مثل، فقال: "ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد، كما كررت في قول من قال: وصاليات ككما يؤثفين[2].

---

1 ــ الكشاف: 212/4ــ213.

2 ــ وقبل هذا العجز: لم يبق من آي بها يحلين غير رماد وعظام كثفين

وغير ود جادل أو ودين وصاليات ككما يؤثفين

لخطام المجاشعي. يقول: لم يبق من آثار هذه الديار علامات فيها تذكر صفتها غير رماد وعظام متكاثفين متراكمين.... ولم يبق غير وتد منتصب بها أو وتدين لا غير، حيث لم يشك إلا في ذلك. والصاليات صفة للأثافي. وقيل : صفة للنساء الموقدات للنار.... وعليه فالمعنى : ونساء صاليات كالأحجار تثفى وتوضع للقدر، وما موصولة واقعة على الأحجار لا مصدرية ولا

ومن قال: فأصبحت مثل كعصف مأكول"[1].اهـ

و قال ابن هشام الأنصاري في المغني: "قال الأكثرون: التقدير: ليس شي ء مثله، إذ لو لم تقدّر زائدة صار المعنى ليس شي ء مثل مثله، فيلزم المحال، وهو إثبات المثل، وإنما زيدت لتوكيد نفي المثل، لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة ثانيا، قاله ابن جنّي، ولأنهم إذا بالغوا في نفي الفعل عن أحد قالوا: مثلك لا يفعل كذا، ..."[2].

وقد رُدَّ عليه هذا الوجه، بـــأن هذا مردود لما فيه من الإخلال بالمعنى، وذلك أن الذي يليق هنا تأكيد نفى المماثلة، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة، وفرق بين تأكيد المماثلة المنفية، وبين تأكيد نفي المماثلة، فإن نفي المماثلة المهملة عن التأكيد أبلغ وآكد في المعنى من نفى المماثلة المقترنة بالتأكيد، إذ يلزم من نفي المماثلة غير المؤكدة نفي كل مماثلة، ولا يلزم من نفي مماثلة محققة متأكدة بالغة نفي مماثلة دونها في التحقيق والتأكيد، وحيث وردت الكاف مؤكدة لمماثلة وردت في الإثبات فأكدته، فليس النظر في الآية بهذين النظرين مستقيما، ومما يرشد إلى صحة ذلك أن للقائل أن يقول: ليس زيد شبيها بعمرو، لكن مشبها له، ولو عكس هذا لم يكن صحيحا، وما ذاك إلا أنه يلزم من نفى أدنى المشابهة نفى أعلاها، ولا يلزم من نفى أعلاها نفى أدناها، فمتى أكد التشبيه قصر عن المبالغة، والوجه الأول الذي ذكره هو الوجه في الآية عنده.

وهذا الرأي أيّده علامة تونس ابن عاشور بقوله تعليقا على ما ذكره الزمخشري: "وتبعه على ذلك ابن المنير في (الانتصاف)، وبعض العلماء يقول: هو كقولك: ليس لأخي زيد أخ، تريد نفي أن يكون لزيد أخ، لأنه لو كان لزيد أخ لكان زيد أخا لأخيه، فلما نَفَيتَ أن يكون لأخيه أخ فقد نَفيتَ أن يكون لزيد أخ، ولا ينبغي التعويل على هذا لما في ذلك من التكلّف والإبهام، وكلاهما مما ينبو عنه المقام"[3].

كافة، وكرر كاف التشبيه للتوكيد، لكن الثانية اسم بمعنى مثل، لأن حرف الجر لا يدخل على مثله. ويمكن أنه كرر الحرف من غير إعادة المجرور شذوذا. ويروى بعد قوله وصاليات ...الخ

لا يشتكين عملا ما أنقين ما دام مخ في سلامى أو عين

وهو يناسب القول بأنها صفة للنساء أو الخيل على التشبيه السابق. والانقاء : كثرة النقي بالكسر وهو المخ.

1 ــ الكشاف: 213/4.

2 ــ مغني اللبيب: 19/3.

3 ــ التحرير والتنوير:46/25ــ47.

فالآية نفت أن يكون شيء من الموجودات مماثلاً لله تعالى في صفات ذاته، لأن ذات الله تعالى لا يماثلها ذواتُ المخلوقات، ويلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات في محسوس ذواتها فهو منتف عن ذات الله تعالى، وبذلك كانت هذه الآية أصلاً في تنزيه الله تعالى عن الجوارح والحواسّ والأعضاء عند أهل التأويل، والذين أثبتوا لله تعالى ما ورد في القرآن مما نسميه بالمتشابه، فإنما أثبتوه مع التنزيه عن ظاهره، إذ لا خلاف في إعمال قوله: (ليس كمثله شيء) وأنه لا شبيه له ولا نظير له.

وفي هذا رأينا الجملة الاسمية المنفية تأخذ أنماطا متنوعة، وتتفنن في إبلاغ الأمر المنفي حسب السياق، فاستعمل فيها فعل الكون المنفي لقصد المبالغة في النفي أو توكيده، أو الإيهام والتهويل، وجاء النفي بـ (ما) و(لا) للدلالة على دوام الحكم وثباته، ولنفي الجنس، و(لات) في موضع واحد مشهور، وبأفضل ما يمكن أن يُتصور من الأساليب.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

الجـــــملة الفـــــعلية

المبحث الأوّل: الجملة الفعلية المثبتة

المبحث الثاني: الجملة الفعلية المنفية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ــ الجملة الفعلية:

1ــ الجملة الفعلية المثبتة:

إن الجملة الفعلية هي التي يكون المسند فيها فعلا يسند فيها إلى فاعل إن كان مبنيا للمعلوم، وإلى نائب فاعل إذا كان مبنيا للمجهول، و الفعل هو أساس البنية في هذه الجملة، فهي إذا موضوعة لبيان علاقة الإسناد مع دلالة زمنية على حدث في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، و تشير إلى تجدد سابق أو حاضر، كما تشير إلى استمرار دون تجدد[1].

و الجملة المثبتة هي التي "تحتفظ بصيغة (فعل) و(يفعل) بزمنهما الذي أعطاه إياهما النظام الصرفي، فيظل (فعل) ماضيا، و يظل (يفعل) حالا أو استقبالا بحسب ما يضامّه من الأدوات، كالسين و سوف، ثم بحسب ما يعرض للزمن في هاتين الصيغتين من المعاني التي تفصح عنها اصطلاحات البعد و القرب، والانقطاع و الاتصال، و التجدد و الانتهاء، والاستمرار و العادة، و البساطة، أي: الخلو من معنى الجهة"[2].

وقد وردت هذه الجملة بأنماط متعددة، إلا أنني ارتأيت تقسيمها وفق نوعية الفعل من تعدية ولزوم، فأتى منها:

الجملة الفعلية ذات الفعل اللازم:

و هي التي يكتفي فيها الفعل بفاعله[3]، قال سيبويه: "فأما الفاعل الذي لا يتعدّاه فعله فقولك: ذهب زيدٌ وجلس عمر"[4].

وقد أتى ذلك في آيات كثيرة، ومن الجمل الفعلية ذات الفعل اللازم قوله تعالى: (وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [الزخرف:85] وقد صيغ فعلها (تبارك) لإنشاء المدح.

وتتركب بنيتها من الواو العاطفة، و(تبارك) فعل ماض، و(الذي) فاعله، و(له) خبر مقدم، و(ملك السموات) مبتدأ مؤخر، والجملة صلة، وما عطف على السموات والأرض والظرف متعلق بمحذوف هو الصلة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- ينظر الكليات للكفوي : 153/2.

2 ــ اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1989م. ص:245.

3 - الأصول ابن السراج: 81/1.

4 ــ الكتاب. سيبويه. ط الخانجي ــ33/1.

فـــ (تبارك) خبر مستعمل في إنشاء المدح، لأن معنى (تبارك) كان متصفاً بالبَركة اتصافاً قوياً، لما يدل عليه صيغة تفَاعَل من قوة حصول المشتق منه، لأن أصلها أن تدل على صدور فعل من فاعلين، مثل: تقاتل وتمارى، فاستعملت في مجرد تكرر الفعل، وذلك مثل: تسامى وتعالى.

ثم إنّ صيغة (تبارك) تدل على أن البركة ذاتية لله تعالى، فيقتضي استغناءه عن الزيادة باتخَاذ الولد واتخاذ الشريك، فبهذا الاعتبار كانت هذه الجملة استدلالاً آخر تابعاً لدليل قوله: (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) [الزخرف:82].

ومن الأفعال اللازمة الواردة في الربع الأخير من القرآن الكريم الفعل (آمن) بصيغه المختلفة في الماضي والمضارع، مسندا إلى المفرد أو إلى الجمع، استتر فاعله أم ظهر، سواء كان فاعله اسما ظاهر أم مضمرا، وذلك كقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) [غافر:30]، وفي الآية الواو عاطفة، و(قال الذي آمن) فعل ماض، وفاعل، وجملة (آمن) صلة، و(آمن) فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر تقديره: (هو) عائد إلى الاسم الموصول.

ومثله قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) [غافر:38]

ومن ذلك الفعل (جاء) في قوله تعالى: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) [يس:20] فالواو استئنافية، و(جاء) فعل ماض، و(من أقصى المدينة[1]) جار ومجرور متعلقان بـــ (جاء)، و(رجل) فاعل، وجملة (يسعى) صفة.

جاء في التحرير: "وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة، لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها، وأحبار اليهود، وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها، لتعلقهم بهم، وخشيتهم بأسهم، بخلاف سكان أطراف المدينة، فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر، وقلة اكتراث بالآخرين، لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم، لقربهم من البدو، وبهذا يظهر وجه تقديم (مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ) على (رَجُلٌ) للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن

1 ـــ المدينة هي انطاكية. والرجل هو حبيب النجار

الإيمان يسبق إليه الضعفاء، لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة، إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة.

وأما قوله تعالى في سورة القصص: (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى) [القصص:20] فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم، إذ كان ذلك الرجل ناصحاً، ولم يكن داعياً للإيمان"[1].

ومن غريب أسرار القرآن الكريم ما جاء عليه تركيب الجملة الفعلية في قوله تعالى في سورة الحديد: (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) [الحديد:12]، فـــ(يسعى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر، و(نورهم) فاعل يسعى، و(الظرف) متعلق بـــ (يسعى).

ثم جاء في سورة التحريم بتقديم الاسم على الفعل: (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى) [التحريم:8]، فقدم الفعل في الأولى وأخر في الثانية.

ووجه ذلك أن قوله في سورة التحريم (الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) يفهم من حيث المعية قرب المنزلة وعلو الحال فتقدم ثبوته، فناسب ذلك ورود الجملة الاسمية هنا لما تقتضيه من الثبات وتقدمه واستحكامه، أما قوله في سورة الحديد: (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) فبشارة للمؤمنين، ولم يأت هنا كونهم مع نبيهم، فلم يتحصل مما يفهم تمكن المنزلة وثبوتها ما تحصل في آية التحريم، إنما هذه بشارة، فناسبها التجدد والحدوث، فناسب ذلك الفعل بما يعطيه من المعنى، فقيل (يسعى نورهم بين أيديهم) ليفهم التكرر، وحدوث الشئ بعد الشئ، فورد كل على ما يجب ويناسب.

ومن ذلك الفعل (صَلِيَ) في قوله تعالى: (وَيَصْلَى سَعِيرًا) [الانشقاق:12]، و"(يصلى) قرأه نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي، بتشديد اللام مضاعف صلاهُ إذا أحرقَه، وقرأه أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف (ويصلى) بفتح التحتية، وتخفيف اللام، مضارع صَلِي اللازم، إذا مسته النار، كقوله: (يصْلَوْنَها يوم الدين) [الانفطار:15]، وانتصب (سعيراً) على نزع الخافض بتقدير يُصلَّى بسعير، وهذا الوجه هو

1 ــ التحرير والتنوير:22/365ــ366.

الذي يطرد في جميع المواضع التي جاء فيها لفظ النار ونحوه منصوباً بعد الأفعال المشتقة من الصلي والتصلية"[1].

ومن ذلك تنزيل الفعل (خَشِيَ) منزلة اللازم في قوله تعالى: (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى) [الأعلى:10] وقد نُزِّل فعل (يخشى) منزلة اللازم فلم يقدّر له مفعول، أي: يتذكر، من الخَشْيَة فكرته وجبلته، أي: من يتَوقع حصول الضر والنفع فينظر في مظان كلٍ منها، ويتدبر في الدلائل لأنه يخشى أن يحق عليه ما أنذر به.

وممّا نزّل منزلة اللازم ما جاء من الأفعال في قوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣)وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) [النجم:43ــ44] فـ"إسناد الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى لأنه خالق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان، وذلك خلق عجيب، ولأنه خالق طبائع الموجودات التي تجلب أسباب الضحك والبكاء من سرور وحزن، ولم يذكر مفعول (أضحك وأبكى)، لأن القصد إلى الفعلين لا إلى مفعوليهما، فالفعلان منزلان منزلة اللازم، أي: أوجد الضحك والبكاء"[2].

والجملة الكبرى مركبة من: (أن)، واسمها، و(هو) مبتدأ، وجملة (أضحك) خبر، والجملة خبر (أن)، ويمكن إعراب (هو) تأكيدا لاسم (أن)، أو ضمير فصل، وجملة (أضحك) خبر (أن).

والأمر نفسه مع (أمات وأحيا) فهما منزلان منزلة اللازم إظهاراً لبديع القدرة على هذا الصنع الحكيم.

ومن ذلك تنزيل الفعل (عَلِم) منزلة اللازم في قوله: (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) [الواقعة:76]، ففعل (تعلمون) منزّلاً منزلة اللازم، أي: لو كان لكم علم لكنكم لا تتصفون بالعلم.

ومثله الفعل (عَلِم) في قوله تعالى: (...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ (٩) [الزمر:9] فـ (هل) حرف استفهام معناه الإنكار، و(يستوي الذين) فعل مضارع وفاعل، وجملة (يعلمون) صلة، و(الذين لا يعلمون) عطف على (الذين يعلمون).

1 ــ التحرير والتنوير:224/30.

2 ــ التحرير والتنوير: 143/27.

جاء في إعراب القرآن وبيانه: "في هذه الآية تنزيل المتعدي منزلة القاصر، ولا يقدر المفعول في (قوله يعلمون) لأن المقدر كالموجود، أي: هل يستوي من ثبتت له حقيقة العلم ومن لم تثبت له، والاستفهام إنكاري، أي: لا يستويان، لأن المقصود بيان ثبوت الفعل للفاعل، لا بيان وقوعه على المفعول، وإيضاح الفرق بين المنزل وغيره، أن قولك: فلان يعطي، لبيان كونه معطيا، فيكون كلاما مع من جهل أصل الإعطاء، وقولك: فلان يعطي الدنانير، لبيان جنس ما يتناوله الإعطاء، لا لبيان كونه معطيا، ويكون كلاما مع من ثبت له أصل الإعطاء، لا مع من جهل إعطاء"[1].

ففعل (يَعْلَمُونَ) في الموضعين منزّل منزلة اللازم، فلم يذكر له مفعول، فالمقصود الذين اتصفوا بصفة العلم، وليس المقصود الذين علموا شيئاً معيّناً حتى يكون من حذف المفعولين اختصاراً، إذ ليس المعنى عليه، وقد دل على أن المراد الذين اتصفوا بصفة العلم قوله عقبه: (إنما يتذكر أولوا الألباب)أي: أهل العقول، والعقل والعلم مترادفان، فلا يستوي الذين لهم علم، فهم يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه، وتجري أعمالهم على حسب علمهم، مع الذين لا يعلمون فلا يدركون الأشياء على ما هي عليه، بل تختلط عليهم الحقائق وتجري أعمالهم على غير انتظام.

والأمر نفسه مع الفعل (فقه) في قوله تعالى: (...فهم لا يَفْقَهُونَ) [المنافقون:4]، وقوله تعالى: وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ) [المنافقون:7] فقد نُزل الفعل منزلة اللازم مبالغة في انتفاء فقه الأشياء عن المنافقين في كل حال.

ومن ذلك الفعل (قام) في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا (٢) [المزمل:1ــ2] فــ (يا) حرف نداء، وأيها منادى مبني على الضم، لأنه نكرة مقصودة، والهاء للتنبيه، و(المزمل) بدل أو صفة، و(قم) فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره أنت، و(الليل) ظرف لــ (قم)، و(إلا) أداة استثناء، و(قليلا) مستثنى من الليل، وفعل (قم) مُنزل منزلة اللازم، لأن القيام مراد به الصلاة.

وفي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) [المدثر:1ــ2]فــ (قم) فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت، (فأنذر) عطف على (قم). و"القيام المأمور به ليس مستعملاً في

1 ــ إعراب القرآن وبيانه: 497/6.

حقيقته، لأن النبي لم يكن حين أوحي إليه بهذا نائماً ولا مضطجعاً، ولا هو مأمور بأن ينهض على قدميه، وإنما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإقبال والتهمُّم بالإنذار مجازاً أو كناية.

وشاع هذا الاستعمال في فعل القيام حتى صار معنى الشروع في العمل من معاني مادة القيام، مساوياً للحقيقة، وجاء بهذا المعنى في كثير من كلامهم، وعدّ ابن مالك في (التسهيل) فعل (قام) من أفعال الشروع، فاستعمال فعل القيام في معنى الشروع قد يَكون كناية عن لازم القيام من العزم والتهمم، كما في الآية"[1].

ففعل (قم) منزَّل منزلة اللازم، وتفريع (فأنذر) عليه يبين المراد من الأمر بالقيام، والمعنى: يا أيها المدثر من الرعب لرؤية مَلَك الوحي لا تخف وأقبل على الإنذار.

ومن ذلك الفعل (رأيت) في قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) [الإنسان:20] وفعل (رأيتَ) الأول منزل منزلة اللازم، إذ يدل على حصول الرؤية فقط، لا تعلُّقِها بمرئي، أي: إذا وجهت نظرك، و (رأيتَ) الثاني جواب (إذا).

وفيها الواو عاطفة، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط، وجملة (رأيت) في محل جر بإضافة الظرف إليه، و(رأيت) فعل، وفاعل، وليس له مفعول ظاهر ولا مقدّر، لإشاعة الرؤية وتعميمها، و(ثمَّ) ظرف مكان مختص، وجملة (رأيت) لا محل لها، لأنها جواب شرط غير جازم، و(نعيما) مفعول (رأيت) الثانية، و(ملكا كبيرا) عطف على (نعيما).

وكذلك الفعل (شاء) في قوله تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) [المدثر:30]، فيمكن أن يكون فعلا (تشاءون) و (يشاء الله) منزلين منزلة اللازم، فلا يقدر لهما مفعولان على طريقة قول البحْتري :

أنْ يَرَى مُبْصِرٍ وَيَسْمَع وَاعٍ[2]

---

1 ــ التحرير والتنوير: 294/29.

2 ــ هذا عجز بيت من قصيدة يمدح فيها المعتزّ بالله، وصدر البيت: شَجوُ حُسّاده، وغيظُ عِداه. وقبل البيت قوله:

من جَهيرِ الخِطابِ يُضعِفُ فَضلاً عند حَالَيْ تأمُّلٍ واستِماعِ. ديوان البحتري. عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي. دار المعارف. القاهرة. مصر. الطبعة الثالثة. (دت) ص: 1244/2.

الجملة الفعلية ذات الفعل المتعدي:

يقول سيبويه عن الفعل المتعدي: "وذلك قولك : ضرب عبد الله زيـــدا، فعبـــد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب، و شغلت (ضرب) به كما شغلت به (ذهب)، فانتـــصب زيد، لأنه مفعول تعدى إليه فعل الفاعل"[1].

وقال الجرجاني: "كما أنك إذا قلت (ضرب زيد) فأسندت الفعل إلى الفاعل، كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلا له، لا أن تفيد وجوب الضرب في نفسه وعلى الإطلاق، كذلك إذا عدّيت الفعل إلى مفعول، فقلت: (ضرب زيدٌ عمرا)، كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني، ووقوعه عليه، فقد اجتمع الفاعل و المفعول في أن عمل الفعل فيهما، إنما كان من أجل أن يُعلم التباس المعنى الذي اشتق منه بهما، فعمل الرفع في الفاعل، ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه منه، و النصب في المفعول، ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه، و لم يكن ذلك ليعلم وقوع الضرب في نفسه"[2].

ومنه قوله تعالى: وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا (١٩)وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) [الفجر]

والجملة مركبة من فعل، وفاعل، ومفعول به ظاهر الذي هو (التراث)، و"(التراث): المال الموروث، أي الذي يُخلفه الرجل بعد موته لوارثه، وأصله: وُرَاث بواو في أوله بوزن فُعال، من مادة وَرث، بمعنى مفعول مثل الدُّقاق، والحُطام، أبدلت واوه تاء على غير قياس كما فعلوا في تُجاه، وتُخَمة، وتُهْمة، وتُقَاةٍ، وأشباهها"[3].

وعلى بساطة هذا التركيب فقد تضمن استعارة جلبتها دلالة كلماته، فاستعير الأكل للانتفاع بالشيء انتفاعاً لا يُبقي منه شيئاً، وهذه الاستعارة من مبتكرات القرآن.

وعرّف التراث بـــ (ال) عوضا عن المضاف إليه، أي تراث اليتامى، وكذلك كان أهل الجاهلية يمنعون النساء والصبيان من أموال مورثيهم.

1 ــ الكتاب. سيبويه. ط الخانجي ــ1/ 34 .

2 ــ دلائل الإعجاز. ط الخانجي. ص:153

3 ــ التحرير والتنوير:334/30.

وأشعر قوله: (تأكلون) بأن المراد التراث الذي لا حق لهم فيه، ومنه يظهر وجه إيثار لفظ التُراث دون أن يقال: وتأكلون المال، لأن التراث مال ماتَ صاحبه، وأكْلُه يقتضي أن يستحق ذلك المال عاجز عن الذب عن ماله لصغرٍ أو أنوثة[1].

قال تعالى: (دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) [محمد:10]

فـــ"فعل (دمَّر) متعد إلى المدمَّر بنفسه، يقال: دمرهم الله، وإنما عدي في الآية بحرف الاستعلاء للمبالغة في قوة التدمير، فحذف مفعول (دمر) لقصد العموم، ثم جعل التدمير واقعاً عليهم، فأفاد معنى (دمّر) كل ما يختصُّ بهم، وهو المفعول المحذوف، وأن التدمير واقع عليهم، فهم من مشموله"[2].

وجملة (دمر الله عليهم) استئناف بياني، وهذا تعريض بالتهديد.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) [محمد:16]

أي: يستمعون باهتمام، يظهرون أنهم حريصون على وَعي ما يقوله الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأنهم يُلقون إليه بالهم، وهذا من استعمال الفعل في معنى إظهاره لا في معنى حصوله.

و"حق فعل استمع أن يعدّى إلى المفعول بنفسه، كما في قوله: (يستمعون القرآن) [الأحقاف:29] فإذا أريد تعلقه بالشخص المَسموع منه يقال: استمع إلى فلان، كما قال هنا: (ومنهم من يستمع إليك)، وكذا جاء في مواقعه كلها من القرآن"[3].

ومن ذلك قوله تعالى: (... ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) [محمد:4] فـــ (ذلك) خبر لمبتدأ، والواو استئنافية، و(لو) شرطية، و(يشاء اللّه) فعل مضارع، وفاعل، واللام واقعة في جواب (لو)، وانتصر فعل ماض، وفاعل مستتر تقديره: هو، أي: اللّه تعالى، و"تعدية (انتصر) بحرف (من) مع أن حقه أن يعدّى بحرف (على) لتضمينه معنى:انتقم، والاستدراك راجع

1 ـــ ينظر التحرير والتنوير:334/30.

2 ـــ التحرير والتنوير: 88/26

3 ـــ التحرير والتنوير:99/26.

إلى ما في معنى المشيئة، من احتمال أن يكون الله ترك الانتقام منهم لسبب غير ما بعدَ الاستدراك"[1].

ومن ذلك الفعل (أتى) في قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ....) [غافر:22]، وأفاد المضارع في قوله: (تأتيهم) تجدد الإتيان مرة بعد مرة لمجموع تلك الأمم، أي: يأتي لكل أمة منهم رسول، فجمع الضمير في (تأتيهم)، وجمع الرسل في قوله: (رسلهم) من مقابلة الجمع بالجمع ، والمعنى: أن كل أمة منهم أتاها رسول، و لم يؤت بالمضارع في قوله: (فكفروا) لأن كفر أولئك الأمم واحد، وهو الإشراك وتكذيب الرسل.

ومن ذلك الفعل (سبّح) في قوله تعالى في سورة الحديد: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحديد:1]. فـــ (سبّح) فعل ماض مبني على الفتح، و(للّه) جار ومجرور متعلقان بـــ (سبّح)، وقيل اللام زائدة في المفعول، وهذا الفعل قد يتعدى بنفسه تارة، وباللام تارة أخرى، وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة، وفي بعضها مضارعا، وفي بعضها أمرا، للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبّحة في كل الأوقات، و(ما) فاعل (سبّح)، و(في السموات) جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول، و(الأرض) عطف على (السموات)، وعبّر بـــ (ما) دون (من) تغليبا للأكثر.

وقال في سورة الحشر: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [الحشر:1]

وقال في سورة الصف: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [الصف:1]

وقال في سورة الجمعة: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [الجمعة:1]

وقال في سورة التغابن: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [التغابن:1]

فاختصت فاتحة سورة الحديد بقوله (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) دون إعادة (ما)، وقد أعيدت في فواتح السور الأخر، وذلك أنه لما كان هذا الكلام مسوقا إلى معان ثلاث، جمعت في كل واحدة منها السموات والأرض في عقدة واحدة، جمع المخلوق فيها تحت لفظة واحدة، فكان معنى قوله: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ): سبح للّه الخلق في المكانين، فلفظة (ما) في هذا المكان عامة شاملة للخلق فيهما، فإذا أعيدت (ما) في قوله:

1 ــ التحرير والتنوير: 83/26.

(مَا فِي الْأَرْضِ) كانت الأولى خاصة للخلق في السموات دون الأرض، والمعان الثلاث التي جمعت السموات والأرض في كل واحدة منها في عقدة واحدة، قوله: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) [الحديد:2]، وقوله بعده: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) [الحديد:4]، وقوله بعده: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) [الحديد:5].

فلما كان افتتاح السورة، ينتهي إلى هذه الآيات بعدها، وهي تنظم المكانين نظما واحدا، اختير أن يجعل الخلق فيهما خلقا واحدا، فلا يفصل بينهما بخلقهما، والقصد جمعهما في نظام واحد، ولم يكن هذا المعنى موجودا في سائر السور، فكان الفصل فيه أولى بإعادة (ما)، والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر سورة الحشر: (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحشر:24]، لأن قبله: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) [الحشر:24]، فنظم تحت هذه الصفات مخلوقات السماء والأرض، وكذلك قبله: (المَلِكُ القُدُّوسُ) [الحشر:23]، وكذلك نظم المخلوق في المكانين فيما يكون من تسبيحهم وتقديسهم على الأول الذي هو الأصل.

ثم إن الفعل (سبّح) أتى في سورة الحديد وسورة الحشر وسورة الصف: (سبّح) بلفظ الماضي، وفي سورة الجمعة والتغابن (يسبح) بلفظ المضارع، وذلك أن لفظ الماضي في (سبح)، ولفظ المضارع في (يسبح) يدلان على الاستمرار والدوام، ولا تدل إحدى العبارتين على ذلك إلا بالتأويل والتقدير، فكان الجمع بين ما يدل على ذلك أولى، وإنما تقدم الماضي لثبات رتبته وجوداً قبل المضارع، ثم اتبع بما يقتضي الاستمرار، وكان ورود أكثرها على التعبير بالماضي، لأنه أوضح في استحكام الثبات وامتداده، فورد هذا كله على أنسب وجه.

وقد يتكرر فاعل الفعل المتعدي في موضع دون موضع لسر بلاغي، كما في قوله تعالى في سورة التغابن: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [التغابن:1]، وقال تعالى بعد: (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) [التغابن:4] فتكررت (ما) في أول السورة وتركت في الآية بعدها.

والفائدة التي تحصل من ذلك، أن الآيتين معاً قصد بهما الاستيفاء والإحاطة بكل المسبحين، وبما أحاط به علمه سبحانه، وقد اقترن بالآية الثانية واتصل بها قوله سبحانه:

(ويعلم ما تسرون وما تعلنون) فحصل من ذلك إحاطة علمه سبحانه بما ظهر وما بطن، وما اشتملت عليه السماوات والأرض، فلما اقترن بهذه الآية ما يعطي إحاطة علمه سبحانه بجزئيات (ما) في الجملة، وأنه لا يغيب عنه شيء لم يحتج في قوله: (يعلم ما في السموات والأرض) إلى إعادة (ما)، لأن ذلك يكون كالتكرار الذي لا يحرز معنى.

وأما الآية الأولى فلم يقترن بها ما يعطي الإحاطة ملفوظاً به، مع أنه قد قصدت الإحاطة، فلم يكن بد من إعادة – ما – استئناف إحصاء وتأكيد، فلا يلائم كلا من الموضعين إلا ما ورد فيه.

ومن صور الفعل المتعدي أن يتعدى الفعل للمفعول الظاهر ويتجاوز المفعول المضمر لقصد الانحراف بالدلالة لغير الظاهر، من ذلك قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) [محمد:23].

إذ "استعير الصمم لعدم الانتفاع بالمسموعات من آيات القرآن ومواعظ النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما استعير العمَى هنا لعدم الفهم على طريقة التمثيل، لأن حال الأعمى أن يكون مضطرباً فيما يحيط به، لا يدري نافعه من ضارّه إلا بمعونة من يرشده، وكَثر أن يقال: أعمى الله بصره، مراداً به أنه لم يهده، وهذه هي النكتة في مجيء تركيب (وأعمى أبصارهم) مخالفاً لتركيب (فأصمهم) إذ لم يقل: وأعماهم"[1].

وقد يتعدى الفعل في سياق بحرف ثم في سياق آخر بحرف أخر، وإن ظهر أن بنية الجملة هي نفسها، كما جاء في سورة الزمر في قوله عز وجل: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) [الزمر:2].

وقال بعدها في هذه السورة أيضا: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) [الزمر:41].

فخصّ تعدية الفعل (أنزل) بـــ (إلى) في قوله (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)، وبـــ (على) في قوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ).

وذلك أنّ "على" تتضمن معنى "فوق"، وأن يكون الوحي جاء النبي (صلى الله عليه وسلم) من تلك الجهة، وأن "إلى" للنهاية، فلا تختص بجهة دون جهة، ولذلك كان أكثر

1 ــ التحرير والتنوير: 113/26.

المواضع التي ذكر فيها إنزال القرآن على النبيّ – صلى الله عليه وسلم – عدّي الفعل فيها بـــ "على"، كقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) [الكهف:1]، وكقوله: (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...)[النحل:2]، وقوله: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194)[الشعراء] ،وقوله: (... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)[النحل:89].

وأكثر ما ذكر إنزاله على الناس جاء معدّى بـــ "إلى"، كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) [النساء:174]، وكلّ موضع قيل فيه: (أنزلنا إليك) فقد شدد التكليف عليه، ونزل مترلة أمته فيما يجب على عالمهم تبيينُه لمتعلّمهم، كقوله تعالى في أول هذه السورة: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) [الزمر:2]، فقد أمر النبي (صلى الله عليه وسلّم) بإخلاص العبادة، والمراد هو وأمته، وكقوله: (.. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[النحل:44].

وكان المراد في المواضع التي استعملت فيها "إلى" أنه تناهى إلى حيث لا متعدّى وراءه، وكل موضع عدّي فيه الإنزال بـــ"على" فإن المراد به أنه شرّفك وأعلى بذلك ذكرك، لتؤدىّ ما عليك فتنذر وتبشّر، فمن قبل فحظّه أصاب، ومن أعرض فنفسه أوبق، ويكون فيه تهديد لمن ترك القبول، كقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) [الكهف:1]، ثم قال: (.. لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ)[الكهف].

وكما قال في سورة الزمر: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) [الزمر:41]، فقد أسقط عنه في ظاهر اللفظ القصد إلى الوعيد ما ألزمه عند قوله في الآية التي في سورة النساء (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) [النساء:105].

ولذلك اختص كل لفظ كلّ بمكان، فعُلم أن ما جاء عليه اللفظ في الآية الأولى هو مميّز عمّا جاء عليه في الآية الثانية، و لم يخف الفرق بينهما1.

1 ــ ينظر درة التنزيل وغرة التأويل: 1105/1.

ومن بديع هذا الباب الفرق بين أن يأتي المفعول به مفردا وبين أن يأتي جملة، فقد جاء في آخر سورة الفتح: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) [الفتح:29].

وقال عز وجل في سورة المائدة: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) [المائدة :9].

فنصب في الفتح (مغفرة وأجر عظيما) ورفعها في المائدة، لقوله تعالى: (لهم) في المائدة، وقوله: (منهم) في الفتح، وذلك أنه لما قال في الأولى (منهم)، فإن (منهم) فيها متعلقة بـــ (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ومن تمامها، ولم يكن هناك ما ترتفع (مغفرة) به، فتعدى إليها الفعل الذي هو (وعد) فجرى على الأصل في نصب المفعول به.

ثم إن القوم الذين أخبر الله عنهم بقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) [الفتح:29] مع سائر ما وصفهم الله تعالى به، وأثنى عليهم بذكره، كلهم وعدوا مغفرة وأجرا عظيما.

ولذالك فإن (من) في هذا المكان ليست للتبعيض، وإنما هي لتبيين الجنس، كأنه قال: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين هم هم، كما قال : (...فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)[الحج :30]، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان.

أو أن يكون التقييد للتحذير، لأنهم وإن علم الله تعالى منهم الثبات على ما هم عليه من العمل الصالح، فإنه لا يخليهم من الأمر والنهي والوعد والوعيد، على معنى: دوموا على ما أنتم عليه: فإن من داوم منكم عليه فقد وعده الله تعالى مغفرة وأجرا عظيما[1].

وخصت آية المائدة بأن جعل مفعولها الثاني جملة، والآية الأولى مفعولها مفردا، وذلك أن آية المائدة خطاب لقوم حثهم على توخي العدل فيما يحكمون به، وهو أعم من حث الصحابة الذين ذكرهم في آخر سورة الفتح، وأثنى عليهم بالشدة على الكفار، والرحمة

1 ــ ينظر ملاك التأويل:165/1. وما بعدها

للمؤمنين، وملازمة الركوع والسجود وابتغاء رضوان الله، وأن مثلهم (كزرع أخرج شطأه) إلى آخر الآية، فخص هؤلاء بصريح المغفرة وذكر أنه وعدهم ذلك.

فقال في آية المائدة: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فكان إخبارا عن وعده إياهم، ثم أتى بخبر ثان فقال: (لهم مغفرة)، على معنى: إن وافوا بذلك و لم يحبطوه بالسيئات ، فجوز منهم هذا، و لم يعلق المغفرة بوعد فيعد به إليها.

وفي آية الفتح حقق المغفرة لهم، وعدى الفعل إليها، وكان كالحكم بأنهم يوافون الآخرة بأعمالهم الصالحة، وقد وعدهم الله تعالى عنها المغفرة والأجر العظيم فلاق بكل آية ما خصت به.

وقد يؤتى بالفعل المتعدّي في الجملة الفعلية لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لقصد التشويق، كما في قوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) [الزمر:29] فـــ(ضرب اللّه) فعل، وفاعل، و(مثلا) مفعول به، و(رجلا) بدل من (مثلا).

ومجيء فعل (ضَرَبَ الله) بصيغة الماضي، مع أن ضَرْب هذا المثل ما حصل إلا في زمن نزول هذه الآية، لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لقصد التشويق إلى علم هذا المثل، فيكون كالإخبار عن أمر حصل، لأن النفوس أرغب في علمه كقول المثوِّب: قد قامت الصلاة، وفيه التنبيه على أنه أمر محقق الوقوع.

وجعل الزمخشري فِعل (ضرب) مستعملاً في معنى الأمر، إذ فسره بقوله: "اضرِبْ لقومك مثلاً، وقُل لهم: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء..."[1]، فكان ظاهر كلامه أن الخبر هنا مستعمل في الطلب، فعُدل عن مقتضى الظاهر من إلقاء ضرب المثل بصيغة الأمر إلى إلقائه بصيغة المضيّ لإفادة صدق علم النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهذا أدق معنى وأنسب ببلاغة القرآن من جعل المضي في فعل (ضَرَب) على حقيقته.

واختيار هذا المعنى في خصوص هذه الآية إنما هو لمناسبات اختص بها سياق الكلام الذي وقعت فيه، ولا داعي إليه في غيرها من نظائر صيغتها مما لم يوجد الله فيه مقتضٍ لنحو هذا المحمل[2].

1 ــ الكشاف: 125/4.

2 ــ ينظر التحرير والتنوير:400/23ــ401.

ومن المحتمل أن يكون العدول عن أن يصاغ بصيغة الطلب، كما في قوله: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ) [يس:13]، وقوله: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ...) [الكهف:32]، وقوله: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ,,,) [الكهف:45] إلى أن صيغ بصيغة الخبر هو التوسل إلى إسناده إلى الله تنويهاً بشأن المثل.

وقد يفرق بين الصنفين: بين ما صيغ بصيغة الخبر، وما صيغ بصيغة الطلب، بأن ما صيغ بصيغة الطلب كان في مقامٍ أهمّ، لأنه إمّا تمثيل لإبطال الإشراك، وإمّا لوعيد المشركين، وإمّا لنحو ذلك، خلافاً لما صيغ بصيغة الخبر فإنه كائن في مقام العبرة والموعظة للمسلمين أو أهل الكتاب.

وقد يأتي الفعل المتعدي في الجملة لإفادة المجاز، كما في قوله تعالى: (... يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً) [البينة:2] فـ (يتلوا) فعل وفاعل، و(صحفا) مفعول به، و(مطهرة) صفة لـ (صحف).

والبنية التركيبية لا تحيلنا إلى أي شيء غير عادي، وفي تعدية الفعل (يتلو) إلى (صحفاً) مجاز مرسل مشهور ساوى الحقيقة، قال تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ...) [العنكبوت:48]، فهو باعتبار كون المتلو مكتوباً، وإنما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتلو عليهم القرآن عن ظهر قلب ولا يقرأه من صحف، فمعنى (يتلو صحفاً) يتلو ما هو مكتوب في صحف، والقرينة ظاهرة وهي اشتهار كونه (صلى الله عليه وسلم) أمّيّاً.

ووصف الصحف بـ (مطهرة)، وهو وصف مشتق من الطهارة المجازية، أي كون معانيه لا لبس فيها، ولا تشتمل على ما فيه تضليل، وهذا تعريض ببعض ما في أيدي أهل الكتاب من التحريف والأوهام.

ومن غريب ما وقع في الجملة الفعلية في هذا الجزء ما جاء في قوله تعالى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (٤)وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦)[الضحى]

ففي الصنعة الإعرابية، أثار بعض المفسرين هنا مشكلات تتعلق باجتماع اللام وسوف دون توكيد الفعل الداخلين عليه، والقاعدة النحوية تقول: إن اللام في (سوف) إن

كانت للقسم، لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، وإن كانت اللام للابتداء، فإنها لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر ....

وقد رأى "الزمخشري" أنه لابد من تقدير مبتدأ محذوف، وأن يكون أصل العبارة: ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى، فقال: "فإن قلت: ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ قلت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف، تقديره: ولأنت سوف يعطيك"[1].

ونحا أبو حيان النحو نفسه بقوله: "واللام في (وَلَلْآخِرَةُ) لام ابتداء، أكدت مضمون الجملة، وكذا في (وَلَسَوْفَ) على إضمار مبتدأ، أي: ولأنت سوف يعطيك"[2].

وندرك مدى المغالاة في التمسك بالصنعة الإعرابية على هذا البيان العالي، إذا احتكمنا إلى حس العربية، ووازناً بين التعبير القرآني (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) وذلك التأويل المقدر، الذي قال عنه "الزمخشري" إنه الأصل: ولأنت سوف يعطيك.

ممّا يجعل من هذه الجملة جملة اسمية بعكس من يجعلها فعلية، وأن اللام فيها للتوكيد.

تقول عائشة عبد الرحمان: "وأراهم جاوزوا قدرهم، حين يؤولون الآية المحكمة من البيان الأعلى، فيقول قائلهم: لابد من تقدير كذا ..... لأن أصل التعبير كذا!" .

ثمّ تستطرد مبينة منهجها في حسم هذا الخلاف: "وكان يكفي أن يأتي التعبير في الكتاب العربي المبين، ليكون هو الشاهد والحجة، والأصل الذي تعرض عليه كل قاعدة لغوية أو بلاغية، لا أن نحكم فيه قواعد للنحاة والبلاغيين، في دراستهم للعربية علماً وصنعه!!"[3].

ثمّ إن اجتماع التوكيد المستفاد من اللام، مع التسويف الصريح في (سَوْفَ) لأن العطاء كائن لا محالة إن تأخر، لما في التأخير من مصلحة.

فإكمال الدين لم يتم إلا في عشرين سنة، ونزلت الآية: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة] فاستعمل حرف التسويف لذلك.

---

1 ــ الكشاف: 767/4.

2 ــ البحر المحيط: 481/8.

3 ــ التفسير البياني للقرآن الكريم. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء). دار المعارف. القاهرة. الطبعة السابعة. 41/1.

وتأكيد المستقبل ليس ببعيد عن مألوف العربية، والبيان إنما يتسق هنا ويتكامل بلفظ (سَوْفَ) إيناساً للرسول المصطفى (صلّى الله عليه وسلّم) بأنه كان وسوف يظل موضع عناية ربه: في أمسه وغده، في أولاه وأخراه .....

ومن أسرار التركيب القرآني في الجملة الفعلية مانراه من تعدية الفعل بحرف دون آخر كما في قوله تعالى في سورة الزمر: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) [الزمر].

وقال في سورة لقمان: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29).[لقمان]

فقال في آية الزمر: (يجري لأجل مسمّى) باللام، وخص ما في سورة لقمان بقوله: (يجري إلى أجل مسمّى) بـــ (إلى).

وذلك أن معنى قوله عز وْجل: (يجري لأجل مسمّى) لبلوغ أجل، ومعنى قوله: (يجرِي إلى أجل): لا يزال كلّ من الشمس والقمر جاريا حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمّى له، وإنما خص ما في سورة لقمان بـــ "إلى" التي للانتهاء، واللام تؤدي معناها، لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة، فقبلها : (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ...).[لقمان:28]

وبعدها: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا...)،[لقمان:29] فكان المعنى: كلّ يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تكوّر فيه الشمسُ، وتنكدر فيه النجوم، كما أخبر الله تعالى.

وفي سورة الزمر ذكرت اللام في الإخبار عن ابتداء الخلق، وهو قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا... 2)،[الزمر] فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء الخلق وابتداء جرْي الكواكب، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية.

وكذلك قوله في سورة فاطر إنما هو في ذكر النعم التي ابتدأ بها في البر والبحر إذ يقول: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ) إلى قوله: (.. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13)، ــ وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام، فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها[1].

ومن الأفعال المتعدية بنفسها وبالحرف الفعل (استبدل) في قوله تعالى: (هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) [محمد:38]، فاستعير هنا لاستبدال الإيمان بالكفر، ولذلك جعل جزاء المتولين استبدال قوم غيرهم كما استبدلوا دينَ الله بدين الشرك.

و"الاستبدال: التبديل، فالسين والتاء للمبالغة، ومفعوله (قوما). والمستبدَل به محذوف دل على تقديره قوله (غيركم)، فعلم أن المستبدل به هو ما أضيف إليه (غير)، لتعيّن انحصار الاستبدال في شيئين، فإذا ذكر أحدهما علم الآخر، والتقدير: يستبدل قوماً بكم لأن المستعمَل في فعل الاستبدال والتبديل أن يكون المفعولُ هو المعوَّض ومجرور الباء هو العوَض، كقوله: (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) [البقرة:61]، وإن كان كلا المتعلقين هو في المعنى معوض وعوض باختلاف الاعتبار، ولذلك عدل في هذه الآية عن ذكر المجرور بالباء مع المفعول للإيجاز، والمعنى: يتخذ قوماً غيركم للإيمان والتقوى، وهذا لا يقتضي أن الله لا يوجد قوماً آخرين إلاّ عند ارتداد المخاطبين، بل المراد: أنكم إن ارتددتم عن الدين كان لله قوم من المؤمنين لا يرتدون، وكان لله قوم يدخلون في الإيمان ولا يرتدون"2.

ومما ورد بالبنية نفسها مع تعدية الفعل أولا ثم سقوط ضمير المفعول ثانيا لغرض توسعة المعنى قوله تعالى في سورة الصافات: (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) [الصافات:175] ثم قوله: (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) [الصافات:179]، فثبت ضمير المفعول أولا في قوله: (وأبصرهم)، وسقط ثانياً في قوله (وأبصر)، مع التكرار.

1 ــ ينظر ملاك التأويل: 412/2.

2 ــ التحرير والتنوير: 138/26ــ139.

وذلك أن التكرار تأكيد وتشديد في الوعيد، وتناسب ذلك بيِّنٌ مألوف في كلام العرب، وأما سقوط الضمير في الثاني حتى يكون عموماً لهم ولغيرهم في الوعيد، لأن قوله: (وأبصرهم) المراد به أمره عليه السلام، بأن يترقب ما يترل (بهم)، ويحل بساحتهم من الانتقام، وإعلامه (صلى الله عليه وسلم) بكفايته إياهم كما قال تعالى: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) [الحجر:95] فكان كذلك، وقال تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) [لقمر:45]، ففعل بهم ذلك يوم بدر، فقدم (الله) سبحانه تأنيس نبيه ــ عليه السلام ــ بإخباره إياه في هذا الوعيد (لهم) بأخذهم، وقطع دابرهم، ثم أردف هذا الوعيد بوعيد ثان فيه عموم يشملهم، ولا يرجع عن تناول غيرهم ممن سلك مسلكهم، ويشعر بحاله هو ــ عليه السلام ــ وحال من أذعن واستجاب له، فقال: (وأبصر)، أي: ترقب ما أفعل لك من تأييدك ونصرك وجزائك الأخروي، وجزاء من آمن بك، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وما أفعل بمن عاداك وعاندك ممن باشرك بتمرده وطغيانه أو بعد عنك، من أخذهم، وقطع دابرهم، ووبيل جزائهم الأخروي.

هذا مفهوم لا يرجع إطلاق قوله: (وأبصر) عن عطائه وتعميمه، وذلك كله مما يعتضد من مواضع أخر، وتأمل ما فعل سبحانه بكسرى حين مزق كتابه (صلى الله عليه وسلم) تمرداً وطغياناً، وإن لم يباشره، فلما جاوز حد كفره إلى التمرد والطغيان مُزق هو وآله كل ممزق.

أما قوله: (وأبصرهم) فتناول المباشرين لمكان التقييد بإعمال الفعل في ضميرهم، فهو وإن تناول أخذهم في الدنيا، وتمكين نبيه والمسلمين منهم، ثم عقابهم في الآخرة ليبلغ بالتهديد والوعيد أقصى ما يحتمله، فإنه لا يتعداهم إلى غيرهم.

وأما قوله (وأبصر) بإطلاق الفعل عن التقييد، فقابل غير ممتنع عن تناولهم، ومن سواهم من كل من خالفه ــ عليه السلام ــ وعاداه ، ومقتضى الوعيد لهم، ومقصود بشارته له ــ عليه السلام ــ يحبذان أن يكون إطلاق الأمرين، وتعميم الطرفين من الوعيد والبشارة، فقد وضح أنه لا تكرار في الحقيقة، بل ورد ذلك كله على ما يلائم ويناسب،

وعبر عن ذلك كله بعبارة الإبصار إشعاراً بقربه، فكأنه بمنزلة المعاين المدرك بالبصر لتعجيل الدنيوي منه، وتحقيق وقوع الأخروي، فكل هذا على أوضح مناسبة[1].

وقد يحذف مفعول الفعل المتعدي لتنزيله منزلة اللازم كقوله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) [الليل:1ــ2]، فـ"حذف مفعول (يغشى) لتنزيل الفعل منزلة اللازم، لأن العبرة بغشيانه كلَّ ما تغشاه ظلمته، وأسند إلى النهار التَجلي مدحاً له بالاستنارة التي يراها كل أحد، ويحس بها حتى البصراء"[2].

وكذلك الأمر في قوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧) [الليل:5ــ7]، فالفاء استئنافية، و(أمّا) حرف شرط وتفصيل، و(من) اسم موصول مبتدأ، وجملة (أعطى) صلة، وحُذف مفعول (أعطى) لأن فعل الإعطاء إذا أريد به إعطاء المال بدون عوض يُنزَّل منزلَة اللازم، لاشتهار استعماله في إعطاء المال، ولذلك يسمى المالُ الموهوب (عَطاءً)، والمقصود إعطاء الزكاة، و(اتقى) عطف على (أعطى)، وكذلك حُذف مفعوله، لأنه يعلم أن المقدّر اتّقى الله، و(صدّق بالحسنى) عطف أيضا، (فسنيسّره): الفاء رابطة لجواب الشرط، والسين للتسويف، ونيسره فعل مضارع، وفاعله مستتر، والهاء مفعول به، و(لليسرى) متعلقان بـــ (نيسّره).

ومن الجمل الفعلية ذات الفعل المتعدي قوله تعالى: (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى) [الليل:14]، وقد تكون الفاء لمجرد التفريع اللفظي إذا كان فعل: (أنذرتكم) مستعملاً في ماضيه حقيقةً، وكان المراد الإنذار الذي اشتمل عليه قوله: (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) إلى قوله: تردى) (الليل:8ــ11)، وهذه الفاء يشبه معناها معنى فاء الفصيحة، لأنها تدلّ على مراعاة مضمون الكلام الذي قبلها، وهو تفريع إنذار مفصَّلٍ على إنذارٍ مجمل.

ويمكن أن تكون الفاء للتفريع المعنوي فيكون فعلُ (أنذرتكم) مراداً به الحال، وإنما صيغ في صيغة المضي لتقريب زمان الماضي من الحال، كما في: قد قَامت الصلاة، وقولهم: عزمت عليك إلاّ فعلت كذا، أي أعزم عليك، ومثل ما في صيغ العقود: كبعتُ، وهو تفريع

1 ــ ينظر درة التنزيل وغرة التأويل: 1098/1 وما بعدها.

2 ــ التحرير والتنوير: 379/30.

على جملة: (إن علينا للهدى) (الليل:12)، والمعنى: أهديكم فأنذرتكم إبلاغاً في الهدى، وتنكير المفعول به (ناراً) للتهويل، وجملة (تلظى) صفة1.

ومن تعدية الفعل بنفسه مرة و بالحرف مرة أخرى قوله عز وجل: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12).

فـــ عدّي (أُمِرْتُ) الأول بـــ (أن)، وعدّى (أُمِرْتُ) الثاني باللام، فقال: (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ)، ولو قال: أمرت أن أكون أول المسلمين، لَكان الكلام مستغنيا عن اللام.

وذلك أن القصد فى الأمر الثاني غير القصد فى الأمر الأول، فـــالأول يتعدّى إلى العبادة بنفسه، والثاني معناه: وأمرت أن أعبد اللّه لأن أكون أول المسلمين، أي : إنما أمرت بإخلاص العبادة لله تعالى، وبعثت رسولا، لأن أكون أول مَن يبدأ بطاعة الله تعالى، وعبادته على الإخلاص المطلوب، فاللام ليست مقحَمَة، وإنما معناه ما ذكر من أنّ الأمر بالعبادة لأجل أن يفعل أولا ما أمر به، ثم يحمل الناس على مثله.

ـــ الفروق الدلالية للفعل المتعدي بالحرف:

ومن ذلك قوله تعالى: (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ (٥) [غافر:5] فـــ(همّت) فعل ماض، و(كل أمة) فاعل، و(برسولهم) متعلقان بهمت، واللام للتعليل، و(يأخذوه) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والواو فاعل، والهاء مفعول به.

و"الهمّ: العزم، وحقه أن يعدّى بالباء إلى المعاني، لأن العزم فعل نفساني لا يتعلق إلا بالمعاني، كقوله تعالى: (وهمُّوا بمَا لم يَنَالُوا) [التوبة:74]، ولا يتعدّى إلى الذوات، فإذا عدّي إلى اسم ذات تعينّ تقدير معنى من المعاني التي تلابس الذات يدل عليها المقام، كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) [يوسف:24] أي: همّت بمضاجعته، وقد يذكر بعد اسم الذات ما يدل على المعنى الذي يُهَمّ به، كما في قوله هنا: (ليأخذوه)، أي: الهمّ بأخذه، وارتكابُ هذا الأسلوب لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل، ومثله تعلق أفعال القلوب بالأسماء في (ظننتك جائياً)، أي: ظننت مجيئك"2.

1 ـــ ينظر التحرير والتنوير: 389/30.

2 ـــ التحرير والتنوير: 85/24.

وقد تآمر كفار قريش على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة دار الندوة ليقتلوه، بأن يتجمع نفر من جَميع عشائرهم، فيضربوه بالسيوف ضربة رجل واحد، كيلا يستطيع أولياؤه من بني هاشم الأخذ بثأره1.

ومن الأفعال المتعدية بالحرف الفعل (نفخ) في قوله تعالى في سورة التحريم: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيه مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) [التحريم:12]. حيث تعدّى الفعل بـــ (في) إلى ضمير المذكّر بينما تعدّى في قوله تعالى في سورة الأنبياء: (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء:91] إلى ضمير المؤنث.

وذلك أنه لما كان القصد في سورة الأنبياء إلى الإخبار عن حال مريم وابنها، وأنهما جُعلا آية للناس، وكان النفخ فيها ممّا جعلها حاملا، فكأنه قال: (والتي أحصنت فرجها) فصيّرها النفخُ حاملا حتى ولدت، والعادة جارية أن لا تحمل المرأة إلا من فحل، ولا يولد الولد من غير أب، فلما كان القصد التعجب من حاليهما، وأنها بالنفخ صارت حاملا ردّ الضمير إلى جملتها، إذ كان النفخ في فرجها نفخاً فيها أوجب القصد إلى وصفها بعد النفخ بصفةٍ ترجع إلى جملتها دون بعضها، كان قوله: (فنفخنا فيها) أولى من قوله: (فنفخنا فيه).

وأما قوله في سورة التحريم: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) فلما لم يكن القصد فيه إلى التعجّب من حالها بالحمل عن النفخ، وولادتها، لا عن اقتراب فحل، لم يكن ثَمّ من القصد إلى وصف جملتها بغير الصفة التي كانت عليها قبلها ما كان في الآية الأخيرة، فجاء اللفظ على أصله، والمعنى: نفخنا في فرجها، و لم يُسَقِ الكلامُ إلى ما سيق إليه في سورة الأنبياء من وصف حالها بعد النفخ، فاختلفا لذلك[2].

ومن بلاغة التركيب القرآني في الربع الأخير في اختيار الحرف المعدّى به الفعل تعدية الفعل (أوحى) باللام في قوله تعالى: (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) [الزلزلة:5] وهو ما لفت نظر المفسرين واللغويين، لأن المشهور تعديتها بـــ(إلى).

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم، فنراه استعمل الفعل إحدى وسبعين مرة، في مرتين منها، لم يصرح بالموحي إليه:

1 ــ التحرير والتنوير: 85/24.

2 ــ ينظر ملاك التأويل: 352/2 وما بعدها.

في قوله:(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:4].

وقوله: (فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) [الشورى:51].

وفي سبع وستين مرة، تعدى الفعل بـــ (إلى)، ومرة واحدة تعدى بـــ (في)، في قوله تعالى: (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) [فصلت:12]

وفي آية الزلزلة وحدها تعدى الفعل باللام.

قال أبو حيان: "وعدى أوحى باللام، وإن كان المشهور تعديتها بـــ (إلى)، لمراعاة الفواصل ....لأفعال فيها، وإذا كان الإيحاء إليها احتمل أن يكون وحي إلهام، واحتمل أن يكون برسول من الملائكة"[1].

أما ابن هشام النحوي فجاء بالآية شاهداً على أن اللام تأتي موافقة لـــ (إلى)، كما تأتي موافقة لـــ: على، وفي، وعند، وبعد، وعن، ومع، مؤيدا ما ذهب إليه بشواهد على هذا كله من فصيح العربية[2].

فإذا استقرأنا مواضع استعمال الفعل نرى أن الموحى به يتعدى إليه الفعل بنفسه، أما الموحي إليه، فيتعدى الفعل إليه بحرف إلى، إذا كان من الأحياء، باستقراء الآيات السبع والستين التي جاء الوحي فيها بـــ(إلى)، ومنها قوله: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا) [النحل:68].

أما الجماد فلا يتعدى الوحي إليه بحرف (إلى)، بل بحرف (في) كما في قوله:(وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) [فصلت:12]،أو باللام، كما في آية الزلزلة: (أَوْحَى لَهَا) [الزلزلة:5]

ويلتمس تعيين دلالة الحرف، بالسياقين:

ففي السماء (أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) أي بث فيها، ما به نظامها، فعدى الفعل بـــ (في) الظرفية التي تدل على التمكين (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

وفي الأرض، عدى الفعل باللام، وقد عدّ ابن هشام في المغني معاني اللام فقال: "الثامن:"مقام إلى"[3] واستشهد بآية الزلزلة.

---

1 ــ البحر المحيط: 497/8ــ498.

2 ــ ينظر مغني اللبيب: 149/3ــ216.

3 ــ مغني اللبيب: 169/3.

وهو مذهب عامة النحاة، ويراه خاصة من فقهاء العربية مبطلاً لحقيقة اللغة، من حيث لا يمكن أن تؤدى وظيفتها في التعبير والبيان، إذا اختلطت الدلالات و لم يتميز حرف عن حرف.

وما قيل في أن هذا لمراعاة الفواصل، مما لا يتمشى في كل موضع، أو حينما قالوه في القرآن، لأننا لا نسلم، بل لا نعرف أن هذا البيان المعجز، يؤثر كلمة على غيرها لمجرد ملحظ لفظي لا يقتضيه المعنى.

والقول بأن "الموحي إليه محذوف، أي: أوحي إلى ملائكته"، معناه أن الموقف يحتاج إلى وساطة لإيصال الإيحاء إلى الأرض، وهو ما يأباه السياق الذي يقتضي عكس ذلك.

فمع بناء "زلزلت الأرض" للمجهول، ومع قوة الفاعلية المستفادة صراحة من إسناد الإخراج، والتحدث والزلزلة إلى الأرض، لا وجه لتقدير وساطة الملائكة، لإيصال الإيحاء إلى الأرض التي زلزلت زلزالها، وأخرجت أثقالها، وتحدث أخبارها، فالبيان يقوم على قوة هذه الفاعلية في تصوير هول الموقف الذي يدهش له الإنسان، فيقول في عجب وقلق: مالها ؟! فاقتضى أن يأتيه الجواب: (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)، تحدث به الأرض نفسها تلقائياً، فالإيحاء هنا للأرض مباشرة ليلائم إسناد التحدث إلى الأرض، وسر قوته في هذه التلقائية المباشرة على وجه التسخير.

ومن هنا كان إيثار التعدية باللام، لما في معنى اللام من اختصاص، وإلصاق، وصيرورة، وتقوية الإيصال، وهي معان عرفها اللغويون أنفسهم فيها، وعدوها فيما عدوا من معانيها التي أحصاها ابن هشام في (مغني اللبيب)، وإن لم يلتفتوا إليها هنا في البيان القرآني، بل قالوا إن اللام تقوم مقام إلى، بشاهد من آية الزلزلة: (أَوْحَى لَهَا).

ومن الفوارق التي يجلبها الحرف المعدّى به الفعل مانجده في سورة الصف في قوله تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) [الصف:8] وقوله تعالى في سورة التوبة: (يريدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢).[التوبة:32] فتعدّى الفعل في (يريدون) في سورة الصف باللام، وتعدّى في سورة التوبة بـــ (أن)، وهي الأصل في تعدي الإرادة إليه.

وذلك أن الإرادة في آية التوبة تعلقت بإطفاء نور الله بأفواههم، وإطفاء نور الله إنما يكون بما حاولوا من دفع الحق بالباطل، فالحق يسمى نورا، لأن حججه وبراهينه تضيء

لطالبه بها إليه، والباطل هو قوله: بأفواههم، وهو ما أخبر الله تعالى به قبل عن اليهود والنصارى، فقال: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) [التوبة :30]. أي: هو قول لا حقيقة له، ولا محصول، وبمثله لا يدفع الحق، وبالأفواه لا يطفأ هذا النور كما يطفأ السراج، لأن هذا النور وإن أشبهه في أنه يهدي، ويبين الحق من الباطل، فهو بخلافه في الامتناع من الإطفاء،كما يتهيأ ذلك في السراج.

والنور يمكن أن يكون الآية المنيرة والحجة الساطعة، ويمكن أن يكون المراد به القرآن، ويمكن أن يكون المراد به النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)) [الأحزاب:45-46]. فالسراج المنير يسمى نورا، وكل واحد من الثلاثة إذا دفعوه جاز أن يقال: حاولوا إطفاءه، والخبر عن اليهود والنصارى الذين قال فيهم عز وجل: (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ) [التوبة:30]. أي: يشاكلون بإثباتهم لله ابنا وشريكا قول من أثبت مع الله آلهة: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [التوبة: 31]، وتعدى الإرادة إلى هذا المراد ظاهر، وهو وجه الكلام والأصل.

وأما الآية في سورة الصف، وتعليق الإرادة فيها بالإطفاء مع زيادة اللام، فإن للنحويين في ذلك مذهبين.

أحدهما: أن اللام توضع موضع (أن) لكثرة ما يقال: زرتك لتكرمني، فاللام لما اشتهرت بنيابتها عن (أن) وقيامها مقامها في الموقع، كان تعدّي الفعل إليها مع ما بعدها من الفعل كتعديه إلى (أن) وما تنصبه من المستقبل، فيقال: قصدت أن تفرح وقصدت لتفرح، وهذا لا يكون إلا على سبيل التوسع دون الحقيقة.

قال الزمخشري: "أصله: (يُرِيدُونَ أَن)، كما جاء في سورة براءة، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لأكرمك، كما زيدت اللام في: لا أبا لك، تأكيداً لمعنى الإضافة في: لا أباك"[1].

1 ــ الكشاف: 525/4.

وقال نحوه ابن عطية، قال: و"اللام في قوله: (ليطفؤا) لام مؤكدة، دخلت على المفعول، لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، و(أن) مع الفعل بتأويل المصدر، فكأنه قال: يريدون إطفاء، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم، تقول: لزيد ضربت، ولرؤيتك قصرت"[1].

فأما المذهب الآخر، وهو أن الفعل معدّى إلى مفعول محذوف، واللام الداخلة على الفعل المنصوب تكون منبئة على العلة التي لها أنشئ الفعل[2].

والمراد في الآية على هذا التحقيق: يريدون أن يكذبوا ليطفئوا نور الله بأفواههم لأن قبلها: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ ...) [الصف:7]. فقوله: (يريدون) لم يذكر فيه مفعول ما يريدون اعتمادا على ما نبه عليه بقوله: (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب)، فكأنه قيل: يريدون افتراء الكذب ليطفئوا نور الله.

فلهذا خصت الآية الثانية بدخول اللام على (يطفئوا)، ولما كان المراد في الآية الأولى الإطفاء بالأفواه، لما دل عليه مفتتح العشر، وهو: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) [التوبة:30] كانت الإرادة معداة إلى إطفاء نور الله تعالى بأفواههم، وهو ما حكى الله تعالى عنهم، أنه قولهم بأفواههم، أي: يريدون أن يدفعوا الحق بالباطل من أفواههم.

ومن الأفعال المتعدية بالحرف مانجده في سورة الذاريات في قوله تعالى: (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) [الذاريات:26] والمعنى:أنه راغ[3] إلى أهله ليحييهم بترلهم، والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث يكاد لا يشعر به، وهذا من كرم رب المترل المضيّف: أن يذهب في اختفاء، بحيث لا يشعر به الضيف، فيشق عليه ويستحي، فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه وهو يقول له، أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام، ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

وفي قوله: (فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) مع أن الفعل (جاء) لازم في أغلب أحواله، تقول: (جاء عبد الله)، إلا أنه عدّي بالباء هنا لإفادة المصاحبة، فبمجرد الاختفاء السريع عاد

1 ــ المحرر الوجيز: 303/5.

2 ــ ينظر التحرير والتنوير:190/28.

3 ــ (راغ): مال في المشي إلى جانب، ومنه: رَوغان الثعْلب.

بالضيافة، فدل على أن ذلك كان معدا عندهم مهيئا للضيفان، ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه، أو غيرهم فيشتريه، أو يستقرضه.

والضمير المستتر في (راغ)، و(جاء) والذي يعود على إبراهيم، يدل على خدمته للضيف بنفسه، إذ لم يقل: فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه، ولم يبعثه مع خادمه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

ووصُف العجل هنا بـــ (سَمين) لا هزيل، فمعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية، فآثر به ضيفانه، وأنه جاء بعجل كامل، ولم يأت ببضعة منه، وهذا من تمام كرمه (صلّى اللّه عليه وسلّم)، ووصف في سورة هود بحنيذ، أي: مشوي، فهو عجل سمين شواه وقرّبه إليهم، وكان الشِواء أسرع طبخ أهل البادية، وقام امرؤ القيس يذكر الصيد:

فظل طهاةُ اللحم ما بين مُنضِج صَفيف شِواء أو قَدِيرٍ مُعَجَّل[1]

فقيد (قدير) بـــ (مُعَجّل) ولم يقيد (صفيف شواء) لأنه معلوم .

كما حذف المبتدأ في قوله تعالى بعدها: (..وَقَالَت عَجُوزٌ عَقِيمٌ) [الذاريات:68]، والتقدير: أي: أنا عجوز عقيم، وذلك لتصوير حالة الدهشة والمفاجأة التي انتابت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام.

و"(العجوز): فعول بمعنى فاعل، وهو يستوي في المذكر والمؤنث، مشتق من العجز ويطلق على كبر السنّ لملازمة العجز له غالباً.

و(العقيم): فعيل بمعنى مفعول، وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث، إذا جرى على موصوف مؤنث، مشتق من عَقمها الله، إذا خلقها لا تحمل بجنين، وكانت سارة لم تحمل قط"[2].

ومن صيغ الجملة الفعلية ذات الفعل المتعدي ما يؤتى به لقصد الدعاء كقوله تعالى: (...فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [المنافقون:4]

---

1 ــ شرح المعلقات السبع. الزوزني. دار الأفاق. الأبيار. الجزائر. (دت). ص:31. البيت من معلقة امرؤ القيس التي مطلعها:

قِفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزِل بسِقْط اللّوى بين الدّخول فَحَومَل

2 ــ التحرير والتنوير:361/26.

فـــ(قَاتَلَهُمُ اللَّهُ): دعاء يتضمن إبعادهم، وأن يدعو عليهم المؤمنون بذلك، لما أخبر الله تعالى رسوله بعداوتهم، أمره بحذرهم، فلا يثق بإظهار مودتهم، ولا بلين كلامهم.

وقال أبو حيان: "(قَاتَلَهُمُ اللَّهُ): كلمة ذم وتوبيخ، وقالت العرب: قاتله الله ما أشعره، يضعونه موضع التعجب، ومن قاتله الله فهو مغلوب، لأنه تعالى هو القاهر لكل معاند"[1].

ـــ الجملة الفعلية ذات الفعل المتعدي لمفعولين :

وإذا تعدد المفعول فإن كان من باب (ظن) و(أعلم) فمعلوم أن المبتدأ فيهما مقدم على الخبر، والفاعل في باب أعلم مقدم على الاثنين، و إذا كان في غيره كباب (أعطى) و (أختار) فالأصل تقديم ما هو فاعل معنى في الأول، و ما يتعدى إليه الفعل بنفسه في الثاني على ما ليس كذلك، لأنه أقوى، فالأصل في (أعطيت زيدا درهما)، و (اخترت زيدا الرجال) تقديم زيد، لأنه أخذ الدراهم، و مختار من الرجال[2].

ومنه قوله تعالى: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(٥) [الضحى:5] وحرف الاستقبال لإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع، كما في قوله تعالى: (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)) في سورة يوسف وقوله: (وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) في سورة الليل.

وحذف المفعول الثاني (ليعطيك) ليعمّ كل ما يرجوه (صلى الله عليه وسلم) من خير لنفسه، ولأمته، فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء.

وجيء بفاء التعقيب في (فترضى) لإفادة كون العطاءِ عاجلَ النفع، بحيث يحصل به رضى المعطَى عند العطاء، فَلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تَربص.

وتعريف (ربك) بالإضافة دون اسم الله العَلَم، لما يؤذن به لفظ (رب) من الرأفة واللطف، وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله وتشريفه بإضافة رَب إلى ضميره.

1 ــ البحر المحيط: 269/8.

2 ــ ينظر همع الهوامع: 3/ 16

و"هو وعد واسع الشمول لما أعطيه النبي (صلى الله عليه وسلم) من النصر والظَفر بأعدائه يوم بدر، ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجاً، وما فُتح على الخلفاء الراشدين، ومَن بعدهم، من أقطار الأرض شرقاً وغرباً"[1].

بقي أن نشير إلى أن النحويين والمفسرين اختلفوا في اللام الداخلة على (سوف) في الآية، فقال الزمخشري "فإن قلت: ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ قلت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف، تقديره: ولأنت سوف يعطيك، كما ذكرنا في: لا أقسم، أن المعنى: لأنا أقسم، وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء، فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد، فبقى أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدإ والخبر، فلا بد من تقدير مبتدإ وخبر، وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك[2]، فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفى التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر، لما في التأخير من المصلحة"[3].

واختار ابن الحاجب أن اللام في (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) هي لام التوكيد، يعني جواب القسم فقال: اللام في ذلك لام التوكيد، وأما قول بعضهم إنها لام الابتداء، وإن المبتدأ مقدر بعدها ففاسد من جهات: إحداها: أن اللام مع الابتداء كقد مع الفعل وإن مع الاسم، فكما لا يحذف الفعل والاسم ويبقيان بعد حذفهما، كذلك اللام بعد حذف الاسم، والثانية: أنه إذا قدر المبتدأ في نحو: (لسوف يقوم زيد) يصير التقدير: لزيد سوف يقوم زيد، ولا يخفى ما فيه من الضعف، والثالثة: أنه يلزم إضمار لا يحتاج إليه الكلام، اهـ[4].

وتابعه على ذلك ابن هشام مفصلا حال هذه اللام قائلا: "وفى الوجهين الأخيرين نظر، لأن تكرار الظاهر إنما يقبح إذا صرح بهما، ولأن النحويين قدروا مبتدأ بعد الواو في نحو (قمت وأصك عينه)، وبعد الفاء في نحو (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ) [المائدة:95] وبعد

1 ــ التحرير والتنوير: 398/30.

2 ــ واختار هذا الرأي صاحب إعراب القرآن وبيانه، ينظر إعراب القرآن وبيانه: 341/8ــ342.

3 ــ الكشاف: 767/4.

4 ــ مغني اللبيب:245/3ــ247.

اللام في نحو (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) [القيامة:1],وكل ذلك تقدير لأجل الصناعة دون المعنى، فكذلك هنا.

وأما الأول: فقد قال جماعة في (إن هذان لساحران): إن التقدير: لهما ساحران فحذف المبتدأ وبقيت اللام، ولأنه يجوز على الصحيح (لقائم زيد).

وإنما يضعِّف قول الزمخشري أن فيه تكلفين لغير ضرورة، وهما تقدير محذوف، وخلع اللام عن معنى الحال، لئلا يجتمع دليلا الحال والاستقبال، ...وقوله إن لام القسم مع المضارع لا تفارق النون، ممنوع، بل تارة تجب اللام وتمتنع النون، وذلك مع التنفيس كالآية، ومع تقديم المعمول بين اللام والفعل نحو (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ) [آل عمران:158]، ومع كون الفعل للحال نحو (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)، وإنما قدر البصريون هنا مبتدأ، لأنهم لا يجيزون لمن قصد الحال أن يقسم إلا على الجملة الاسمية، وتارة يمتنعان، وذلك مع الفعل المنفي نحو (تالله تفتؤ)، وتارة يجبان، وذلك فيما بقى نحو (وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ) [الأنبياء:57]"[1].

ومن الأفعال المتعدية إلى مفعولين ما اجتمع من طرقه ذكر المفعولين، أو حذفهما، أو ذكر أحدهما، كما حدث مع الفعل (أعطى) من ذكر مفعوليه، وحذفهما، والاقتصار على أحدهما: وقد وقع ذلك في الربع الأخير من القرآن، كقوله: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) [الكوثر:1] فذكرهما.

وقال:(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى) [الليل:55] فحذفهما

وقال: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ) [الضحى:5] فحذف الثاني، واقتصر على الأول.

وقال: (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) فحذف الأول، واقتصر على الثاني.

وذلك أن فعل الإعطاء فعل مدح، لفظه دليل على أن المفعول المعطي قد ناله عطاء المعطى، والإعطاء إحسان ونفع وبر، فجاز ذكر المفعولين، وحذفهما، والاقتصار على أحدهما، بحسب الغرض المطلوب من الفعل.

فإن كان المقصود إيجاد ماهية الإعطاء المخرجة للعبد من البخل والشح والمنع المنافي للإحسان ذكر الفعل مجردا كما قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) [الليل:5]، و لم يذكر

1 ــ مغني اللبيب:3/245ــ250.

ما أعطى، ولا من أعطى، فتقول: فلان يعطي ويتصدق ويهب ويحسن، وقال النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم): (اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت).

فلما كان المقصود بهذا تفرّد الرب سبحانه بالإعطاء والمنع، لم يكن لذكر المعطي ولا لحظ المعطى معنى، بل المقصود: أن حقيقة الإعطاء والمنع إلى اللّه لا غيره، بل هو المتفرد بها، لا يشركه فيها أحد، فذكر المفعولين هنا يخلّ بتمام المعنى وبلاغته.

ولمّا كان المقصود ذكرهما ذكرا معا، كقوله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) [الكوثر:1] فإن المقصود إخباره لرسوله (صلّى اللّه عليه وسلّم) بما خصه به وأعطاه إياه من الكوثر، ولا يتم هذا إلا بذكر المفعولين.

وكذا الأمر في قوله تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) [الإنسان:8].

وإذا كان المقصود أحدهما فقط اقتصر عليه،كقوله تعالى: (وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ) إذ المقصود به: أنهم يفعلون هذا الواجب عليهم، ولا يهملونه.فذكره لأنه هو المقصود.

وقوله تعالى حكاية عن أهل النار: (لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) [المدثر:43ــ44]، فقد كان المقصود الإخبار عن المستحق للإطعام، أنهم بخلوا عنه، ومنعوه حقه من الإطعام، وقست قلوبهم عنه، فكان ذكره هو المقصود، دون ذكر المطعوم.

وتدبُّر هذه الطريقة في القرآن، وذكره للأهم المقصود، وحذفه لغيره، يطلعك على باب من أبواب إعجازه وكمال فصاحته.

ومن بديع ما اشتركت فيه البنية و اختلفت بعض مفرداته قوله تعالى في سورة الصافات: (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98).[الصافات]. وقوله تعالى في سورة الأنبياء: (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70)[الأنبياء]. فأسند الفعل (جعل) إلى (نا) في كليهما، واستوى مفعولاه في الصيغة، فالأول منهما الضمير المتصل (هم)، والثاني وصف الجمع المعرّف بـــ(ال). ومع أنهما في قصة واحدة، فقد جاء في موضع: (الأسفلين) وفي موضع (الأخسرين).

أمّا الآية التي في سورة الصافات فإن اللّه تعالى أخبر عن الكفار فيها بما اقتضى من الأسفلين، وهو أنه قال: (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ) [الصافات:97]، فبنوا له بناء عاليا، ورفعوه فوقه ليرموا به من هناك إلى النار التي أجّجوها، فلما علوا ذلك البناءَ

وحطّوه منه إلى أسفل، عادوا هم الأسفلين، لأنهم أهلكوا في الدنيا، وسفل أمرهم في الأخرى، والله تعالى نجّى نبيّه ـــ عليه السلام ـــ وأعلاه عليهم، فانقلب عاليّ أمرهم في صعود البناء سافلا، وسافل أمر إبراهيم عليه السلام عاليا، فلذلك اختصت هذه الآية بقوله: (فجعلناهم الأسفلين).

وأمّا في سورة الأنبياء فإن الله تعالى أخبر فيها عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: (وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) [الأنبياء:57]، ثم أخبر عن الكفار لّما ألقوه في النار وأرادوا به كيداً: (فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)، والكيد: سعي في مضرة على غفلة، فذكر مكايدة بينهم وبين إبراهيم عليه السلام، فكادهم و لم يكيدوه، فخسرت تجارتهم، وعادت عليهم مكايدتهم، لأنه كسّر أصنامهم، و لم يبلغوا من إحراقه مرادهم، فذكر (الأخسرين) لأنهم خسروا فيما عاملهم به وعاملوه من المكايدة التي أضيفت إليهما.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ) [الشورى:49]، فإذا راعينا إلى البنية التركيبية في قوله (يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً) و(يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ) وجدناها متطابقة، فـــ (يهب) فعل مضارع مرفوع، وفاعله مستتر تقديره: هو يعود على اللّه تعالى، و(لمن) متعلقان بـــ (يهب)، وجملة (يشاء) صلة، و(إناثا) مفعول به، و(يهب لمن يشاء الذكور) عطف على الجملة السابقة، ولها الإعراب نفسه، وجملة (يهب لمن يشاء) بدل من جملة (يخلق ما يشاء) بدل مفصل من مجمل.

وقد بدأ سبحانه بذكر الإناث، لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاء، لا لما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاؤه ولا يريده الأبوان.

أو أنه سبحانه قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات، حتى كأن الغرض بيان أن هذا النوع المؤخر عند الناس مقدم عند الله في الذكر.

ونكّر سبحانه الإناث، وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير للذكور بالتعريف، فإن التعريف تنزيه، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم.

ومن الأفعال المتعدية ما يكتسب دلالة إضافية يضفيها عليه الحرف الداخل عليه، كما هو شأن الفعل (علم) الداخلة عليه (حتّى) في قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) [محمد:31]، فـــ"(حتى) حرف انتهاء، وما بعدها غاية للفعل الذي قبلها، وهي هنا مستعملة في معنى لام التعليل، تشبيهاً لعلة الفعل بغايته، فإن غاية الفعل باعث لفاعل الفعل في الغالب، فلذلك كثر استعمال (حتى) بمعنى لام التعليل، كقوله تعالى: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) [المنافقون:7] إذ المعنى: ولنبلونكم لنعلم المجاهدين منكم والصابرين، وليس المراد انتهاء البلوى عند ظهور المجاهدين منهم والصابرين.

وعلة الفعل لا يلزم انعكاسها، أي لا يلزم أن لا يكون للفعل علة غيرها، فللتكليف عِلل وأغراض عديدة، منها أن تظهر حال الناس في قبول التكليف ظهوراً في الدنيا تترتب عليه معاملات دنيوية"[1].

وعلم الله الذي جُعِل علة للبَلْوِ هو العلم بالأشياء بعد وقوعها المسمى علم الشهادة، لأن الله يعلم من سيُجاهد، ومن يصبر من قبْلِ أن يبلوهم، ولكن ذلك علم غيب، لأنه علم قبل حصول المعلوم في عالم الشهادة.

وقد يكون (حتى نعلم) مستعملاً في معنى حتى نظهر للناس الدعاوي الحق من الباطلة.

الجملة الفعلية ذات الفعل الجامد:

ومن الجمل الفعلية الجملة ذات الفعل الجامد، ومن غريب ما جاء في القرآن الكريم إعادة الجملة نفسها مع اختلاف بسيط في التركيب لاختلاف المقام ومن ذلك قوله تعالى في سورة الزمر: (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) [الزمر]

وقوله في سورة غافر: (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)) [غافر].

وقوله في سورة النحل: (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) [النحل].

1 ــ التحرير والتنوير: 26/123ــ124.

وهي جمل مستأنفة، وجملة (ادخلوا) مقول القول، و(أبواب جهنم) مفعول به، و(خالدين) حال، و(فيها) جار ومجرور متعلقان بـــ(خالدين)، والفاء استئنافية، و(بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذم، و(مثوى المتكبرين) فاعله، والمخصوص بالذم محذوف، أي: هي.

وخصت الآية في سورة النحل وحدها بدخول اللام على قوله (لبئس) فيها، وأخليت الآيتين من سورتي الزمر وغافر، وذلك أن الآية من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله، وإنما هو أساطير الأولين، قال الله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤)لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) [النحل:24–25]، وهؤلاء أكثر الناس وأشدهم آثاما، وأشدهم عقابا، ومن هذه صفته احتيج عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه، فاختيرت اللام لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: (وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) [النحل:30] فاللام في (ولنعم) بإزاء اللام في (لبئس).

وليس كذلك الآيتان في سورتي الزمر وغافر، لأنهما في ذكر جملة الكفار، قال الله تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا) [الزمر:71]، وقال في سورة غافر: (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) [غافر:70] إلى قوله: (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) [غافر:76]

فلما كان المذكورون في سورة النحل ممن لزمهم وزران، عن ذنوبهم التي أتوها، وعن ذنوب غيرهم التي حملوا عليها، و لم يذكر من سواهم في الآيتين الأخريين بحمل أثقالهم حسن التوكيد هناك، فلذلك خص باللام[1].

الجملة الفعلية ذات الفعل المبني للمجهول:

في العربية قد يترك الفاعل لغرض لفظي أو معنوي، كالعلم به، أو للجهل به، أو تعظيمه، فيصان اسمه عن أن يقترن باسم مفعول، أو تحقيره، أو خوف منه، أو خوف عليه، أو قصد إبهامه، أو إقامة وزن الشعر، و إصلاح السجع، فينوب عنه المفعول به فيما له من رفع، و عمدية، ووجوب تأخير، و امتناع حذف، و يترل مترلة الجزء[2].

1 ــ ينظر درة التنزيل:1/837ــ839.

2 - ينظر همع الهوامع:2/262 - 263

و إضافة إلى ما تدل عليه الصيغ الخاصة بالفعل المبني للمجهول، فإن لـــ "العربية صيغة أخرى هي صيغة الفعل المطاوع، فيقول القائل (انفتح الباب) ويعبر ذلك عن معنى لا تدل عليه دلالته الدقيقة كل من صيغة المبني للمعلوم و صيغة المبني للمجهول"[1].

وذلك كقوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) [محمد:14].

حيث"(بني فعل (زُيّن) للمجهول، ليشمل المزيّنين لهم من أيمة كفرهم، وما سولته لهم أيضاً عقولهم الآفنة من أفعالهم السيئة اغتراراً بالإلف أو اتباعاً للذات العاجلة"2.

ومن أسرار البناء لما لم يسمّ فاعله ما ورد في سورة الإنسان، في قوله تعالى: (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْـــدِيرًا (16) [الإنسان].

وقال بعده: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) [الإنسان]..

فذكر في الآية الأولى (ويطاف عليهم) وهو فعل ما لم يسمّ فاعله، وبعده: (ويطـــوف عليهم) وهو فعل سمّي فاعله.

وذلك أن القصد في الأولى إلى وصف ما يطاف به من الأواني دون وصف الطـــائفين بها، فلمّا كان المعتمد بالإفادة ذاك، بني الفعل مقصودا به ذكر المفعول به لا الفاعل، فقـــال تعالى: (بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ) [الإنسان] أي: آلات من فضة صفاؤها كصفاء القوارير، لا تمنع أن يرى ما وراءها، وقد قـــدّرت علـــى صـــفة فجاءت على ما قدّرت وفقا لمنية المتمنّ، أو قدرت تقدير ما يسع الريّ، أو قدّرت على ما يريد الشارب أن يكون عليه، لا زيادة ولا نقصان.

ثم قال تعالى: (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا) [الإنسان:17]، فوصف بعدها الإناء الذي تسبق العين إليه ما يحويه من مشروب وطيبه، فلذلك لم يسمّ فاعل (ويطاف)، ولأنه جاء بعد قوله: (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا) [الإنسان:14].

1 – أشتات مجتمعات في اللغة و الأدب : عباس محمود العقاد ، دار المعارف مصر 1963 – ص: 63

2 ــ التحرير والتنوير: 93/26.

وأمّا الموضع الثاني الذي سُمّي فيه الفاعل، وهو قوله: (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) فإن القصدْ فيه إلى وصف الفاعلين الذين يطوفون بهذه الآنية، فوجب ذكرُهم لتتعلّق الصفة بهم، فقال تعالى: (ويطوف عليهم ولدان مخلدون).

وقوله: (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا) في صفاءِ ألوانهم، وضياءِ وجوههم وحسنِهم وإشراقِهم، وماءِ النعيم المترقْرِق فيهم، وإذا كان كذلك أوجب ما بنى عليه الكلام أنْ لا يسمّى الفاعل في الأول، ويسمى في الثاني كما جاءت عليه الآيتان.

وظاهرة بيانية أخرى مطردة في القرآن الكريم، وتكثر في الربع الأخير منه، قل أن يخطئها النظر في وصف أحداث اليوم الآخر، وهي أن القرآن الكريم يصرف الحدث عمداً عن محدثه، فلا يسنده إليه، وإنما يأتي به مبنياً للمجهول، أو مسنداً إلى غير فاعله، على المطاوعة أو المجاز:

كقوله تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) [الزلزلة:1].

وقوله:(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ..) [الحاقة:13ـ14]

وقوله:(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) [الواقعة:4ـ5].

وقوله: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ....) [النبأ:18ـ20]

وقوله (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ .....) [المرسلات:8ـ9ـ10]

وقوله تعالى: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) [التكوير:1ـ14].

وقوله تعالى: (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) [العاديات:9ـ10]

وقد شغل أكثر المفسرين والبلاغيين بتأويل الفاعل، عن الالتفات إلى إطـــراد هـــذه الظاهرة الأسلوبية في أحداث القيامة.

فمن التكلف تأول الفاعل في هذه المواقع، مع وضوح العمد في البيـــان القـــرآني إلى صرف النظر عنه، فلا نتعلق بما لم يشأ لنا الكتاب المحكم أن نتعلق به، وقد هدى تدبر هذه الظاهرة الأسلوبية، إلى أن البناء للمجهول تركيز للاهتمام بالحدث، بصرف النظـــر عـــن محدثه، وفي الإسناد المجازي أو المطاوعة، تقرير لوقوع الأحداث في طواعية تلقائية، إذ الكون مهيأ للقيامة على وجه التسخير، والأحداث تقع تلقائياً لا تحتاج إلى أمر أو فاعل.

فـــ"قول بعض المفسرين إن الفاعل حذف للعلم به، غير ملتفـــتين إلى أنهـــا ظـــاهرة أسلوبية مطردة في أحداث اليوم الآخر، وقد شغلهم الصنعة البلاغية، عن الالتفات إلى ما في القرآن من أفعال لا تحصى بنيت للمعلوم مسندة إلى الله تعالى، مع العلم بالفاعل يقيناً، فهو سبحانه خلق السموات والأرض، ونزل القرآن على عبده، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، والله يروق من يشاء بغير حساب، ويعلم الغيب، والرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان ..... مما يؤنس إلى أن العلم بالفاعل ليس هو السر البياني في بناء (زُلْزِلَت) للمجهول، وإنما هي كما قلنا آنفاً، ظاهرة أسلوبية تطرد في مثل هذا الموقـــف، تركيـــزاً للاهتمـــام في الحدث ذاته، وإيحاء بأن الأرض تزلزل عن طواعية ، واستجابة لتسخير تلقائي ....."[1].

ومجيء الفعل ماضياً، تقرير لأنه حادث فعلاً، وقد صـــدر بـــــ(إذا) ، فـــصرفته إلى المستقبل دون أن يفقد التعبير أثره الذي يوحى به استعمال الماضي، بـــدلاً مـــن المـــستقبل الصريح، على أن المباغتة في (إذا) لها أثرها في هذا الموقف.

أما الصنعة الإعرابية، فالتمس لها المفسرون عاملاً مضمراً في إذا، تقديره عند بعضهم: اذكر، وعند آخرين: تحشرون، أي: يوم تزلزل الأرض زلزالها تحشرون[2].

وسرُّ البيان وراء كل هذا، و مناط القوة في التعبير هو بغتة المفاجأة، وتأكيد الحدث، وصرف الذهن إليه.

ومن ذلك قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) فجاء فعل (وَقِيلَ) بصيغة المضيّ وهو واقع في المستقبل، لأنه

1 ــ التفسير البياني: 82/1.

2 ــ ينظر البحر المحيط: 496/8.

لتحقق وقوعه نزل منزلة فعل مضَى، ويمكن أن تكون جملة (وقِيلَ للظالِمِينَ) في موضع الحال بتقدير (قد)، فـــلا يحتاج إلى تأويل صيغة المضيّ على معنى الأمر المحقق وقوعه.

ومن البناء للمجهول على صيغة الماضي قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) [الزمر:68]، وعبر بالماضي في قوله: (ونُفِخَ) مجازاً لأنه محقق الوقوع، مثل قوله: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ) [النحل:1]، ويجوز أن تكون الواو للحال بتقدير (قد) أي: والحال قد نفخ في الصور، فتكون صيغة الماضي في فعلي (نُفِخَ) مستعملة في حقيقتها، والبناء للمجهول يوحي بهول الموقف، إذ لا يتجه اهتمامهم للنافخ، بقدر اهتمامهم بما هم فيه من أمر، وابتدأت الجملة بحديث النفخ في الصور، إذ هو ميقات يوم القيامة، وما يتقدمه من موت كل حي على وجه الأرض.

وإنما ذكرت النفخة الثانية في هذه الآية، ولم تذكر في قوله في سورة النمل في قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)، لأن تلك في غرض الموعظة بفناء الدنيا، وهذه الآية في غرض عظمة شأن الله في يوم القيامة، وكذلك وصف النفخة بالواحدة في سورة الحاقة في قوله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣)وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥)وذكرت في الزمر نفختان.

وفي نهاية هذا المبحث يلوح تنوع الجملة الفعلية المثبتة بما يلائم الغرض في كل آيـــة، فتوصلها في أدق عبارة و ألطف معنى .

إذ رأينا استعمال الفعل اللازم للدلالة على المدح والإنشاء، أو لقصد ثبوت الفعـــل للفاعل لا بيان وقوعه على المفعول، كما نزّل الفعل المتعدي منزلة اللازم لأغراض متعـــددة، وتنوعت حروف التعدية بما يلائم كل مقام، فيتعدى الفعل في سياق بحرف، ثم يتعـــدى في سياق آخر بحرف أخر، فأنتج ذلك فروقا بلاغية دقيقة المسلك، وقد يتعدى الفعل المفعـــول الظاهر إلى المفعول المضمر، لقصد الانحراف بالدلالة لغير الظاهر، أو لتقريب زمن الحال من زمن المضي، وقد يؤتى بالمفعول جملة، وقد يؤتى به مفردا لملمح بلاغي معين، وقد يحـــذف المفعول قصدا للتعميم.

كما سجلنا في الجملة الفعلية دخول اللام وسوف على الفعل المضارع من غير توكيده بالنون، على خلاف القاعدة النحوية، في قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ) [الضحى:5]

وعلى عكس الفعل المتصرف ندر استخدام الفعل الجامد فانحصر في (بئس) و(عسى).

وحينما يتركز اهتمام الجملة القرآنية على الحدث دون المحدِّث فإن الفعل يبنى للمفعول (للمجهول) دون أن يسند إلى فاعل معلوم، أو ينحرف الأسلوب نحو المطاوعة والمجاز.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2ــ الجملة الفعلية المنفية:

سبق تعريفنا للجملة الفعلية و قلنا أنها هي الجملة التي تتضمن عملية إسنادية واحـــدة يشكل الفعل فيها المحور الرئيس باعتباره مسندا، و المنفية هي ما تقدم الفعل فيها أحد أدوات النفي ينقل مضمون البنية بها إلى جهة السلب، حيث تنف علاقة الإسناد بين الفعل و فاعله في زمن معين.

يقول سيبويه عن نفي الجملة الفعلية و أدواتها: " إذا قال: فعل، فإن نفيه (لم يفعـــل)، وإذا قال: قد فعل، فإن نفيه (لّما يفعل)، وإذا قال: لقد فعل، فإن نفيه (ما فعل)، وإذا قال: هو يفعل، أي: هو في حال لفعل، فإن نفيه (ما يفعل)، وإذا قال: هو يفعل و لم يكن الفعـــل واقعا، فنفيه (لا يفعل)، وإذا قال: ليفعلن، فنفيه (لا يفعل)، و إذا قال: سوف يفعل، فـــإن نفيه (لن يفعل)"[1].

والغالب في الجملة الخبرية المنفية استعمال المضارع للدلالة على المضي، لأنه هو الذي يضام أكثر أدوات النفي[2].

النفي بـــ(لا):

ومن أغراضه التعريض، قال تعالى: (وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [يس:22]

و(ما) استفهامية في موضع رفع بالابتداء، والمجرور من قوله: (لِي) خبر عن (مَآ) الاستفهامية، و"جملة (لا أَعْبُدُ) حال من الضمير، والمعنى: وما يكون لي في حال لا أعبد الذي فطرني، أي: لا شيء يمنعني من عبادة الذي خلقني، وهذا الخبر مستعمل في التعريض بهم، كأنه يقول: وما لي لا أعبد وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، بقرينة قوله: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، إذ جعل الإسناد إلى ضميرهم تقوية لمعنى التعريض، وإنما ابتدأه بإسناد الخبر إلى نفسه لإبرازه في معرض المناصحة لنفسه، وهو مريد مناصحتهم ليتلطّف بهم، ويدارئهم، فيسمعهم الحق على وجه لا يثير غضبهم، ويكون أعون على قبولهم إياه حين يرون أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه"[3].

1 - الكتاب. سيبويه. ط الخانجي ــ 117/3 .

2 - اللغة العربية معناها و مبناها: ص: 248 .

3 ــ التحرير والتنوير: 367/22.

ومنه الدلالة عل تجدد حالة النفي في قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) [الكافرون: 1ــ6]،

فأنت ترى الرسول (صلى الله عليه وسلم) نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين: الفعلية والاسمية (لا أعبد ما تعبدون) و (لا أنا عابد)، وبالفعلين المضارع والماضي (تعبدون) و(عبدتم)، ونفى عن الكافرين العبادة الحقة بصيغة واحدة مرتين هي الصيغة الاسمية: (ولا أنتم عابدون ما أعبد).

ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة في جميع الأزمنة، وهذا غاية الكمال، إذ لو اقتصر على الفعل لقيل: إن هذا الأمر حادث قد يزول، ولو اقتصر على الاسم لقيل: صحيح أن هذه صفة ثابتة، ولكن ليس معناه أنه مستمر على هذا الوصف لا يفارقه، فإن الوصف قد يفارق صاحبه أحيانا، بل معناه إن هذا وصفه في غالب أحواله، فالحليم قد يغضب ويعاقب، والجواد قد يأتيه وقت لا يجود فيه، إذ ليس هو في حالة جود مستمر لا ينقطع، والرحيم قد يأتيه وقت يغضب فلا يرحم، ولئلا يُظن ذاك في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلن براءته من معبوداتهم بالصيغتين الفعلية الاسمية، الصيغة الفعلية الدالة على الحدوث، والصيغة الاسمية الدالة على الثبات، ليعلم براءته منها في كل حالة.

ثم إنه استغرق الزمن الماضي والحال والاستقبال باستعماله الفعل الماضي والمضارع، في حين نفاه عنهم بالصيغة الاسمية فقط، فإصراره هو على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم، والنفي عنه أدوم وأبقى من النفي عنهم.

ثم إنه لما خاطبهم بالصورة الاسمية قائلا: (قل يا أيها الكافرون) نفى عنهم العبادة الحقة بالصورة الاسمية أيضا فقال: (ولا أنتم عابدون ما أعبد)، فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات أيضا، وهو تناظر جميل، ومن جميل استعمال القرآن للفعل والاسم أنه يستعملهما استعمالا مناسبا مع وقوع الحدث في الحياة، فإذا كان مما يتكرر حدوثه ويتجدد استعمله بالصورة الفعلية، وإذا لم يكن كذلك استعمله بالصورة الاسمية.

وممّا سيق لأجله النفي بـــ (لا) استغراق الجنس حينما يكون فاعله نكرة في قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥)وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) [الفجر] فـــ (أحد) مستعمل في النفي لاستغراق جنس الإنسان، و(أحَدٌ) في سياق النفي يعمّ كل أحد، قال تعالى: (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)[الانفطار:19] .

ومن ذلك قوله تعالى: (فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [يس:54]، وفيها الفاء استئنافية، و(اليوم) ظرف متعلق بـــ (تظلم)، و(لا) نافية، و(تظلم) فعل مضارع مبني للمجهول، و(نفس) نائب فاعل، و(شيئا) مفعول مطلق، و(لا تجزون) عطف على (لا تظلم)، و(إلا) أداة حصر، و(ما) مفعول به ثان لتجزون، وجملة (كنتم) صلة، وجملة (تعملون) خبر (كنتم).

ووقوع (نَفْسٌ) و(شَيْـــئاً) وهما نكرتان في سياق النفي لإفادة العموم، فيعمّ انتفاء كل ذلك عن كل نفس، وانتفاء كل شيء من حقيقة الظلم، وذلك يعمّ جميع أنفس المعاقَبين، أي: أن جزاءهم على حسب سيّئاتهم جزاء عادل.

ومثل ذلك قوله تعالى: (يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا ....) [الدخان:41] فـــ(يوم) يمكن أن يكون بدلا من (يوم الفصل) في قوله تعالى: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ) [الدخان:40]، وأن يكون ظرفا لما دلّ عليه (الفصل)، أي: يفصل بينهم يوم لا يغني..، وجملة (لا يغني) في محل جر بإضافة الظرف إليها، و(مولى) فاعل، و(عن مولى) جار ومجرور متعلقان بـــ (يغني)، و(شيئا) مفعول به، أو مفعول مطلق.

وتنكير (مولًى) في سياق النفي لإفادة العموم، أي لا يغني أحد من الموالي كائناً من كان عن أحد من مواليه كائناً من كان.

وتنكير (شيئاً) للتقليل، وهو الغالب في تنكير لفظ شيء ، كما قال تعالى: (وشيءٍ من سِدْرٍ قليل)[سبأ:16]، ووقوعه في سياق النفي للعموم أيضاً، يعني: أيَّ إغناء كان في القلة بَلْهَ الإغناء الكثير، والمعنى: يوم لا تغني عنهم مواليهم، فعُدل عن ذلك إلى التعميم لأنه أوسع فائدة، إذ هو بمنزلة التذييل[1].

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 312/25.

وقد تأتي (لا) لنفي الكلمة المفردة كقوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [ص:59] (لا) نافية، و(مرحبا) منصوب على المصدر، و(بهم) متعلقان بـــ (مرحبا)، وفي الجملة المنفية وجهان: أحدهما أنها مستأنفة، سيقت للدعاء عليهم بضيق المكان، أو حالية، أي: هذا فوج مقتحم مقولا لهم لا مرحبا بهم.

قال ابن عاشور: "و(لاَ مَرْحَباً) نفيٌ لكلمةٍ يقولها المزور لزائره، وهي إنشاء دعاء الوافد، و(مرحباً) مصدر بوزن المفعل، وهو الرُّحب بضم الراء، وهو منصوب بفعل محذوف دل عليه معنى الرحب، أي أتيت رحباً، أي مكاناً ذا رحب، فإذا أرادوا كراهية الوافد والدعاء عليه قالوا: لا مرحباً به، كأنهم أرادوا النفي بمجموع الكلمة،...وذلك كما يقولون في المدح: حبّذا، فإذا أرادوا ذمّاً قالوا: لا حبّذا"[1].

ومعنى الرحب في هذا كله: السعة المجازية، وهي الفرح ولقاء المرغوب في ذلك المكان، بقرينة أن نفس السعة لا تفيد الزائر، وإنما قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يكونوا هم وأتباعهم في مكان واحد جرياً على خلق جاهليتهم من الكبرياء واحتقار الضعفاء.

قال القرطبي: "(لا مَرْحَباً بِهِمْ) أي: لا اتسعت منازلهم في النار، والرحب السعة، ومنه رحبة المسجد وغيره، وهو في مذهب الدعاء فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لا مرحباً بِغَدٍ ولا أهلاً به   إن كان تفريق الأحبة في غدِ[2]

قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا مرحبا بك؛ أي لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت"[3].

ومثلها القول في الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [ص:60]

---

1 ـــ التحرير والتنوير:288.289/23.

2 ـــ ديوان النابغة الذبياني. ص: 38. البيت للنابغة الذبياني من قصيدة مشهورة مطلعها:

أمن آل مَيّةَ رائحٌ، أو مُغتَد،   عَجلانَ، ذا زاد، وغَيرَ مُزوَّدِ

أفِد الترحّلُ، غير أن ركابنا   لَمّا تزُل برحالنا، وكـــأن قَدِ

3 ـــ الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجـــي شمـــس الـــدين القـــرطبي (المتوفى:671 هـــ).تحقيق : هشام سمير البخاري. دار عالم الكتب. الرياض . المملكة العربية السعودية. الطبعة: 1423 هـــ/ 2003 م. ـــ 223/15.

ومن النكت الواردة في الجمل المنفية اختلاف دلالة المستثنى في قوله تعالى: (...وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا (٢٤)[نوح]

وقوله في أخر السورة: (..وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا (٢٨)[نوح].

فبالرغم من تشابه البنيتين الشكليتين للآيتين إلا أن الأول اختص بالإضلال، واختص الثاني بالإهلاك الذي هو التبار.

ذلك أن الأول جاء بعد قوله: (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا..) [نوح:23ــ24] فأمروا أتباعهم بالتمسك بعبادة هذه الأصنام، وأضلوهم عن طريق الرشاد، فدعا عليهم نوح عليه السلام بأن يضلهم الله بعد استحقاق العقاب ليجاوب قوله: (وقد أضلوا كثيرا).

وأما الآخر فإن معناه؟ زدهم هلاكا على هلاك، وعذابا فوق عذاب بما وافوا عليه القيامة من كفر وضلال، وذلك عند دخول النار، فاقتضى كلّ من المكانين ما جاء فيه.

ومن نفي الجملة الفعلية بـــ (لا) قوله تعالى: (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت:34]، و(لا) نافية، و(تستوي الحسنة) فعل مضارع، وفاعل، و(لا السيئة) عطف على (الحسنة)، و(ادفع) فعل أمر، و(بالتي) متعلقان بـــ (ادفع)، و(التي) صفة لموصوف محذوف، أي: بالخصلة، و(هي) مبتدأ، و(أحسن) خبر، والجملة صلة.

وجاء تعريف الحسنة لتعم جميع أفراد جنسها، وأُولاها تبادراً إلى الأذهان حسنةُ الدعوة إلى الإسلام، لما فيها من جمّ المنافع في الآخرة والدنيا، وتشمل صفة الصفح عن الجفاء الذي يلقَى به المشركون دعوةَ الإسلام، لأن الصفح من الإحسان، وفيه ترك ما يثير حميتهم لدينهم، ويقرب لين نفوس ذوي النفوس اللينة، وذلك الأمر في تعريف السيئة، فالعطف على هذا من عطف غرض على غرض، وهو الذي يعبر عنه بعطف القصة على القصة.

قال البيضاوي: "(ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) في الجزاء وحسن العاقبة، و(لا) الثانية مزيدة لتأكيد النفي"[1].

1 ــ تفسير البيضاوي. المؤلف: البيضاوي. دار الفكر. بيروت. دت. 115/4.

وينبهنا صاحب التحرير والتنوير إلى فن من فنون الحذف البلاغي بعد تبريره لتكرار (لا)، فيقول: "فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ولا تستوي الحسنة والسيئة، دون إعادة (لا) النافية بعد الواو الثانية، كما قال تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) [غافر:58]، فإعادة (لا) النافية تأكيد لأختها السابقة، وأحسن من اعتبار التأكيد أن يكون في الكلام إيجاز حذف، مؤذن باحتباك[1] في الكلام، تقديره: وما تستْوي الحسنة والسيئةُ ولا السيئة والحسنة، فالمراد بالأول نفي أن تلتحق فضائل الحسنة مساوىء السيئة، والمراد بالثاني نفي أن تلتحق السيئة بشرف الحسنة، وذلك هو الاستواء في الخصائص، وفي ذلك تأكيد وتقوية لنفي المساواة، ليدل على أنه نفي تام بين الجنسين: جنس الحسنة وجنس السيئة لا مبالغة فيه ولا مجاز"[2].

ومن بلاغة القرآن الكريم في الجملة الفعلية المنفية قوله عز وجل في سورة الجمعة: (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦)وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) [الجمعة 6-7]. فاستعمل النفي بـــ (لا) ورفع الفعل بعدها، وقال في سورة البقرة في القصة نفسها: (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) [البقرة:94-95]. فاستعمل (لن) الناصبة في نفي الفعل.

وذلك أن الآية من سورة البقرة لما كانت مفتتحة بشرط علقت صحته بتمني الموت، ووقوع هذا الشرط غاية ما يطلبه المطيع، ولا مطلوب وراءه على ما ادعوا لأنفسهم، وهو أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون غيرهم، فوجب أن يكون ما يبطل تمني الموت المؤدي إلى بطلان شرطهم أقوى ما يستعمل في بابه، وأبلغه في المعنى، وينتفي شرطهم به، فكان ذلك بـــ (لن) التي هي للقطع والثبات، ثم أكدت بقوله تعالى: (أبدا) ليبطل تمني الموت الذي

1 ــ الاحتباك هو أحد أقسام الحذف، و"هو نوع عزيز، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، وفي الثاني ما أثبت نظيره في الأول". هذا ما نقله أحمد مطلوب في تعريف الاحتباك عن برهان الدين البقاعي. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. أحمد مطلوب. مطبعة المجمع العلمي العراقي. 1983م. 56/1.

2 ــ التحرير والتنوير:291/24.

يبطل دعواهم بغاية ما يبطل به مثله، ألا ترى أنه ليس بعد حصول الدار الآخرة خالصة لأمة من الأمم مقترح، ولا مطلب لطالب.

وليس كذلك الشرط الذي علق به تمني الموت في سورة الجمعة، لأنه قال: (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [الجمعة:6] وليس زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس المطلوب الذي لا مطلوب وراءه، لأنهم يطلبون بعد ذلك إذا صح لهم هذا الوصف دار الثواب.

فلما كان الشرط في هذا المكان قاصرا عن الشرط في المكان الأول، ولم تكن الدعوى دعوى غاية مطلوبة، لم يحتج في نفيه وإبطاله إلى ما هو غاية في بابه، فوقع الاقتصار على (لا يتمنونه)، وليس في لفظه معنى التأبيد، وإنما حصل ذلك فيه بمقارنته من قوله (أبدا)، فكان الذي في سورة البقرة أوكد وأبلغ، لأن لفظي الاسم والفعل للتأبيد، فافترق الموضعان لهذا المعنى.

ثمّ إن آية البقرة لما كان الوارد فيها جوابا لحكم أخروي يستقبل، وليس في الحال منه إلا زعم مجرد، واعتقاد أن الأمر يكون كذلك، ناسبه النفي بما وضعه من الحروف لنفى المستقبل، لأن (لن يفعل) جواب سيفعل، ولما كان الوارد في سورة الجمعة جوابا لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وذلك حكم دنيوي ووصف حالي لا استقبال فيه، ناسبه النفي بـــ (لا) التي هي لنفى ما يأتي، وقد تتعاقب مع (ما) التي هي لنفى الحال[1].

ومنه قوله تعالى: (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) [الزمر:61]، ففي (لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (لا) نافية، و(يمسهم السوء) فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل، والواو عاطفة، و(لا) نافية، و(هم) مبتدأ، وجملة (يحزنون) خبر.

و"جملة (لا يمسهم السوء) لا محل لها لأنها مفسرة للمفازة، كأنه قيل: ما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء، ولا يبعد أن تكون في موضع نصب على الحال من الذين اتقوا"[2].

1 ــ ينظر ملاك التأويل: 61/1.

2 ــ إعراب القرآن وبيانه: 533/6.

قال الزمخشري: "فإن قلت: (لا يَمَسُّهُمُ) ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ قلت: أما على التفسير الأوّل: فلا محل له، لأنه كلام مستأنف، وأما على الثاني: فمحله النصب على الحال"[1].

وجملة (لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) مبيِّنة لجملة (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ) لأن نفي مسّ السوء هو إنجاؤهم، ونفي الحزن عنهم نفي لأثر المس السوء، وجيء في جانب نفي السوء بالجملة الفعلية لأن ذلك لنفي حالة أهل النار عنهم، وأهل النار في مسَ من السوء متجدد، وجيء في نفي الحزن عنهم بالجملة الاسمية، لأن أهل النار أيضاً في حزن وغم ثابت لازم لهم.

ومن لطيف التعبير هذا التفنن، فإن شأن الأسواء الجسدية تجدد آلامها وشأن الأكدار القلبية دوام الإحساس بها.

النفي بـــــ(إن):

من ذلك قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) [الجاثية:32] ففي قوله: (إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا) إشكال من جهة النظم ومرجعه الإشكال إلى استثناء الظن من نفسه في قوله : (إن نظن إلا ظناً) فإن الاستثناء المفرغ لا يصح أنْ يكون مفرغاً للمفعول المطلق لانتفاء فائدة التفريع .

والخلاصُ من هذا ما ذهب إليه ابن هشام في (مغني اللّبيب) أن مصحح الاستثناء الظن من نفسه، أن المسْتثنَى هو الظن الموصوفُ بما دل عليه تنكيره من التحقير المشعرِ به التنوينُ[2]، على حد قول الأعشى:

أحـــل به الشيب أثْقاله وما اغتره الشيبُ إلا اغترارا[3]

أي: إلا ظناً ضعيفاً، ومفعولا (نظن) محذوفان لدليل الكلام عليهما، والتقدير: إن نظن الساعةَ واقعة[4].

---

1 ــ الكشاف: 140/4.

2 ــ ينظر مغني اللبيب: 561/3 وما بعدها. 431/6.

3 ــ البيت قاله الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب. ويروى شطره الثاني هكذا: وما اعتره الشيب إلا اعترارا. ديوان الأعـــشى ص:45.

4 ــ التحرير والتنوير: 373/25.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [الأحقاف:26] ففي (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ) الواو: واو القسم، واللام جواب للقسم المحذوف، و(قد) حرف تحقيق، و(مكناهم) فعل، وفاعل، ومفعول به، و(فيما) جار ومجرور متعلقان بـــ (مكناهم)، و(ما) اسم موصول بمعنى الذي، أو موصوفة، وفي (إن) ثلاثة أوجه:

الأول: شرطية وجوابها محذوف، والجملة الشرطية صلة ما، والتقدير: في الذي إن مكنّاكم فيه طغيتم.

والثاني: أنها مزيدة تشبيها للموصولة بما النافية والتوقيتية.

والثالث: ـــ وهو الأرجح ـــ أنها نافية، بمعنى (ما)، أي: مكناهم في الذي ما مكناكم من القوة والبسطة واتساع الرزق، وإنما عدل عن لفظ (ما) النافية إلى (أن) تفاديا من اجتماع متماثلين لفظا[1].

قال أبو حيان: "ولما أخبر بهلاك قوم عاد، خاطب قريشاً على سبيل الموعظة فقال: (وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ)، وإن نافية ،أي: في الذي ما مكناكم فيه من القوة والغنى والبسط في الأجسام والأموال؛ ولم يكن النفي بلفظ ما، كراهة لتكرير اللفظ، وإن اختلف المعنى، وقيل: إن شرطية محذوفة الجواب، والتقدير: إن مكناكم فيه طغيتم، وقيل: إن زائدة بعد ما الموصولة تشبيهاً بما النافية وما التوقيتية،...

أي: مكناهم في مثل الذي مكناكم فيه، وكونها نافية هو الوجه، لأن القرآن يدل عليه ...وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث في الاعتبار"[2].

وحَسُن تعدية فعل (مكناكم) بحرف الظرفية إلى ضمير اسم الموصول الصادق على الأمور التي مُكنت منها عاد، لأن الأجناس والأنواع من الذوات حقائق معنوية لا تتغير مواهبها، وإنما تختلف بوجودها في الجزئيات، وهو الذي يعود عليه الضمير في (مكناكم فيه)، إذ المعنى: مكناكم في مثله أو في نوعه.

1 ـــ إعراب القرآن وبيانه: 177/7ـــ 178.

2 ـــ البحر المحيط: 65/8.

ومن بديع النظم أن جاء النفي هنا بحرف (إنْ) النافية، مع أنَّ النفي بها أقل استعمالا من النفي بـــ (ما) النافية قصداً هنا، لدفع الكراهة من توالي مثلين في النطق وهما (ما) الموصولة، و(ما) النافية، وإن كان معناهما مختلفاً، ألا ترى أن العرب عوضوا الهاء عن الألف في (مهما)، فإن أصلها: (ماما) مركبة من (ما) الظرفية، و (ما) الزائدة، لإفادة الشرط مثل (أينما)[1].

النفي بـــ(ما):

ومن النفي بـــ (ما) قوله تعالى: (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) [غافر:4]، وفيها (ما) نافية، و(يجادل) فعل مضارع، و(في آيات الله) جار ومجرور متعلقان بـــ (يجادل)، و(إلا) أداة حصر، و(الذين) فاعل، وجملة (كفروا) صلة، وقد تضمنت هذه الآية عدة قضايا:

الأول: استعمال صيغة المفاعلة للمبالغة في الفعل من جانب واحد لإفادة التكرر مثل: سافر وعافاه الله، فالفعل (جادل) على وزن فاعل، إذ كان المشركون يتلونون في اختلاق الأباطيل، ويعاودون التكذيب والقولَ الزور، من نحو قولهم: (أساطير الأولين) [الأنعام:25]، (سحر مبين) [المائدة:110]، (قول كاهن) [الحاقة:42]، (قول شاعر) [الحاقة:41] لا ينفكون عن ذلك.

الثاني: حذف المضاف: فالمراد بالمجادلة هنا المجادلة بالباطل بقرينة السياق، فمعنى (في آيات الله) في صدق آيات الله، بقرينة قوله: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [غافر:2] فتعين تقدير مضاف دل عليه المقام، كما دَل قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: (يجادلنا في قوم لوط) [هود:74]، على تقدير: في إهلاك قوم لوط.

الثالث: دلالة تعلق (في) الظرفية بالجدال، و دخولها على نفس الآيات دون أحوالها في قوله: (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ)، كان له موقعٌ عظيم من البلاغة، لأن الظرفية تحْوِي جميعَ أصناف الجدال، وجُعل مجرورُ الحرف نفسَ الآيات دون تعيين نحو صدقِها أو وقوعها أو صنفها ، فكان قوله: (في آيات الله) جامعاً للجدل بأنواعه[2].

1 ــ التحرير والتنوير: 52/26.

2 ــالتحرير والتنوير: 82/24.

الرابع: إظهار اسم الجلالة في قوله: (ما يجادل في آيات الله) مع إمكانية الإضمار بالقول: (في آياته)، لتفظيع أمرها بالصريح، لأن ذكر اسم الجلالة مؤذن بتفظيع جدالهم وكفرهم، وللتصريح بزيادة التنويه بالقرآن.

ومن النفي بـــ (ما) قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [ص:27]، فـــ (ما) نافية، و(خلقنا) فعل، وفاعل، و(السماء) مفعول به، و(الأرض) عطف على (السماء)، و(ما بينهما) عطف أيضا، والظرف متعلق بمحذوف صلة (ما)، و(باطلا) صفة لمصدر محذوف، أي: خلقا باطلا، ويمكن أن يكون حالا من فاعل (خلقنا)، أي: مبطلين، ومصب النفي الحالُ، وهو قوله: (باطِلاً)، فهو عام لوقوعه في سياق النفي.

ومن النفي بـــ (ما) قوله تعالى: (...فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ..) [الجاثية:17] وفي الآية الفاء عاطفة، و(ما) نافية، و(اختلفوا) فعل، وفاعل، و(إلا) أداة حصر، و(من بعد) جار ومجرور متعلقان بـــ (اختلفوا)، و(ما) مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالإضافة، و(جاءهم العلم) فعل، ومفعول به مقدم، وفاعل مؤخر، و(بغيا) مفعول من أجله، و(بينهم) ظرف متعلق بمحذوف صفة لـــ (بغيا).

وتقدير الكلام: فاختلفوا وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، فحذف المفرَّع لدلالة ما بعده عليه على طريقة الإيجاز، إذ المقصود هو التعجيب من حالهم، كيف اختلفوا حينَ لا مظنة للاختلاف!!إذ كان الاختلاف بينهم بعدما جاءهم العلم المعهود بالذكر آنفاً، من الكتاب والحُكم والنبوءة والبينات من الأمر، ولو اختلفوا قبل ذلك لكان لهم عذر في الاختلاف، وهذا كقوله تعالى: (وأضلّه الله على علم)[الجاثية:23].

و"هذا الكلام كناية عن عدم التعجيب من اختلاف المشركين مع المؤمنين، حيث إن المشركين ليسوا على علم ولا هدى، ليعلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه ملطوف به في رسالته"1.

وقد أبطل الاستثناء النفي إذ ما أريد إلا نفي أن يكون الاختلاف في وقت قبل أن يحثهم العلم، فلما استفيد ذلك بالاستثناء صار الاختلاف ثابتاً وما عدا ذلك غير منفي.

1 ــ التحرير والتنوير:346/25.

ومن ذلك قوله تعالى: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى ...) [الأحقاف:9] والواو حرف عطف، (ما) نافية، و(أدري) فعل مضارع مرفوع، وفاعله مستتر تقديره: أنا، و(ما) اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، وجملة (يفعل) بالبناء للمجهول خبرها، وهي معلقة (لأدري) عن العمل فتكون سادّة مسدّ مفعوليها.

ووجه عطف (ولا بكم) على (بي) بإقحام (لا) النافية، مع أنهما متعلقان بفعل صلة (ما)الموصولة، وليس في الصلة نفي، ولم يقل: ما يفعل بي وبكم، لأن الموصول وصلته لما وقعا مفعولاً للمنفي في قوله: (وما أدري) تناول النفي ما هو في حيّز ذلك الفعل المنفي، فصار النفي شاملاً للجميع، فحسّن إدخال حرف النفي على المعطوف، كما حسُن دخول الباء.

قال أبو حيان: "(وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ) أي: فيما يستقبل من الزمان، أي: لا أعلم مالي بالغيب، فأفعاله تعالى، وما يقدر لي ولكم من قضاياه، لا أعلمها، وعن الحسن وجماعة: وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، ومن الغالب منا والمغلوب؟"[1].

وممّا يرجح المعنى الأول بأن قصارى ما يدريه هو اتباع ما يُعلمه الله به، وأن المشركين كانوا يسألون النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) عن مغيبات استهزاء، فيقول أحدهم إذا ضلّت ناقته: أين ناقتي؟ ويقول أحدهم: مَن أبي؟ أو نحو ذلك، فأمر الله الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يعلمهم بأنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم، أي: في الدنيا، وهذا معنى قوله تعالى: (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف:188].

ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) [ق:38] والواو في (وما مسنا من لغوب) واو الحال، لأن لمعنى الحال هنا موقعاً عظيماً من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدة القصيرة، بأنه لا ينصب خالقه، و(ما نافية)، و(مسّنا) فعل ماض، و(نا) مفعول به، و(من) حرف جر زائد، و(لغوب) مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه فاعل، ومعنى (وما مسنا من لغوب): ما أصابنا تعب.

1 ــ البحر المحيط: 57/8.

وحقيقة المسِّ: اللَّمسُ، أي: وضع اليد على شيء وضعا غير شديد بخلاف الدفع واللطم، فعبر عن نفي أقل الإصابة بنفي المسّ لنفي أضعف أحوال الإصابة، واللغوب: الإعياء من الجري والعمل الشديد[1] .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) [الذاريات:42] فـــ (ما) نافية، و(تذر) فعل مضارع مرفوع، وفاعله مستتر تقديره: هي، أي: الريح، والجملة حال من الريح، و(من) حرف جر زائد، و(شي ء) مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول به، وجملة (أتت عليه) صفة لـــ (شي ء)، و(إلا) أداة حصر، و(جعلته) فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في موضع المفعول الثاني لـــ (تذر)، كأنه قيل: ما تترك من شي ء إلا مجعولا، و(كالرميم) جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لـــ (جعلته)، أو الكاف اسم بمعنى (مثل) مفعول به، والرميم مضاف إليه.

وصيغ (تذر) بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة، و(شيء) في معنى المفعول لـــ (تذر)، فإن (مِن) لتأكيد النفي، والنكرة المجرورة بـــ (من) هذه نص في نفي الجنس، ولذلك كانت عامة، إلا أن هذا العموم مخصص بدليل العقل، لأن الريح إنما تُبلي الأشياء التي تمر عليها إذا كان شأنها أن يتطرق إليها البِلى، فإن الريح لا تُبلي الجبال ولا البحار ولا الأودية، وهي تمر عليها، وإنما تُبلي الديار والأشجار والناس والبهائم.

ومن نفي الجملة الفعلية بـــ (ما) قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلا مَا تَتَذَكَّرُونَ) [غافر:58] الواو عاطفة، و(ما) نافية، و(يستوي الأعمى) فعل مضارع، وفاعل، و(البصير) عطف على (الأعمى)، و(الذين آمنوا) عطف على (الأعمى والبصير)، وجملة (آمنوا) صلة، و(عملوا الصالحات) جملة معطوفة داخلة ضمن الصلة، و(لا المسيء) الواو عاطفة، و(لا) زائدة للتوكيد، و(المسيء) عطف على ما قبله، و(قليلا) مفعول مطلق، أو ظرف زمان، و(ما) زائدة، و(تتذكرون) فعل مضارع مرفوع وفاعله.

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 25/326ــ 326.

وقد تكون (قليلاً) حال من (أَكْثَرَ النَّاسِ) في قوله تعالى قبله: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) [غافر]في الآية التي قبلها، و(ما) في قوله: (مَّا يَتَذَكَّرون) مصدرية، وهي في محل رفع على الفاعلية.

قال صاحب إعراب القرآن وبيانه: "و في قوله (و ما يستوي الأعمى والبصير) الآية فن حسن النسق، وفي ترتيب النسق ثلاث طرق: إحداها: أن يجاور المناسب ما يناسبه، كهذه الآية، فالأعمى يجاور البصير، وهذان الوصفان مستعاران لمن غفل عن معرفة الحق في مبدئه ومعاده، وقدم الأعمى في نفي التساوي لمجيئه بعد صفة الذم في قوله: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)، و(الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي: المحسن يجاور المسي ء، وقدم (الذين آمنوا) لمجاورته للبصير، وناهيك بهذه المجاورة شرفا للمؤمن.

وثاني الطريقتين: أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ) [هود:24]

وثالثتهما: أن يقدم مقابل الأول، ويؤخر مقابل الآخر، كقوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩)وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) [فاطر:19ــ20] وهذه الطرق الثلاث يتخير المتكلم في إيرادها حسب مقتضى الحال، ووفق نواميس البلاغة وطرائقها، واللّه أعلم"[1].

ونفيُ الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر، ومن المتبادر أن الأفضل هو صاحب الحال الأفضل، وهو البصير، إذ لا يختلف الناس في أن البصَر أشرف من العمى في شخص واحد.

وإنما قدم ذكر الأعمى على ذكر البصير، مع أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة، والمشبهَ بالبصير أشرفُ من المشبه بالأعمى، إذ المشبه بالبصير المؤمنون، وقدم ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهمّ في المقام بيانَ حال الذين يجادلون في الآيات، إذ هم المقصود بالموعظة.

وأما قوله: (والذين ءامنوا وعَملوا الصَّالحاتِ ولا المُسِيء) فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماماً بشرف المؤمنين.

1 ــ إعراب القرآن وبيانه: 586/6.

وأعيدت (لا) النافية بعد واو العطف على النفي، وكان العطف مغنياً عنها، فإعادتها لإفادة تأكيد نفي المساواة، ومقام التوبيخ يقتضي الإطناب، وكان الظاهر أن تقع (لا) قبل (الذين آمنوا)، فعدُل عن ذلك للتنبيه على أن المقصود عدم مساواة المسيء لمن عَمِل الصالحات، وأن ذكر (الذين آمنوا) قبل المسيء للاهتمام بـــ (الذين آمنوا)، ولا مُقتضي للعدول عنه بعد أن قُضي حق الاهتمام بالذين سبق الكلام لأجل تمثيلهم، فحصل في الكلام اهتمامان.

النفي بـــ(لم):

ومن النفي بـــ(لم) قوله تعالى: (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) [الأحقاف:11] ومعنى الآية: وإذ لم تحصل هدايتهم بالقرآن فيما مضى فسيستمرون على أن يقولوا هو (إفك قديم)، إذ لا مطمع في إقلاعهم عن ضلالهم في المستقبل.

قال صاحب إعراب القرآن وبيانه: "الواو عاطفة، و(إذ) ظرف ماض متعلق بمحذوف، تقديره: ظهر عنادهم، وتسبّب عنه قوله: (فسيقولون)، ولا يعمل في (إذ) (فسيقولون) لتضاد الزمانين، ولأجل الفاء أيضا.

وقيل: إن لم يكن مانع من عمل (فسيقولون) في الظرف إلا تنافي دلالتي المضي والاستقبال فهذا غير مانع، فإن الاستقبال هاهنا إنما خرج مخرج الإشعار بدوام ما وقع ومضى، لأن القوم قد حرموا الهداية وقالوا: هذا إفك قديم، وأساطير الأولين، وغير ذلك، فمعنى الآية إذن: وقالوا إذا لم يهتدوا به هذا إفك قديم، وداموا على ذلك وأصرّوا عليه، فعبّر عن وقوعه ثم دوامه بصيغة الاستقبال، كما قال إبراهيم: (إلا الذي فطرني فإنه سيهدين) [الزخرف:27]، وقد كانت الهداية واقعة وماضية، ولكن أخبر عن وقوعها، ثم دوامها، فعبّر بصيغة الاستقبال، ...ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي ذكرناه هو الوجه، ولكن الفاء المسبّبة دلّت بدخولها على محذوف هو السبب، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم، فوجب تقدير المحذوف عاملا فيه"[1].

أما ابن عاشور فاستبعد تقدير فعل تتعلق به (إذ) بتبنيه غير هذا التقدير، فقال: "وإذ قد حكي أنهم قالوا ما يرادف هذا في آيات كثيرة سابقة على هذه الآية، وأنهم لا يقلعون

1 ــ إعراب القرآن وبيانه: 165/7.

عنه، ولا حاجة إلى تقدير فعل محذوف تتعلق به (إذ)، وحيث قدم الظرف في الكلام على عامله أشرب معنى الشرط، وهو إشراب وارد في الكلام، وكثير في (إذ)، ولذلك دخلت الفاء في جوابه هنا في قوله: (فسيقولون)، ويجوز أن تكون (إذْ) للتعليل، وتتعلق (إذ) بـــ (يقولون)، ولا تمنع الفاء من عمل ما بعدها فيما قبلها على التحقيق، وإنما انتظمت الجملة هكذا لإفادة هذه الخصوصيات البلاغية، فالواو للعطف، والمعطوف في معنى شرط، والفاء لجواب الشرط، وأصل الكلام: وسيقولون هذا إفك قديم إذ لم يهتدوا به"[1].

ومن ذلك قوله تعالى: (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ...) [الحجرات:14] و"استغني بقوله: (لم تؤمنوا) عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مُؤدّاه النهي عن الإعلان بالإيمان، لأنهم مطالبون بأن يؤمنوا ويقولوا آمنا قولا صادقاً لا كاذباً، فقيل لهم (لم تؤمنوا) تكذيباً لهم مع عدم التصريح بلفظ التكذيب، ولكن وقع التعريض لهم بذلك بعد في قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ...) [الحجرات:15] إلى قوله: (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) أي: لا أنتم، ولذلك جيء بالاستدراك محمولاً على المعنى"[2].

وهم قالوا آمنا حين كانوا في شك لم يتمكن الإيمان منهم، فأنبأهم الله بما في قلوبهم، وأعلمهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، لا بمجرد اللسان، لقصد أن يخلصوا إيمانهم، ويتمكنوا منه، تعريضاً بوجوب الصدق في القول، ليطابق الواقع.

النفي بـــ (لن):

ومن النفي بـــ (لن) قوله تعالى: (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) [الزخرف:39] والواو استئنافية، و(لن) حرف نفي ونصب واستقبال، و(ينفعكم) فعل مضارع منصوب بـــ (لن)، و(اليوم) ظرف متعلق بـــ (ينفعكم)، و(إذ) ظرف لما مضى من الزمن بدل من اليوم، ولا يقال إن (إذ) للمضي، واليوم للحال، فلا يجوز البدل لأن الدنيا والآخرة متصلتان، وهما سواء في حكم اللّه وعلمه، فكأن (إذ) مستقبلة، وكأن اليوم ماض، و جملة (ظلمتم) في محل جر بإضافة الظرف إليها، و(أن) وما بعدها في

1 ــ التحرير والتنوير: 23/26.

2 ــ التحرير والتنوير: 265/26.

تأويل مصدر فاعل (ينفعكم)، أي: لن ينفعكم اشتراككم في العذاب، و(في العذاب) متعلقان بـــ (مشتركون)، و(مشتركون) خبر (إن).

وللزمخشري تأويل آخر لفاعل (ينفعكم) حيث يقول: "وقوله أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ تعليل، أى: لن ينفعكم تمنيكم، لأنّ حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب، كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر، وتقوّيه قراءة من قرأ: إنكم بالكسر. وقيل: إذا رأى الممنوّ بشدّة من مني بمثلها: روّحه ذلك ونفس بعض كربه، وهو التأسى ...

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم، لعظم ما هم فيه، فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: إِذْ ظَلَمْتُمْ؟ قلت: معناه: إذ صح ظلمكم وتبين، و لم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة، وإذ: بدل من اليوم"[1].

قال صاحب التحرير: "وقد اجتمع في هذه الآية دوال على ثلاثة أزمنة، وهي: (لن) لنفي المستقبل، و(اليومَ) اسم لزمن الحال، و(إذ) اسم لزمن المضيّ، وثلاثتها منوطة بفعل (ينفعكم)، ومقتضياتها يُنافي بعضها بعضاً، فالنفي في المستقبل ينافي التقييد بـــ (اليوم) الذي هو للحال، و (إذ) ينافي نفي النفع في المستقبل، وينافي التقييد بـــ (اليومَ)، فتصدى الزمخشري وغيره لدفع التنافي بين مقتضى (إذْ) ومقتضى (اليومَ)، بتأويل معنى (إذْ) كما علمت، و لم يتصد هو ولا غيره لدفع التنافي بين مقتضى (اليومَ) الدال على زمن الحال، وبين مقتضى (لن) وهو حصول النفي في الاستقبال، وأنا أرى لدفْعه أن يكون (اليومَ) ظرفاً للحكم والإخبار، أي تقرر اليومَ انتفاءُ انتفاعكم بالاشتراك في العذاب انتفاء مؤبّداً من الآن"[2].

ووقوع فعل (ينفعكُم) في سياق النفي، يدل على نفي أن يكون الاشتراك في العذاب نافعاً بحال، لأنه لا يخفف عن الشريك من عذابه، وأما ما يتعارفه النّاس من تسلّي أحد برؤية مثله ممَّن مُني بمصيبة، فذلك من أوهام البشر في الحياة الدّنيا، ولعلّ الله جعل لهم ذلك رحمة بهم في الدّنيا، وأما الآخرة فعالَم الحقائق دون الأوهام، وفي هذا التوهم جاء قول الخنساء :

ولَولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي[3]

1 ــ الكشاف: 252/4ــ253.

2 ــ التحرير والتنوير: 215/25.

3 ــ ديوان الخنساء. تحقيق و شرح كرم البستاني. دار صادر بيروت. الطبعة الأولى. 1996م - ص:85.

النفي بـــ (لّما):

ومن الجملة الفعلية المنفية بـــ (لّما) قوله تعالى: (أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ) [ص:7] و(لّما) حرف نفي بمعنى (لم)، و(يذوقوا) فعل مضارع مجزوم بـــ (لما)، والواو فاعل، و(عذاب) مفعول به وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة.

إلاّ أن في (لّما) خصوصية، وهي أنها تدلّ على المنفي بها متصل الانتفاء إلى وقت التكلم، بخلاف (لم)، فلذلك كان النفي بـــ (لّما) قد يُفهم منه ترقب حصول المنفي بعد ذلك.

فهي دالة بطريق المفهوم الحاصل من معنى غاية النفي إلى زمن التكلم، أي لا أضمن ما بعد ذلك، وقد ذاقوا عذاب السيف يوم بدر بعد نزول هذه الآية بأربع سنين.

وإضافة (عذاب) إلى ياء المتكلم لاختصاصه بالله، لأنه مُقدِّره، وقاض به عليهم، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً للفاصلة، وأبقيت الكسرة دليلاً عليها، وهو حذف كثير في الفواصل والشعر على نحو حذفها من المنادَى.

قال الزمخشري في قوله تعالى(وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...) [الحجرات:14]: "ما في (لّما) من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعدُ"[1].

والواو فيها للحال، و(لما) حرف نفي وجزم، و(يدخل) فعل مضارع مجزوم بـــ(لما)، و(الإيمان) فاعل، و(في قلوبكم) جار ومجرور متعلقان بـــ (يدخل).

وهو مبيّنٌ لمعنى نفي الإيمان عنهم في قوله: (لم تؤمنوا)، بأنه ليس انتفاء وجود تصديق باللسان، ولكن انتفاء رسوخه، وعقد القلب عليه، إذ كان فيهم بقية من ارتياب، كما أشعر به مقابلته بقوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ....) [الحجرات:15]

واستعير الدخول في قوله: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) للتمكن وعدم التزلزل، لأن الداخل إلى المكان يتمكن ويَسْتقر، والخارج عنه يكون سريع المفارقة له مستوفزاً للانصراف عنه.

---

1 ــ الكشاف:377/4.

وفي نهاية هذا الفصل تبين لنا من تتبعنا للجملة الفعلية المنفية في الربع الأخير من القرآن الكريم توظيف حروف النفي المختلفة، فاستعملت (لا) لإفادة العموم، ونفي الجنس، ودلت على تجدد حالة النفي، واختلفت عن (لن) في كونها دالة على الحال، و(لن) على الاستقبال، كما جاء النفي بـــ (ما) ، و(لم)، و (لّما) أخت (لم)، وهي تدل على أن النفي بها متصل بزمان التكلم، وذلك الفارق بينها وبين (لم)، وهذه الدلالة على استمرار النفي إلى زمن التكلم تؤذن غالباً، بأن المنفي بها متوقع الوقوع، وهي دلالة من مستتبعات التراكيب، وهذا من دقائق العربية.

ومن هنا فقد رأينا ذلك التنوع في الدلالة البلاغية التي تأخذها كل بنية اشتملت على الجملة الخبرية، بعضها عام كدلالة الجملة الاسمية على الثبوت، ودلالة الجملة الفعلية على التجدد والاستمـــرار، وبعضهـــا خاص يتجاوز أحيانا أطر التركيب، وهي من مميزات هذا الكتاب العزيز، حيث تضمن الربع الأخير عددا ضخما من الجمل الفعلية المثبتة، وتليها الجمـــل الاسمية المثبتة أيضا ثم الجمل المنفية الفعلية منها والاسمية، غير أن أهم ما يمكن أن نقوله حول الجملة الخبرية فيها أنها تنحاز إلى جهة واحدة من أساليب تقسيم البنى الخبرية ألا وهو الصـــدق الذي لا يمكن أن يجـــادل فيه إلاَّ معاند.

الفصل الثالث

الفصل الثالث

الجـــــملة الطلبـــــية

المبحث الأوّل: جملة الأمـــــر

المبحث الثاني: جملة النهـــــي

المبحث الثالث: جملة الاستفهام

المبحث الرابع: جملة التمني النداء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ الجملة الطلبية:

يقول ابن فارس في (الطلب): "الطاء واللام والباء أصل واحد، ويدل على ابتغاء الشيء، ويقال طلبت الشيء أطلبه طلبا وهذا مطلبي، وهذه طلبتي، وأطلبت فلانا بما ابتغاه أي: أسعفته به،وربما قالوا أطلبته: إذا أحوجته إلى الطلب، وأطلب الكلأ: تباعد عن الماء حتى طلبه القوم، وهو ماء مطلب"[1].

وقد تناول البلاغيون الطلب بالبحث والدراسة وذلك في تقسيمهم لأنماط الكلام من حيث خبريته وإنشائيته، فانماز الخبري منه باحتماله للصدق والكذب لذاته...وأضافوا (لذاته) لتدخل فيه الأخبار الواجبة الصدق كأخبار الله وأخبار رسله[2]، وأمّا الإنشائي منه فهو بعكس ذلك- أي الذي لا يصلح أن يقال لقائله إنه صادق أو كاذب، وذلك لعدم تحقق مدلوله في الخارج.

وبنية الطلب هي إحدى بنى الجملة العربية الإنشائية، ولا يصح الطلب من غير تصور إذ أنه "يستدعي مطلوبا لا محالة، ويستدعي فيما هو مطلوبه أن لا يكون حاصلا وقت الطلب"[3]، وقد قسم السكاكي الطلب إلى قسمين: قسم يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول، وقسم لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول.[4]

ونبه إلى أن معاني الطلب الأصلي خمسة معان، وهي:الاستفهام، والنداء، والتمني والأمر، والنهي[5]،و"الطلب في الكلام نوعان: طلب بالكلام، وطلب بالأداة، والطلب بالكلام هو طلب الفعل نحو صيغة (إفعل) أو(فَعَالِ) نحو (تراك) أو (نزال) ببناء المصدر، والطلب بالأداة نحو أدوات الاستفهام، وأدوات التحضيض والتنديم، وأدوات التمني، وأدوات الترجي، وأدوات النهي، وأدوات الأمر"[6]. ونبدأه في هذا الربع بجملة الأمر.

1- معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. تحقيق : عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت ، الطبعة الأولى 1990:ج: 417/4 - 418

2 - ينظر علم المعاني: درويش الجندي. مطبعة نهضة مصر. (د. ت) ، ص: 23

3- مفتاح العلوم : السكاكي. ضبط وتعليق : نعيم زوزور. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى 1983- ص: 203.

4- ينظر المصدر نفسه: ص : 302 .

5- ينظر المصدر نفسه: ص : 146.

6- في النحو العربي (قواعد وتطبيق) : مهدي المخزومي. مطبعة مصطفى البابلي. مصر. الطبعة الأولى. 1966م. ص: 165 -166.

1ـ الأمر:

إن ما يزخر به هذا الأسلوب هو خروجه عن مألوف المعنى، أو بالأصح عن معناه الأصلي إلى معان أخرى، لا يدرك دقائقها، ولا يكشف حقائقها، ولا يبصر مواردها إلا من قبس من فكر وثاب، وحس يقظ، كان قد سجله بعض أهل العلم من السلف والخلف، ومن هنا ظهرت وظيفة البلاغة ووجه جدها، من خلال سبر أغوار بليغ النصوص وتحليلها، وبيان أغوار معانيها، ووجوه دلالات تراكيبها، وأسرار حسن تأليفها.

و الأمر أسلوب لغوي يطلب به الآمر من المأمور فهل شيء، أو هو"طلب حصول ما لم يحصل أو دوام ما حصل"[1]، وهو في مجمله صادر ممن هو أعلى إلى من هو أقل منه، وأخرجوا في تعريفه بطلب الفعل النهي، لأنه ينتج ترك الفعل لا طلبه، كما أخرجوا الدعاء و الالتماس لكون المأمور فيهما أعلى مرتبة من الآمر، "و الأمر عند العرب ما إذا لم يفعل المأمور به سمي عاصيا"[2].

و عناية البلاغيين ببنية الأمر لا تقتصر على كونها بنية إنشائية طلبية، و إنما تتجاوزه إلى كونها بنية توليدية كغيرها من بنى الإنشاء، لأنها لا تعرف الالتزام (بأصل المعنى)، بل تحاول أن تنتج ما لم تتعود اللغة إنتاجه، و هذا المنتج يعتمد على تحول موضعي يخرج البنية عن (أصل المعنى)، و يتيح لها إنتاج الكثير مما ليس من مهمتها الأصلية إنتاجه، كالإباحة والتعجيز، و الإهانة، و التسوية، والتهديد، و التمني3.

و للأمر في العربية صيغ مختلفة هي:

1- فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينْ﴾ [البقرة:43]

2- المضارع المقترن بلام الأمر كقوله تعالى: ﴿ لِينفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه ﴾ [الطلاق:7]

---

1 - همع الهوامع: 7/1 .

2 - الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها : أبو الحسن أحمد بن فارس. تحقيق و تقديم :مصطفى التومي. مؤسسة بدران للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. 1964- ص: 179.

3 - ينظر البلاغة العربية قراءة أخرى: محمد عبد المطلب. الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان. 1997م. ص: 292 – 295.

3- اسم فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضرُّكُمْ من ضَلّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:107]

4- المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿وَبالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:83]، وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف:15]

5- الفعل المضارع المقصود به الإنشاء كقوله تعالى: ﴿ لاَ يَمَسُّهُ إلاّ المُطَهَّرُون﴾ [الواقعة:79]

6- الجملة الاسمية المقصودة بها الإنشاء كقولك :(الغسل واجب عليك) .

و زمان الأمر المستقبل في أغلب الأحوال، لأنه لا يؤمر إلا بما سيقع حصوله في المستقبل القريب أو البعيد.

وقد وجدنا في آيات الربع الأخير من القرآن أن الأمر قد يخرج من معناه المتعارف عليه لغويا الذي هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء، فيتلون بألوان شتى من الدلالات والمعاني من ذلك:

ـــ أغراض الأمر ودلالاته:

طلب الدوام على الفعل المأمور به

وذلك في قوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ) [محمد:19].

قال ابن عاشور: "فالأمر في قوله (فاعلم) كناية عن طلب العلم، وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد علم ذلك، وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس، لأن العلم لا يحتمل النقيض، فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله، بل لطلب الثبات، فهو على نحو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) [النساء:136]"[1].

تجديد العمل بفعل الأمر

كالأمر في قوله: (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) [محمد:19] فهو لطلب تجديد الاستغفار إن كان قد علمه النبي (صلى الله عليه وسلم) من قبل وعَمِله، أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعَلَه من قبل.

1 ـــ التحرير والتنوير: 105/26.

التحذير

كما في قوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ...) [الطلاق:1]. فقوله (واتقوا الله ربكم) تحذير من التساهل في أحكام الطلاق، فهو مقام يجب فيه مراعاة حدود الله وعدم تعديها، لأن الله تعالى قال عقبها في الآية نفسها (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)، وهذه الجملة تؤكد معنى التحذير في صيغة الأمر.

التهويل والتعجيب

وذلك في قوله تعالى: (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) [الصافات:73]، فـــ"الأمر بالنظر مستعمل في التعجيب والتهويل، فإن أريد بالعاقبة عاقبتهم في الدنيا فالنظر بصري، وإن أريد عاقبتهم في الآخرة كما يقتضيه السياق فالنظر قلبي، ولا مانع من إرادة الأمرين واستعمال المشترك في المعنيين"[1].

واعتبار المقام ومراعاته يكشف للمتأمل عن معنى لم يكن ليقف عليه أو يتبصر به، إذ لم يكن يضع في اعتباراته ذلك، فالأمر (انظر) هنا للتعجيب والتهويل، لأن المقام مقام تهديد وتخويف، فمعناه في هذا السياق يوحي بدلالات هذين الغرضين.

فالتعجيب ممن أرسل إليهم رسل الله بدلائل وآيات ومعجزات ليؤمنوا بالله ربهم، فما كان منهم إلا الكفر والإعراض، والتهويل من جهة مجيء النذارة بالعذاب، فلم يتعظوا بذلك الإنذار ولا بذلك التخويف الذي جاء به المنذرون، فانظر كيف كانت عواقب أحوال هؤلاء المنذَرين.

قال الألوسي: "(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار، و لم يرفعوا إليه رأسا"[2].

التهديد

كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [فصلت:40]،

1 ــ التحرير والتنوير:128/22.

2 ــ روح المعاني روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. المؤلف: محمود الألوسي أبو الفضل. دار إحياء التــراث العربي. بيروت. (دت) ــ 97/23.

فالأمر في قوله (اعملوا ما شئتم) مستعمل في التهديد، أو في الإغراء المكنّى به عن التهديد، وهو أسلوب قرآني نجده في الكثير من الآيات في سور من غير الربع الأخير، كقوله تعالى في سورة هود: (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) [هود:93].

ومنه قوله تعالى: (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) [الزحرف:83] أي: فأعرض عنهم في حال خَوضهم في الأحاديث، ولَعِبهم في مواقع الجد حين يهزأون بالإسلام، والفاء للفصيحة، و(ذرهم) فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، و(يخوضوا) جواب الطلب ولذلك جزم، و(يلعبوا) عطف على (يخوضوا)، (حتى) حرف غاية وجر، و(يلاقوا) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد (حتى)، والواو فاعل، و(يومهم) مفعول به، و(الذي) صفة، وجملة (يوعدون) صلة، و(يوعدون) مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعل.

ويمكن أن يجُزم فعلا (يخوضوا ويلعبوا) بلام الأمر محذوفة، وهو أولى من جعله جزماً في جواب الأمر، وقد تكرر مثله في القرآن، والأمر هنا مستعمل في التهديد من قبيل (اعملوا ما شئتم) [فصلت:40]، والإتيان بصيغة المفاعلة (يلاقوا) مجاز في أنه لقاء مُحقق.

ومنه قوله تعالى: (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) [الطور:31]، فـــ(قل) فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره أنت، و(تربصوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والأمر في (قُلْ تَرَبَّصُواْ): أمر تهديد من المتربصين هلاك المسلمين، كما كانوا يتربصون هلاك النبي (صلى الله عليه وسلم).

التسوية

وذلك في قوله تعالى: (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [الطور:16]

و"فرع على (اصلوها) أمر للتسوية بين صبرهم على حرها، وبين عدم الصبر وهو الجزع، لأن كليهما لا يخففان عنهم شيئا من العذاب، ألا ترى أنهم يقولون: (سَوَاءٌ عَلَيْنَا

أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) [إبراهيم:21]، لأن جرمهم عظيم لا مطمع في تخفيف جزائه"[1].

وهي الوجهة نفسها التي ارتضاها الزمخشري في تفسيره، فقال: "أي: سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه"[2].

وإن كانت لفظة (سواء) صريحة بذلك المعنى من التسوية بين الصبر وعدمه، ونحو هذا الغرض ما ورد في تفسير قوله تعالى: (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) [التوبة:53].

وقد يقال مثل ذلك في قوله تعالى: (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) [الطور:31] فقد يكون الأمر في (تربصوا) مستعمل في التسوية، بتقدير معنى: سواء عندي تربصكم بي وعدمه، وفرع عليه فإني (معكم من المتربصين) أي: فإني متربص بكم مثل ما تتربصون بي، إذ لا ندري أينا يصيبه ريب المنون قبل.

التنكيل:

وذلك في قوله تعالى: (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) [الذاريات:14]، فـــالأمر في (ذوقوا) مستعمل في التنكيل، لأنهم كانوا يستعجلون العذاب ويستهزؤون بيوم الدين، وحين يقولون: أيان يوم الدين؟ على سبيل الاستهزاء والتهكم، فكان هذا النكال بهم هو جزاءهم، وما يستحقونه، ولا يبعد أن يكون الأمر للإهانة أيضا.

التثبيت:

جاء في تفسير قوله تعالى: (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) [الدخان:10] "الخطاب في (ارتقب) للنبي (صلى الله عليه وسلم)، والأمر مستعمل في التثبيت"[3]، لأن المقام هنا مقام وعد من الله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بالانتقام من أهل الكفر، وهو أيضا مقام وعيد للكافرين على تكذيبهم، فجاء الأمر هنا مفيدا التثبيت في نصرة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، ونصرة دينه، لأن هؤلاء الكفرة كانوا يستهزؤون بالقرآن وبالرسول (صلى الله عليه وسلم).

---

1 ــ التحرير والتنوير: 44/27.

2 ــ الكشاف: 409/4.

3 ــ التحرير والتنوير: 285/25.

الإهانة والتشفي:

وذلك في قوله تعالى: (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨)ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) [الدخان:49]، و"الذوق مستعار للإحساس، وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة، وقوله (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) خبر مستعمل في التهكّم بعلاقة الضدية، والمقصود عكس مدلوله، أي: أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكمي.

وقرأ الجمهور بكسر همزة (إنك)، وقرأ النسائي بفتحها على تقدير لام التعليل، وضمير المخاطب المنفصل في قوله (أنت) تأكيد للضمير المتصل في (إنك)، ولا يؤكد ضمير النصب المتصل إلا بضمير رفع منفصل"[1].

التسخير والتعجيز:

ومما جاء من صيغ الأمر دالا على التسخير والتعجيز قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [الأحقاف:4]، فـ"الأمر في (أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ) مستعمل في التسخير والتعجيز، كناية عن النفي، إن لم يخلقوا من الأرض شيئا، فلا تستطيعوا أن تروني شيئا خلقوه في الأرض، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة، وهو مطالبة المدعي بالدليل على إثبات دعواه"2.

ومن استعمال الأمر في التسخير قوله تعالى: (انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) [المرسلات:29ـ30]

فالأمر بانطلاقهم مستعمل في التسخير، لأنهم تنطلق بهم ملائكة العذاب قسراً، و(ما كانوا به يكذبون) هو جهنم، وجيء هنا بالموصول وصلته لما تتضمنه الصلة من النداء على خطئهم وضلالهم.

وجملة (انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) مقول قول محذوف مستأنف، و(انطلقوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، و(إلى ما) جار ومجرورمتعلقان بـــ (انطلقوا)،

1 ــ التحرير والتنوير: 316/25.

2 ــ التحرير والتنوير: 9/26.

وجملة (كنتم) لا محل لها لأنها صلة (ما)، وكان، واسمها، و(به) متعلقان بـــ (تكذبون)، وجملة (تكذبون) خبر (كنتم)، والعائد الضمير في (به).

وجملة (انطلقوا إلى ظل) إلى آخرها، بدل اشتمال أو مطابقٌة من جملة (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون)، و (إلى ظل) متعلقان بـــ(انطلقوا)، و(ذي ثلاث شعب) نعت لـــ (ظل)[1].

وأعيد فعل (انطلقوا) مع حرف الجر (إلى) على طريقة التكرير لقصد التوبيخ أو الإهانة والدَّفْع، إذ كان من المفترض أن يقال: انطلقوا إلى ما كنتُم به تكذبون ظِلٍ ذي ثلاث شعب، فإعادة العامل في البدل للتأكيد في مقام التقريع[2].

توكيد الأمر بتكرار الفعل:

وقد ورد الأمر بالفعل الواحد مكررا للتوكيد، أو لاختلاف متعلق الفعلين في تركيبين متقاربين: كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [الحشر:18] فكرر الأمر بالتقوى على سبيل التوكيد، أو لاختلاف متعلق بالتقوى، فقد تكون الأولى في أداء الفرائض، لأنه مقترن بالعمل؛ والثانية في ترك المعاصي، لأنه مقترن بالتهديد والوعيد.

ولما كان أمر القيامة كائناً لا محالة، عبر عنه بالغد، وهو اليوم الذي يلي يومك على سبيل التقريب.

---

1 ــ قال صاحب إعراب القرآن وبيانه: "وفي قوله : « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب » فن طريف من فنون البلاغة أطلق عليه الأقدمون اسم العنوان » وقد تقدمت الإشارة إليه في هذا الكتاب وأنه عبارة عن أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو عتاب أو هجاء أو غير ذلك من الفنون ثم يأتي بقصد تكميله بأمثلة من ألفاظ تكون عنوانا لأخبار متقدمة وقصص سالفة ، ومن نوع عظيم جدا وهو ما يكون عنوانا للعلوم وذلك أن تذكر في الكلام ألفاظ تكون بمثابة مفاتيح لعلوم ومداخل لها ، وهذه الآية التي نحن بصددها من أصدق الدلائل على ذلك فإن قوله : « ظل ذي ثلاث شعب » عنوان للعلم المنسوب إلى إقليدس وهو فيلسوف يوناني وضع كتابا في علم الهيئة والهندسة والحساب ونقله إلى العربية الحجاج بن يوسف الكوفي وعلم الهندسة في الإسكندرية على أيام بطليموس ووضع مبادئ علم الهندسة السطحية وله كتاب الأصول أيضا شرحه ناصر الدين الطوسي وتوفي سنة 283 فإن الشكل المثلث أول الأشكال وهو أصلها ومنه تتركب بقية الأشكال وهو شكل إذا نصب في الشمس كيفما نصب على أي ضلع كان من أضلاعه لا يكون له ظل لتحديد رؤوس زواياه ، فأمر اللّه سبحانه هؤلاء الجهنميين بالانطلاق إلى ظل هذا الشكل تهكما بهم وسخرية منهم"اهـــ. إعراب القرآن وبيانه:175/8.

2 ــ ينظر التحرير والتنوير:435/29.

ومن دلالة الأمر على التعجيز قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [الجمعة:6]، فالأمر في قوله: (فتمنوا) مستعمل في التعجيز: وهو كناية عن التكذيب مثل قوله تعالى: (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [آل عمران:93].

الاعتراض بين التفريع والمفرّع عنه:

ومن دلالة الأمر الاعتراض بين التفريع والمفرّع عنه لتحديد وجهة الخطاب، كما في قوله تعالى: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) [الزمر:64] فـ"الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء:عاطفة على محذوف، و(غير اللّه) نصب بـ(أعبد)، وجملة (تأمروني) اعتراض، و(أعبد) فعل مضارع، والأصل: تأمرونني أن أعبد فحذف (أن) وارتفع (أعبد) كما ارتفع في قول طرفة:

ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[2]".[1]

ثم ساق صاحب كتاب (إعراب القرآن وبيانه) نص أبي البقاء مبينا وجوه إعراب (أفغير الله) في هذه الآية: فقال:

" (أفغير اللّه) في إعرابها أوجه:

أحدها : أنه منصوب بـ (أعبد) مقدما عليه، وقد ضعف هذا الوجه من حيث كان التقدير: أن أعبد، فعند ذلك يفضي إلى تقديم الصلة على الموصول وليس بشيء، لأن (أن) ليست في اللفظ فلا يبقى عملها، فلو قدرنا بقاء حكمها لأفضى إلى حذف الموصول وبقاء صلته، وذلك لا يجوز إلا في ضرورة الشعر.

والوجه الثاني: أن يكون منصوبا بـ (تأمروني)، و(أعبد) بدلا منه: والتقدير: قل: أفتأمروني بعبادة غير اللّه عز وجل، وهذا من بدل الاشتمال، ومن باب أمرتك الخير.

والثالث: أن (غير) منصوب بفعل محذوف، أي: أفتلزموني غير اللّه، وفسره فيما بعد، وقيل: لا موضع لـ (أعبد) من الإعراب، وقيل: هو حال، والعمل على الوجهين الأولين، وأما النون فمشددة على الأصل، وقد خففت بحذف الثانية، وقد ذكر نظائره"[3].

---

1 ـ إعراب القرآن وبيانه: 534/6.

2 ـ في شرح المعلقات السبع: ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى. شرح المعلقات السبع. معلقة طرفة بن العبد. ص:46

3 ـ إعراب القرآن وبيانه: 534/6.

ونون تأمروني نون الرفع، وكسرت للمناسبة، وحذفت نون الوقاية لاجتماع المثلين، ...و(أيها) منادى نكرة مقصودة مبني على الضم، والهاء للتنبيه، والجاهلون بدل من (أيها)[1]، والتقدير: أَأَعْبُدُ غير الله حال كونكم تأمرونني بذلك، ومنه قولهم في المثل: (تَسْمَع بالمعيدي خيرٌ من أَن تراه)، وفي الحديث: (وتعين الرجل على دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعَه صدقة)[2].

فالفاء في قوله: (أفغير الله) لتفريع الكلام المأمور الرسولُ (صلى الله عليه وسلم) بأن يقوله على الكلام الموحَى به إليه ليقرع به أسماع المشركين.

فبعْدَ تقرر الحقائق المذكورة قبل هذه الآية والموجهة إلى المشركين ــ عندهم، وإنذارهم على مخالفة حالهم لما تقتضيه تلك الحقائقُ، أُمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن يوجِّه إليهم هذا الاستفهام الإنكاري منوعاً على ما قبله، إذ كانت أنفسهم قد خَسئت بما جَابَهَها من الكلام السابق، تأييسها لهم من محاولة صرف الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن التوحيد إلى عبادة غير الله[3].

وتوسط فعل (قُل) اعتراض بين التفريع والمفرَّع عنه لتصيير المقام لخطاب المشركين خاصة، بعد أن كان مقام الكلام قبله مقامَ البيان لكل سامع من المؤمنين وغيرهم، فكان قوله: (قُلْ) هو الواسطة في جعل التفريع خاصّاً بهم، وهذا من بديع النظم ووفرة المعاني.

الأمر بالجزء وقصد الكل:

ومن ذلك دلالة الأمر على الكناية عن ما هو أشمل، أو من باب الأمر بالجزء وقصد الكل، كما جاء في قوله تعالى: (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) [النجم:62]، وعادة ما يرتبط السجود بالصلاة، لذا فقد يكون المراد سجود الصلاة، والأمر به كناية عن الأمر بأن يُسلموا، فإن الصلاة شعار الإسلام، كما في قوله تعالى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) [المدثر:42ــ43]، أي: من الذين شأنهم الصلاة، وقد جاء نظيره الأمر بالركوع في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ) [المرسلات:48].

---

1 ــ إعراب القرآن وبيانه: 534/6.

2 ــ رياض الصالحين: الإمام النووي. تحقيق هاني الحاج. دار الإمام مالك. البليدة. الجزائر. الحديث رقم 124. ص:61.

3 ــ ينظر التحرير والتنوير:56/24ــ57.

وعطف على ذلك أمرهم بعبادة الله العبادة الكاملة، وهي التي يُفرد بها، لأنهم إذا خضعوا له حَقَّ الخضوع عبدوه، وتركوا عبادة الأصنام، وقد كان المشركون يعبدون الأصنام بالطواف حولها، ومعرضين عن عبادة الله، إذ عمدوا إلى الكعبة فوضعوا فيها الأصنام، ليكون طوافهم بالكعبة طوافاً بما فيها من الأصنام[1].

ويحتمل أن يكون الأمر في قوله: (فاسجدوا) خطاب المشركين بالتوبيخ، لأن المسلمين أولى بالسجود لله، وليعضد الأمر القولي بالفعل، ليبادر به المشركون، وقد كان ذلك مذكراً للمشركين بالسجود لله، فسجدوا مع النبي (صلى الله عليه وسلم)[2].

الإباحة:

ومن الدلالة على الإباحة قوله تعالى: (..وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى...) [المجادلة:9] والواو عاطفة، و(تناجوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، و(بالبرّ) متعلقان بـــ(تناجوا)، و(التقوى) عطف على (البرّ)، والأمر من قوله: (وتناجوا بالبر) مستعمل في الإباحة كما اقتضاه قوله تعالى: (إذا تناجيتم).

ومثله الأمر قوله تعالى : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الجمعة:10]

فالأمر في (فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) للإباحة، وأما في قوله: (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) [الجمعة:10] فهو احتراس من الانصباب في أشغال الدنيا انصباباً ينسي ذكر الله، أو يشغل عن الصلوات، فإن الفلاح في الإقبال على مرضاة الله تعالى، وفيه تنبيه على أن لهم سعة من النهار يجعلوها للبيع ونحوه من ابتغاء أسباب المعاش، فلا يأخذوا ذلك من وقت الصلاة، وذكر الله.

ومثله في الدلالة على الإباحة قوله تعالى: (...وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [الممتحنة:10] وفيها(الواو) عاطفة، و(اسألوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، و(ما) مفعول به، وجملة (أنفقتم) لا محل لها لأنها صلة (ما)، و(ليسألوا) الواو للمعية، وليست عاطفة، أو أنها عاطفة بمعنى المعية، واللام لام الأمر، و(يسألوا) فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و(ما) مفعول به، وجملة

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 162/27.

2 ــينظر الجامع لأحكام القرآن:124/17.

(أنفقوا) صلة، والمعنى: أي إذا أعطوا ما عليهم، أعطوهم ما عليكم، وإلا فلا، فالواو مفيدة معنى المعية هنا بالقرينة.

فكما تعطونهم مهور أزواجهم اللائي فررْنَ منهم مسلماتٍ، فكذلك إذا فرت إليهم امرأةُ مسلم كافرة، ولا قدرة لكم على إرجاعها إليكم، تسألون المشركين إرجاعَ مهرها إلى زوجها المسلمِ الذي فرّت منه، وهذا إنصاف بين الفريقين، والأمرُ للإباحة في كلا الجملتين.

قال القرطبي موضحا حكم رد عوض المرأة المسلمة الفارة من زوجها المشرك: "وقال قتادة: الحكم في رد الصداق إنما هو في نساء أهل العهد؛ فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليهم الصداق، والأمر كما قاله"[1].

الاهتمام والوجوب والاستحباب:

ومن ذلك دلالة توالي الأوامر على الاهتمام ببعضها، والدلالة على الوجوب والاستحباب كما في قوله تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [التغابن:16]، وفيه "الفاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن شرط مقدّر، أي: إن علمتم أنه تعالى جعل أموالكم وأولادكم فتنة لكم شاغلة عن أمور الآخرة فاتقوا اللّه، و(ما) مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر منصوب بفعل محذوف، أي: جهدكم واستطاعتكم، و(واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا) أفعال أمر معطوفة على اتقوا، و(خيرا) فيه أقوال:

1- قول سيبويه: أنه منصوب بفعل محذوف أي: وائتوا خيرا لأنفسكم، كقوله: (انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ) [النساء:171] وقد اقتصر عليه الزمخشري وأبو البقاء.

2- قول أبي عبيدة: أنه خبر لـــ (يكن) مقدرة، أي: يكن الاتفاق خيرا.

3- قول الكسائي والفرّاء: أنه نعت مصدر محذوف، أي: إنفاقا خيرا.

4- قول الكوفيين: أنه حال.

5- قول بعضهم: أنه مفعول به لقوله (أنفقوا) على تقدير موصوف محذوف، أي: مالا خيرا، و (لأنفسكم) متعلقان بخيرا"[2].

وقد توالت في هذه الآية أربعة أوامر:

1 ــ الجامع لأحكام القرآن:65/18.

2 ــ إعراب القرآن وبيانه: 543/7.

أولها (اتقوا الله)، ثمّ عطفُ (واسمعوا وأطيعوا) على (اتقوا الله) من عطف الخاص على العام للاهتمام به، ولأن التقوى تتبادر في ترك المنهيات فإنها مشتقة من وقَى، فتقوى الله أن يقي المرء نفسه مما نهاه الله عنه، ولما كان ترك المأمورات يؤول إلى إتيان المنهيات، لأن ترك الأمر منهي عنه، إذ الأمر بالشيء نهي عن ضده، كان التصريح به بخصوصه اهتماماً بكلا الأمرين، لتحصل حقيقة التقوى الشرعية، وهي اجتناب المنهيات وامتثال المأمورات، والمراد: اسمعوا الله، أي أطيعوه بالسمع للرسول (صلى الله عليه وسلم) وطاعته.

والأمر بالسمع أمر يتلقَّى الشريعة والإقبال على سماع مواعظ النبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك وسيلة التقوى، قال تعالى: (فَبَشِّرْ عِبَادِي (١٧)الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ (١٨) [الزمر:17ــ18].

ثمّ عطف (وأطيعوا) على و(اسمعوا): أي أطيعوا ما سمعتم من أمر ونهي، وعَطْف (وأنفقوا) تخصيصٌ بعد تخصيص، فإن الإنفاق مما أمر الله به فهو من المأمورات، وصيغة الأمر تشتمل واجب الإنفاق، والمندوبَ، ففيه التحريض على الإنفاق بمرتبتيه، وهذا من الاهتمام بالتراهة عن فتنة المال.

ترتيب الأوامر لمقصد شرعي:

ومن ترتيب الأوامر لمقصد شرعي دون العطف بحرف دال على الترتيب قوله تعالى: (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ...) [الطلاق:2]

أما بنيتها التركيبية فتتألف من الفاء العاطفة، و(إذا) ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة (بلغن) في محل جر بالإضافة، و(أجلهنّ) مفعول به، والفاء رابطة، و(أمسكوهنّ) فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، و(بمعروف) جار ومجرور متعلق بحذوف حال، أو(فارقوهنّ بمعروف) عطف على ما سبق، و(أشهدوا) فعل أمر، وفاعل، و(ذوي) مفعول به، وهو تثنية ذا بمعنى صاحب، و(منكم) صفة لـــ (ذوي عدل)، و(أقيموا) عطف على (أشهدوا)، و(الشهادة) مفعول به، و(للّه) متعلقان بـــ (أقيموا)، أي: لوجه الله.

وظاهر الأمر في (فأمسكوهن) أو (فارقوهن) للإباحة، و (أو) فيه للتخيير، والباء في (بمعروف)للملابسة، أي: ملابسة كل من الإمساك والفراق للمعروف، والمعروف: هو ما تعارفه الأزواج من حسن المعاملة في المعاشرة وفي الفراق.

وتقديم الإمساك (أي:المراجعة) على إمضاء المفارقة، إيماء إلى أنه أرضى لله تعالى وأَوفَقُ بمقاصد الشريعة، مع التعبير عن المراجعة بالإمساك، ففهم أن المراجعة مندوب إليها لأن أبْغض الحلال إلى الله الطلاق.

وتقييد أمر الإباحة من قوله: (فأمسكوهن) أو (فارقوهن) بقيد بالمعروف، يفُهم منه أنّه إن كان إمساك دون المعروف فهو غير مأذون فيه، وهو الإمساك الذي كان يفعله أهل الجاهلية أن يطلق الرجل امرأته، فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها أياماً، ثم طلقها، يفعل ذلك ثلاثاً، ليطيل عليها من العدة فلا تتزوج عدة أشهر إضراراً بها.

ووقوع الأمر بـــ(أَشْهِدُوا) بعد ذكر الإمساك أو الفراق، لأنه راجع إلى كليهما، لأن الإشهاد جُعل تتمة للمأمور به في معنى الشرط للإمساك أو الفراق، لأن هذا العطف يشبه القيد، وإن لم يكن قيداً، وشأن الشروط الواردة بعد جمل أن تعود إلى جميعها.

ثم عطف (وأقيموا الشهادة لله)، للإتيان بالشهادة مستقيمة لأجل الله وامتثال أمره، لا لأجل المشهود له، ولا لأجل المشهود عليه، ولا لأجل منفعة الشاهد، والإبقاء على راحته[1].

الإدامة:

ومن دلالات صيغ الأمر في الربع الأخير الدلالة على إدامة النعمة للامتنان، كالأمر في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) [الملك:15] فصيغتا الأمر في (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) مستعملتان في معنى الإدامة، تذكيراً بما سخّر الله لهم من المشي في الأرض، والأكل من أرزاقها امتناناً بذلك، و استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذليل الأرض ركوبها والأكل منها.

1 ــ لمراجعة الخلاف الفقهي في حكم الإشهاد ينظر الجامع لأحكام القرآن: 158/18.

الوعد والرجوع:

ومن استعمال الأمر في الوعد والرجوع الأمر في قوله تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧)ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨)فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩)وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) [الفجر:27ــ30]

قال ابن عاشور:" فهذا قول يصدر يوم القيامة من جانب القُدُس من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة، فإن كان من كلام الله تعالى كان قوله: (إلى ربك) إظهاراً في مقام الإضمار، بقرينة تفريع (فادخلي في عبادي) عليه، ونكتةُ هذا الإظهار ما في وصف (رب) من الولاء والاختصاص، وما في إضافته إلى ضمير النفس المخاطَبة من التشريف لها.

وإن كان من قول الملائكة فلفظ (ربك) جرى على مقتضى الظاهر، وعطفُ (فادخلي في عبادي) عطف تلقين، يصدر من كلام الله تعالى تحقيقاً لقول الملائكة (ارجعي إلى ربك)"[1].

ثمّ تكلم عن الهدف من الأمر فقال: "والأمر في (ارجعي إلى ربك) مراد منه تقييده بالحالين بعده، وهما (راضية مرضية)، وهو من استعمال الأمر في الوعد والرجوع مجازا، والإضمار في قوله: (في عبادي) وقوله: (جنتي) التفات من الغيبة إلى التكلم"[2].

وفي تركيب الآيات السابقة (يا) حرف نداء، و(أي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم، والهاء للتنبيه، و(النفس) بدل، و(المطمئنة) صفة للنفس، و(ارجعي) فعل أمر مبني على حذف النون، والياء فاعل، و(إلى ربك) متعلقان بـــ (ارجعي)، و(راضية مرضية) حالان، (فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) عطف نسق على (ارجعي)، و(في عبادي) جار ومجرور متعلقان بـــ (ادخلي)، و(ادخلي في جنتي) عطف أيضا، أي: انتظمي في سلكهم وادخلي جنتي معهم.

وفي الإتيان بقوله تعالى: (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) بعد البشرى في قوله: (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) تفصيل بعد الإجمال، لتكرير إدخال السرور على أهلها، أي: ادخلي في زمرة عبادي الصالحين.

---

1 ــ التحرير والتنوير: 341/30.

2 ــ التحرير والتنوير: 341/30.

ثمّ إن في إضافة (جنة) إلى ضمير الجلالة إضافة تشريف لها، كما في قوله: (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) [القمر:55]، وهذه الإضافة هي مما يزيد الالتفات إلى ضمير التكلُّم حسناً بعد طريقة الغيبة بقوله: (ارجعي إلى ربك)، وتكرير فعل (وادخلي) للاهتمام بالدخول بخصوصه تحقيقاً للمسرة لهم.

الدعاء:

وممّا تدل علية صيغة الأمر الدعاء كما في قوله تعالى: (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ..) [غافر:9] فجملة (وَقِهِم السيئات) هو دعاء جامع، إذ السيئات هنا جمع سيئة، وهي الحالة أو الفعلة التي تسوء من تعلقت به، صيغت على وزن فَيْعَلَة للمبالغة في قيام الوصف بالموصوف، مثل قيّم وسيّد وصيقل، فالمعنى: وقِهِمْ من كل ما يسوءهم[1].

والتعريف في (السَّيِّئَاتِ) للجنس وهو صالح لإفادة الاستغراق، ووقوعه في سياق ما هو كالنفي وهو فعل الوقاية يفيد عموم الجنس.

وبهذا تكون قد تنوعت بنية جملة الأمر في الربع الأخير من ناحية استعمال غالبية الصيغ التي يستفاد منها الأمر في اللغة: من الأمر بالصيغة، إلى الأمر باسم المصدر، واسم فعل الأمر والمضارع المقرون بلام الأمر، والإخبار بفعل الأمر، وذلك تفننا في أساليب الإبلاغ، والتي منحت تنوعا دلاليا آخر خرج به الأمر عن أصل الوضع إلى: التعجيز، والاحتقار، والتهديد، والتحذير، والتنكيل، والإهانة، والتشفي، والوعيد، والتسوية في جانب المشركين، أو التعظيم والامتنان، والدعاء، والاستحباب، والإباحة، والاهتمام، والأمر بالجزء وقصد الكل، والدوام ، والتجديد، في جانب المؤمنين، إضافة إلى أصل الوضع في الأمر الذي هو الوجوب.

1 ــ ينظر التحرير والتنوير:93/24.

2 ــ النهي:

النهي نوع من أنواع الإنشاء الطلبي، و"هو طلب الكف عن فعل شيء"[1] على وجه الاستعلاء والإلزام، وله صيغة واحدة هي المضارع المقرون ب(لا) الناهية التي تقع على فعل الشاهد والغائب [2].

ويلاحظ البلاغيون أن التعامل مع بنية النهي "يستدعى حالة شعورية وذهنية تبــدأ فاعليتها من منطقة (الإثبات)، لأن (الكف) فعل يحصل بشغل النفس بضد المنهي عنه، وهو ما يستدعى تقدم الشعور بالمكفوف عنه، لأننا لا نطالب أحدا بعدم الفعل ــ أي تركه ــ إلا وعنده عزم على هذا الفعل، أو على الأقل وعي بإمكانية وقوعه، إذ لا يعقل أن يكــون هناك إنسان لا يعي شيئا عن فعل ما، ولا يعتزم فعله، ثم أمر بتركه"[3].

وقد تخرج صيغة النهي عن معناها الحقيقي إلى معان أخرى تفهم بالقرائن من سياق الكلام[4] .

أغراض النهي:

وقد وجدنا صيغة النهي في الربع الأخير من القرآن الكريم تتخرج على معان بلاغية مختلفة، جمعتها في هذه الأغراض:

التسوية:

من دلالة النهي على التسوية قوله تعالى: (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [الطور:16]، فقوله (أو لا تصبروا) يفيد التسوية، كما أفاد قوله (اصبروا) التسوية "أي: تقول لهم الخزنة: ذوقوا حرها بالدخول فيها، (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ) أي: سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن، فــ (سَوَاءٌ) خبره محذوف، أي: سواء عليكم الجزع والصبر، فلا ينفعكم شيء، كما أخبر عنهم أنهم يقولون : (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا

1 – شرح كافية ابن الحاجب:252/2 .

2 – ينظر شرح الكافية: 252/2.

3 – البلاغة العربية قراءة أخرى. ص: 297.

4 – ينظر الإتقان في علوم القرآن:السيوطي. دار الفكر. بيروت. لبنان (د ت) – 92/1.

أَمْ صَبَرْنَا) [إبراهيم:21]. (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)"[1]، وقال السبكي: "ويمكن أن يكون منها التسوية، مثل (فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا)"[2].

التذكير والإرشاد:

ومن ذلك قوله تعالى: (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) [ص:22]، فالنهي في (لا تشطط) مستعمل في التذكير والإرشاد، لأن النهي صادر من الخصم الذين تسوروا المحراب على داود عليه السلام، والنهي موجه لداود وهو عليه الصلاة والسلام نبي لا يصح في حقه الظلم والجور فينهى عنهما، بل خرج هذا النهي إلى معنى بلاغي وهو التذكير والإرشاد.

قال أبو حيان: "وفي أمرهم له ونهيهم بعض فظاظة على الحكام، حملهم على ذلك ما هم فيه من التخاصم والتشاجر، واستدعوا عدله من غير ارتياب في أنه يحكم بالعدل، وقرأ الجمهور: (لاَ تُشْطِطْ)، مفكوكاً من أشط رباعياً؛ وأبو رجاء، وابن أبي عبلة، وقتادة، والحسن، وأبو حيوة: تشطط، من شط ثلاثياً، وقرأ قتادة أيضاً: تشط، مدغماً من أشط، وقرأ زر: تشاطط، بضم التاء وبالألف على وزن تفاعل، مفكوكاً، وعن قتادة أيضاً: تشطط من شطط، (وَسَوَآء الصّراطِ): وسط طريق الحق، لا ميل فيه من هنا ولا هنا"[3].

وينبئك عن ذلك ما ذكره الألوسي إذ قال في هذا النهي: "وأحد الخصمين قد يقول نحو ذلك للإيماء إلى أنه المحق، وقد يقوله اتهاما للحاكم، وفيه حينئذ من الفظاظة ما فيه.

وعلى ما ذكرنا، أولا: فيه بعض فظاظة، وفي تحمل داود عليه السلام لذلك منهم دلالة على أنه يليق بالحاكم تحمل نحو ذلك من المتخاصمين، لا سيما إذا كان ممن معه الحق، فحال المرء وقت التخاصم لا يخفى"4.

1 ــ الجامع لأحكام القرآن: 64/17.

2 ــ عروس الأفراح: لابن السبكي. ضمن شروح التلخيص. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان ــ 327/2.

3 ــ البحر المحيط: 376/7.

4 ــ روح المعاني: 179/23.

الاهتمام:

ومن الدلالة على الاهتمام تقديم مفعول النهي في قوله تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩)وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) [الضحى:9ــ19]

فــ"صُدر الكلام بـــ (أما) التفصيلية لأنه تفصيل لمجمل الشكر على النعمة، ولما كانت (أمَّا) بمعنى: ومهما يكن شيء ، قرن جوابها بالفاء، واليتيم مفعول لفعل (فلا تقهر)، وقدم للاهتمام بشأنه، ولهذا القصد لم يؤت به مرفوعاً، وقد حصل مع ذلك الوفاء باستعمال جواب (أما) أن يكون مفصولاً عن (أما) بشيء كراهية موالاة فاء الجواب لحرف الشرط. ويظهر أنهم ما التزموا الفصل بين (أما) وجوابها بتقديم شيء من علائق الجواب إلا لإرادة الاهتمام بالمقدم، لأن موقع (أما) لا يخلو عن اهتمام بالكلام اهتماماً يرتكز في بعض أجزاء الكلام، فاجتلاب (أما) في الكلام أثر للاهتمام، وهو يقتضي أن مثار الاهتمام بعض متعلِّقات الجملة، فذلك هو الذي يعتنون بتقديمه، وكذلك القول في تقديم (السائل) وتقديم (بنعمة ربك) على فعليهما"[1].

التحذير:

ومن دلالة النهي على التحذير قوله تعالى: (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) [محمد:35] و"هذا النهي عن الوهن وعن الدعاء إلى السَّلْم تحذير من أمر توفرت أسباب حصوله، فالنفوس متهيئة للإقدام على الحرب عند الأمر بها، وليس نهياً عن وهن حصل لهم، ولا عن دعائهم إلى السلم، لأن هذه السورة نزلت بعد غزوة بدر، وقبل غزوة أُحُد في مدة لم يكن فيها قتال بين المسلمين والمشركين، ولكن التحذير من أن يستوهنهم المنافقون عند توجه أمر القتال، فيقولوا: لو سالمنا القوم مدة حتى نستعيد عُدتنا، ونسترجع قوتنا بعد يوم بدر"2.

ويفسر سيد المقصود من هذا النهي ودلالته على التحذير بقوله: "وهذا التحذير يشي بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة، وتهن عزائمهم دونه، ويرغبون في السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب، وربما كان بعضهم ذوي قرابة في المشركين ورحم، أو ذوي مصالح وأموال، وكان هذا يجنح بهم إلى السلم

1 ــ التحرير والتنوير: 401/30.

2 ــ التحرير والتنوير:130/26.

والمهادنة، فالنفس البشرية هي هي والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن، وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها، وقد نجحت نجاحا خارقا، ولكن هذا لا ينفي أن تكون هناك رواسب في بعض النفوس، وبخاصة في ذلك الوقت المبكر من العهد المدني، وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب"[1].

وقد حاول سيد قطب أن يظهر لنا علة هذا التحذير وذلك بربطه بالتراكيب المختلفة المتصلة به في الآية نفسها، وتتبع خطوات القرآن في توجيه النفوس ومعالجتها فقال:

"فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس، فنحن في حاجة إلى تحري خطوات القرآن في التربية، والنفوس هي النفوس: (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ. وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ. وَاللَّهُ مَعَكُمْ. وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ) .. [محمد:35]

أنتم الأعلون، فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم، أنتم الأعلون اعتقادا وتصورا للحياة، وأنتم الأعلون ارتباطا وصلة بالعلي الأعلى، وأنتم الأعلون منهجا وهدفا وغاية، وأنتم الأعلون شعورا وخلقا وسلوكا .. ثم .. أنتم الأعلون قوة ومكانا ونصرة، فمعكم القوة الكبرى: (وَاللَّهُ مَعَكُمْ) .. فلستم وحدكم، إنكم في صحبة العلي الجبار القادر القهار، وهو لكم نصير حاضر معكم، يدافع عنكم، فما يكون أعداؤكم هؤلاء واللّه معكم؟ وكل ما تبذلون، وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم، لا يضيع منه شيء عليكم: (وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ) ... ولن يقطع منها شيئا لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه.

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم، من يقرر اللّه – سبحانه – له أنه الأعلى، وأنه معه، وأنه لن يفقد شيئا من عمله، فهو مكرم منصور مأجور؟"[2].

وعُطف (وتَدعوا) على (تهنوا) لأنه معمول لِحرف النهي، وهو عطف خاص على عام، من وجهٍ أن الدعاء إلى السلم مع المقدرة من طلب الدعة لغير مصلحة، وإنما خص بالذكر، لئلا يظن أن فيه مصلحة استبقاء النفوس والعُدة بالاستراحة من عُدوان العدوّ على المسلمين[3].

1 ــ في ظلال القرآن:6/3301ــ3302.

2 ــ في ظلال القرآن:6/3301ــ3302.

3 ــ التحرير والتنوير: 26/131.

التعريض بالنهي عن طريق الإخبار:

ومن ذلك النهي بصيغة الإخبار بالفعل كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي) [غافر:66] وفيها (إن) واسمها، وخبرها مقول القول، وجملة (نهيت) خبر (إن)، والتاء نائب فاعل، و(أن أعبد) المصدر المؤول في محل نصب بنزع الخافض، أي: عن عبادة الذين تدعون، وجملة (تدعون صلة)، و(من دون اللّه) حال، و(لما) ظرف بمعنى حين، أو رابطة، و(جاءني البينات) فعل، ومفعول به مقدم، وفاعل مؤخر، وجملة (جاءني) في محل جر بإضافة الظرف إليها.

والمقصود من إسناد النهي إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) التعريضُ بنهي المشركين، فإن الأمر بأن يقول ذلك لا قصد منه إلا التبليغ لهم، وإلا فلا فائدة لهم في الإخبار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام منهي عن أن يعبد الذين يدعون من دون الله.

وفي هذا القول إبطالٌ لعبادة غير الله بدلالة التحذير والتخويف، وهذه دلالة كنائية لأن النهي يستلزم التحذير.

الدعاء:

ومن دلالة النهي على الدعاء قوله تعالى: (رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الممتحنة:5] فـ (ربنا) منادى مضاف، و(لا) ناهية، والمقصود به الدعاء، و(تجعلنا) فعل مضارع مجزوم بلا، و(نا) مفعول به أول، و(فتنة) مفعول به ثان. و(للذين) متعلقان بـ (فتنة)، وجملة (كفروا) صلة الموصول

جاء في إعراب القرآن وبيانه: "وهو يقصد كلمة فتنة ـــ مصدر بمعنى الفاعل، أي: لا تجعلنا فاتنين لهم، بأن ينتصروا علينا فتقصف عقولهم وتفتتن، وتسوّل لهم أنفسهم أنهم على حق"[1].

أو بمعنى المفعول كما قرر البيضاوي أي: لا تجعلنا مفتونين بهم: "بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نحتمله"[2].

1 ـــ إعراب القرآن وبيانه: 496/7.

2 ـــ تفسير البيضاوي: 327/5.

و"قال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم أو بعذاب من عندك، فيظنوا أنهم محقون وأنا مبطلون، فيفتنوا لذلك، وقال قريباً منه قتادة وأبو مجلز، وقول ابن عباس أرجح لأنه دعاء لأنفسهم، وعلى قول غيره دعاء للكافرين"[1].

وقال ابن عاشور في تفسير الآية: "و(اللام) في (للذين كفروا) على الوجهين للملك، أي: مفتونين مسخرين لهم، ويجوز عندي أن تكون (فتنة) مصدراً بمعنى اسم الفاعل، أي لا تجعلنا فاتنين، أي سبب فتنة للذين كفروا، فيكونَ كناية عن معنى لا تغلِّب الذين كفروا علينا، واصرف عنا ما يكون به اختلال أمرنا، وسوءِ الأحوال، كيلا يكون شيء من ذلك فاتناً الذين كفروا، أي: مقوياً فتنتهم فيُفْتَتَنُوا في دينهم، أي: يزدادوا كفراً، وهو فتنة في الدين، أي: فيظنوا أنا على الباطل وأنهم على الحق... واللام على هذا الوجه لام التبليغ وهذه معان جمّة أفادتها الآية.

وأعقبوا دعواهم التي تعود إلى إصلاح دينهم في الحياة الدنيا بطلب ما يصلح أمورهم في الحياة الآخرة، وما يوجب رضى الله عنهم في الدنيا، فإن رضاهُ يفضي إلى عنايته بهم، بتسيير أمورهم في الحياتين، وللإشعار بالمغايرة بين الدعوتين عطفت هذه الواو و لم تعطف التي قبلها"[2].

ثم ذكر مناسبة تذييل الآية باسمين من أسماء الله عزّ وجلّ يتضمنان صفتي العزة والحكمة فقال في قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ): "تعليل للدعوات كلها، فإن التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة (العزيز)، إذ مثله يعامل بمثل ذلك، وطلبَ أن لا يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة (الحكيم)، وكذلك طلب المغفرة، لأنهم لما ابتهلوا إليه أن لا يَجعلهم فتنة الكافرين، وأن يغفر لهم، رأوا أن حكمته تناسبها إجابة دعائهم، لما فيه من صلاحهم وقد جاؤوا سائلينه"[3].

وقد بدا واضحا من خلال هذا المبحث أن القرآن قد استعمل جملة النهي لبيان تشريعه وما يحل وما يحرم على المسلمين، أو الذين يريدون أن يسلموا، موجها إلى المفرد والجمع، بصيغته المعروفة، وبصيغة الإخبار بفعل النهي،كما خرج النهي في بعض السبى إلى

1 ــ البحر المحيط: 254/8.
2 ــ التحرير والتنوير:148/28.
3 ــ التحرير والتنوير:149/28.

الدلالة على الإصلاح والإرشاد أو التوجيه، والتحذير،والتسوية، والاهتمام، والدعاء، والتعريض، أو التنبيه لأمر مغفل عنه، وذلك حسب ما يقتضيه المقام .

ونسبة النهي في هذا الربع الأخير من القرآن الكريم أقل من نسبة الأمر في جملة الطلب،مما يدل على قصر المحظورات في هذا الدين في أشياء قليلة، لكنها فاتكة الخطورة سواء تعلق الأمر فيها بالاعتقاد، أو بتنظيم الحياة العامة للإنسان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3 ــ الاستفهام:

هو مبحث من مباحث الإنشاء الطلبي، وقد جرى عرف الدراسات اللغوية والبلاغية في هذا المبحث على تقسيم أدوات الاستفهام والفروق بينها، ولعل تلك المعاني على أهميتها ممّا ينضوي تحت أصل الدلالة، مما تحاول البلاغة تجاوزه إلى الكشف عن دقائق الأغراض، ومعايشة دلالة الاستفهام المنبعثة في أجزاء التركيب كله، والمنطوية على خافي الحس، وبعيد المعنى في تحليل الجملة، ومن هنا كان مناطها في خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي المتضمن في طلب حصول صورة الشيء في الذهن بأدوات مخصوصة.

والاستفهام بنية طلبية تُقَدَمُ صيغته (استفعال) مؤثر على دلالته الوضعية في طلب (الفهم) بأدوات مخصوصة، فيخرج بذلك مثل قولنا (استفهم عن كذا) أو(فهمني كذا) برغم دلالتها على طلب الفهم، لأن الأولى خبرية لا طلبية، والثانية أمر لا استفهام[1].

وتتجه الدلالة في الاستفهام من الخارج إلى الذهن، أي من السطح إلى العمق، فالمقصود من قولنا: (هل قام محمد؟) حصول القيام الذي في الخارج إلى ذهن المتكلم، والمستهدف الإنتاجي من الاستفهام إدراك وقوع نسبة أو علاقة بين أمرين في الخارج، أو تصور موضوع[2].

ويتعلق الاستفهام إما بالمسند و إما بالإسناد، ويكون بإحدى أدوات الاستفهام، وهي: الهمزة ، وأم، وهل، وأي، وكم، وكيف، وأين، ومتى، و أيان، ومنها ما يختص بطلب التصديق، ومنها ما هو لطلب التصور دون التصديق، ومنها ما هو مشترك بينما.

ويشكل جملة الاستفهام غالبا-قسمان، هما:جملة الاستفهام وجملة الجواب، هذا إن كان الاستفهام حقيقيا، أما إن خرج عن معناه إلى معان أخرى تفهم من سياق الكلام:كالتعجب مثلا، أو التقرير، أو التمني، أو الإنكار، أو التوبيخ...فإنه لا يحتاج إلى جملة الجواب[3].

و"الأدخل في باب دراسة مزايا الأسلوب والكشف عن جوانبه ذات الظلال والإيماض هو بحث ألوان الحس، وما يخطر في القلب مما يثيره الاستفهام حين لا يراد به طلب الفهم"[1].

---

[1]- البلاغة العربية قراءة أخرى: ص:284-285

2- ينظر المرجع نفسه : ص: 66 .

3- ينظر علوم البلاغة : مصطفى المراغي. ص : 66

ولذلك كان تركيزي في البحث منصب حول المعاني البلاغية التي يخرج إليها هذا الأسلوب، وبنية الجملة مع أدوات الاستفهام.

ومن ثمّة فلا غرابة أن تكون المعاني البلاغية هي وجه ثراء دراسة الجملة القرآنية بعامة، والجملة في الربع الأخير على وجه الخصوص، وهي منبع أسرارها، فكل جملة لها إشعاعتها وما يميزها عن غيرها، حتى ولو اشتركت جملتان في معنى بلاغي واحد، فكيف إذا كان لكل منها معنى مغاير.

قال التفتازاني:"... والحاصل أن كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقته تولد منه بمعونة القرائن ما يناسب المقام... ولا ينحصر أيضا شيء منها في أداة دون أداة، بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب، فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته، أو مثال وجدته، من غير أن تتخطاه، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية، والله الهادي"[2].

ولا يخفى أن القرآن الكريم حافل بالأساليب المختلفة لا سيما المكي منه، فـــالقرآن "يحوي من أساليب الاستفهام أروع الصور، أكثرها للوجدان إثارة، وأشدها على النفس وقعا، فترى تلك الأساليب تتوالى في مواضع كثيرة منه، مؤدية شتى المعاني البلاغية، محققة هذا التلوين البلاغي الذي يهز المشاعر هزا، ويبعث في النفس شغفا وشوقا إلى تتبعه في حركة سيره، ومجرى انتقاله"[3].

ثمّ إن هناك ما يجعل المرء يتساءل عن الأسباب التي تدفع الاستفهام للخروج من معناه الأصلي، فيجيب ابن جني عن هذا التساؤل بقوله: "واعلم أنه ليس شيء يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان، وهو على بابه ملاحظاً له وعلى صدد من الهجوم عليه، وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه، لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء"[4].

---

1 ــ خصائص التراكيب: محمد أبو موسى. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الثالثة. ص: 215.

2 ــ المطول: للتفتازاني. منشورات مكتبة الدواري. قم. إيران. دت. ص:238.

3 ــ أساليب الاستفهام في القرآن: لعبد العليم السيد فودة. مؤسسة دار الشعب. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. نشر الرسائل الجامعية. (دت). ص:292 وما بعدها.

4 ــ الخصائص: لأبي الفتح عثمان ابن جني. تحقيق محمد على النجار. المكتبة العلمية. (دت). 464/2.

ثم ذكر بعضا من تلك الأسباب التي تدفع إلى الخروج عن معنى الاستفهام الحقيقي، فقال: "منها أن يرى المسئول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه، ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به، ومنها أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد، لما له في ذلك من الغرض، ومنها أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه، حتى إن حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقاً، فأوضح بذلك عذراً، ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها"[1].

أغراض الاستفهام:

هذه إيماءة إلى بعض الأغراض و المقاصد التي تخرج الاستفهام عن حقيقته، وترمي به في أحضان المعاني البلاغية التي نريد رصد بعض منها والإشارة إليها، فمنها:

النفي:

كما في قوله تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ) [الرحمن:60]، قال ابن عاشور: "والاستفهام مستعمل في النفي، ولذلك عقب بالاستثناء، فأفاد حصر مجازاة الإحسان في أنها إحسان، وهذا الإخبار عن كونه الجزاء الحق، ومقتضى الحكمة والعدل..."[2].

فأداة الاستفهام هنا حرف، وهو (هل)، وأتى المراد به النفي، ومما أكد المعنى وجود أداة الحصر (إلا)، فكان المعنى ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

قال القرطبي: "(هَلْ) في الكلام على أربعة أوجه: تكون بمعنى قد كقوله تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الْأِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ) [الإنسان:1]، وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى: (فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً) [الأعراف:44]، وبمعنى الأمر كقوله تعالى: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [المائدة:91]، وبمعنى (ما) في الجحد كقوله تعالى: (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ) [النحل:35]، و(هَلْ جَزَاءُ الْأِحْسَانِ إِلَّا الْأِحْسَانُ)"[3].

ثم استتبع ذلك بأقوال العلماء والمفسرين من السلف في بيان الآية الأخيرة المستشهد بها فقال: "قال عكرمة: أي هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة، وقال ابن عباس: ما

1 ــ الخصائص : ابن جني. دار الكتب العلمية. 464/2. وما بعدها.

2 ــ التحرير والتنوير:271/27.

3 ــ الجامع لأحكام القرآن: 182/17.

جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) إلا الجنة، وقيل: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة، قال ابن زيد وروى أنس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ (هَلْ جَزَاءُ الْأِحْسَانِ إِلَّا الْأِحْسَانُ) ثم قال: "هل تدرون ماذا قال ربكم" قالوا: الله ورسول أعلم، قال: "يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة"[1].

وقد أشار الشوكاني إلى هذا المعنى بقوله: "(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ) هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، والمعنى: ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة"[2].

فأعطى المفسرون على اختلاف عصورهم (هل) معنى حرف النفي (ما)، فخرج الاستفهام في هذه الجملة القرآنية إلى المعنى البلاغي.

ومن دلالة الاستفهام على النفي قوله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت:33] فالواو عاطفة، و(من) اسم استفهام مبتدأ، ومعناه النفي، أي: لا أحد أحسن، و(أحسن) خبر، و(قولا) تمييز، و(ممن) متعلقان بأحسن، وجملة (دعا إلى اللّه) صلة (من)، وجملة (وعمل صالحا) عطف على (دعا إلى اللّه)، و(صالحا) مفعول به، أو صفة لمصدر محذوف، أي: عمل عملا صالحا، و(قال) عطف على ما قبله، و(إنني من المسلمين) إن، واسمها، وخبرها، والجملة في موضع نصب لأنها مقول القول.

قال أبو حيان: "(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً): أي لا أحد أحسن قولاً ممن يدعو إلى توحيد الله، ويعمل العمل الصالح، ويصرح أنه من المستسلمين لأمر الله المنقادين له، والظاهر العموم في كل داع إلى الله، وإلى العموم ذهب الحسن ومقاتل وجماعة، وقيل بالخصوص"[3].

فـــ (مَنْ) استفهام مستعمل في النفي، بمعنى لا أحد أحسن قولاً من هذا الفريق، والدعاء[4] إلى الله تمثيل لحال الآمرِ بإفراد الله بالعبادة ونبذ الشرك بحال من يدعو أحداً

1 ــ الجامع لأحكام القرآن: 182/17.

2 ــ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير.المؤلف : محمد بن علي بن محمد الشوكاني. ضبطه وصححه أحمد عبد السلام. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1415هـــ. 1994م ــ 176/5.

3 ــ البحر المحيط: 475/7.

4 ــ الدعاء إلى شيء: أمر غيرك بالإقبال عليه.

بالإقبال إلى شخص، وهذا حال المؤمنين حين أعلنوا التوحيد، وهو ما وُصفوا به في قوله: (إِنَّ الَّذِين قالوا ربُّنا) [فصلت:30]، وقد كان المؤمنون يدعون المشركين إلى توحيد الله، وسيّدُ الداعين إلى الله هو محمد.

و(مِنْ) تفضيلية لاسْم (أَحْسَنُ)، في قوله: (مِمَّن دعا إلى الله)، والكلام على حذف مضاف تقديره: من قول من دعا إلى الله.

ومن ذلك قوله تعالى: (..مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) [فصلت:52] و(من) اسم استفهام مبتدأ،و(أضلّ) خبر، و(ممّن) جار ومجرور متعلقان بـــ(أضل)، و(هو) مبتدأ، و(في شقاق بعيد) خبر، والجملة الاسمية صلة الموصول، و(مَن) الأولى للاستفهام المستعمل في معنى النفي، أي: لا أضل ممن هو في شقاق بعيد.

العرض والاستعطاف:

ومن أغراض الاستفهام الدلالة على العرض والاستعطاف كقوله تعالى: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) [غافر:11]، و(هل) حرف استفهام، و(إلى خروج) خبر مقدم، و(من) حرف جر زائد، و(سبيل) مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر.

والاستفهام في (فَهَل إلى خُرُوج مِن سبيل) مستعمل في العَرض والاستعطاف لرفع العذاب، وحرف (مِن) زائد لتوكيد العموم الذي في النكرة، ليفيد طلبهم كل سبيل للخروج، وشأن زيادة (مِن) أن تكُون في النفي وما في معناه دون الإثبات.

وقد عُدّ الاستفهام بـــ (هل) خاصة من مواقع زيادة (مِن) لتوكيد العموم كقوله تعالى: (وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) [ق:30]، ووجه اختصاص (هَل) بوقوع (مِن) الزائدة في المستفهم عنه بها كثرة استعمال الاستفهام بها في معنى النفي، وزيادةُ (من) حينئذٍ (لتأكيد) النفي، وتنصيص عمومه، فخف وقوعها بعد (هل) على ألسن أهل الاستعمال[1].

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 99/24.

وتنكير (خروج) و(سبيل[1]) للنَّوعية تلطفاً في السؤال، أي: إلى شيء من الخروج قليلٍ أو كثير، لأن كل خروج يتنفعون به راحةٌ من العذاب، كقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ) [غافر:49].

قال الزمخشري: "فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ، أي: إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء مِنْ سَبِيلٍ قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله: ذلِكُمْ، أى: ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط، بسبب كفركم بتوحيد اللّه وعدم إيمانكم"[2].

العرض والتشويق:

ومن قصد العرض والتشويق بالاستفهام ما جاء في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) [الصف:10ــ11].

قال صاحب التحرير: "والاستفهام مستعمل في العَرض مجازاً، لأن العارض قد يسأل المعروضَ عليه، ليعلم رغبته في الأمر المعروض، كما يقال: هل لك في كذا ؟ أو هل لك إلى كذا؟ والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض، وهو دلالته إياهم على تجارة نافعة، وألفاظ الاستفهام تخرج عنه إلى معان كثيرة، هي من ملازمات الاستفهام كما نبه عليه السكّاكي في (المفتاح)، وهي غير منحصرة فيما ذكره"[3].

وقد جعل العرض كناية عن التشويق، وهذا ما تميل إليه النفس وترتضيه، لأن الجملة فيها تشويق صادر عن الدلالة على تجارة منجية من عذاب أليم، وقد ذكر العلامة البقاعي معنى التشويق في الآية الكريمة إذ قال: "(هل أدلكم) وأنا المحيط علما وقدرة، فهي إيجاب في المعنى ذكر بلفظ الاستفهام تشويقا، ليكون أوقع في النفس، فتكون له أشد تقبلا"[4].

1ــ والسبيل : الطريق واستعير إلى الوسيلة التي يحصل بها الأمر المرغوب، وكثُر تصرف الاستعمال في إطلاقات السبيل والطريق والمسلك والبلوغ على الوسيلة وبحصول المقصود .

2 ــ الكشاف: 154/4ــ155.

3 ــ التحرير والتنوير:193/28 وما بعدها.

4 ــ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين البقاعي. خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. 1415هـ. 1995م. - 575/7.

ويقصد بـــقوله (فهي إيجاب) أي: الآية بمعنى الأمر، ومعنى (تؤمنون) و(تجاهدون) أي: آمنوا وجاهدوا.

وقد ذكر عبد العزيز عتيق أن الاستفهام في الآية الكريم للتشويق، فقال: "التشويق: وفيه لا يطلب السائل العلم بشيء لم يكن معلوما له من قبل، وإنما يريد أن يوجه المخاطب ويشوقه إلى أمر من الأمور، نحو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)"[1].

والغرض نفسه ارتضاه كل من مصطفى الصاوي الجويني في كتابه البلاغة العربية تأصيل وتجديد[2]، و أحمد مطلوب في كتابه أساليب بلاغية[3].

وورد نحو هذا الغرض في قوله تعالى: (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى) [النازعات:18]، وفي غير الربع الأخير من القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) [سبأ:7] .

التهويل:

ومن دلالة الاستفهام على التهويل قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) [الانفطار:17]، قال ابن عاشور: "و (ما أدراك ما يوم الدين): تركيب مركب من (ما) الاستفهامية، وفعل الدراية المعدّى بالهمزة، فصار فاعله مفعولاً زائداً على مفعولي دَرى، وهو من قبيل: أعلم وأرَى، فالكاف مفعوله الأول، وقد علق على المفعولين الآخرين بـــ (ما) الاستفهامية الثانية.

والاستفهام الأول مستعمل كناية عن تعظيم أمر اليوم وتهويله، بحيث يَسْأل المتكلم من يسمعه عن الشيء الذي يحصِّل له الدراية بكنه ذلك اليوم، والمقصود أنه لا تصل إلى كنهه دراية دار"[4].

---

1 ــ علم المعاني: عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. 1404هـــ. 1984م ص:116.

2 ــ ينظر: البلاغة العربية تأصيل وتجديد: الصاوي الجويني. مطبعة شركة آلات ولوازم المكاتب بالاسكندرية. منشأة المعارف بالاسكندرية. دت. ص:27.

3 ــ ينظر: أساليب بلاغية: أحمد مطلوب. دار غريب للطباعة. الطبعة الأولى. (دت). ص:124.

4 ــ التحرير والتنوير: 183/30.

وقد حل هذا التركيب القرآني المفيد لغرض التهويل في الاستفهام، والوارد في أماكن متعددة من الربع الأخير، منها: قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)[الحاقة:3]، وماجاء على منوالها مثل:(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) [المدثر:27]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) [المرسلات:14]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ) [المطففين:7]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) [المطففين:19]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) [الطارق:2]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) [البلد:12]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) [القدر:2]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) [القارعة:3]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ) [القارعة:10]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) [الهمزة:5]

ثم ذكر ابن عاشور أن "مثل هذا التركيب مما جرى مجرى المثل فلا يغير لفظه"[1]، وتكرير التهويل تكريراً يؤذن بزيادته، أي تجاوزه حدّ الوصف والتعبير فهو من التوكيد اللفظي، وقرن هذا بحرف (ثمّ) الذي شأنه إذا عطف جملة على أخرى أن يفيد التراخي الرتبي، أي: تباعد الرتبة في الغرض المسوق له الكلام، وهي في هذا المقام رتبة العظمة والتهويل، فالتراخي فيها هو زيادة في بيان هذا التهويل العظيم المجمل الذي أفاده قوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧)ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) [الانفطار:17،18] إذ التهويل مشعر بحصول ما يخافه المهوَّل لهم، فاتبع ذلك بزيادة التهويل مع التأييس من وجدان نصير أو معين.

وإضافة إلى الغرض السابق في الآية فقد ضمنها سيد قطب غرض التجهيل حين قال: "والسؤال للتجهيل مألوف في التعبير القرآني، وهو يوقع في الحس أن الأمر أعظم جدا وأهول جدا من أن يحيط به إدراك البشر المحدود، فهو فوق كل تصور، وفوق كل توقع، وفوق كل مألوف، وتكرار السؤال يزيد في الاستهوال.."[2].

1 ــ التحرير والتنوير: 183/30.

2 ــ في ظلال القرآن: 3852/6.

وربما تقدم على التركيب السابق استفهام، نحو ما ورد في قوله تعالى من سورة القارعة: (الْقَارِعَةُ (١)مَا الْقَارِعَةُ (٢)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) [القارعة:1ــ3].

وفي سورة الحاقة في قوله تعالى: (الْحَاقَّةُ (١)مَا الْحَاقَّةُ (٢)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) [الحاقة:1ــ3]

فيكون الاستفهام الذي تقدمها مفيدا للتعظيم والتهويل، و (الحاقّة) مبتدأ، و(مَا) مبتدأ ثان، و (الحاقّة) المذكورة ثانياً خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول.

قال ابن عاشور: "و(ما) اسم استفهام مستعمل في التهويل والتعظيم، كأنه قيل: أتدْري ما الحاقة ؟ أي: ما هي الحاقة، أيْ شيءٌ عظيم الحاقّةُ! وإعادة اسم المبتدأ في الجملة الواقعة خبراً عنه تقوم مقام ضميره في ربط الجملة المخبر بها، وهو من الإظهار في مقام الإضمار، لقصد ما في الاسم من التهويل، ونظيره في ذلك قوله تعالى: (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ) [الواقعة:27]"[1].

وقد سبقت الإشارة من الزمخشري إلى هذا المعنى البلاغي، فقال: "الْحَاقَّةُ الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها... وارتفاعها على الابتداء، وخبرها (مَا الْحَاقَّةُ)، والأصل: الحاقة ما هي، أى: أىّ شيء هي؟ تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها، فوضع الظاهر موضع المضمر، لأنه أهول لها"[2].

ثم شرع في بيان حقيقة التركيب، فقال: "وَ(ما أَدْراكَ) وأىّ شيء أعلمك ما الحاقة؟ يعنى: أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها، على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك، و(ما) في موضع الرفع على الابتداء، و(أَدْراكَ) معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام"[3]،والكلام مثله يقال في آية القارعة.

العجب والدهشة:

ومن المعاني التي أفادها الاستفهام بـــ (ما) العجب والدهشة في قوله تعالى: (وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا) [الزلزلة:3]

1 ــ التحرير والتنوير: 113/29.

2 ــ الكشاف: 598/4.

3 ــ الكشاف: 598/4.

فالسؤال هنا واضح فيه معنى العجب والدهشة، والخوف والقلق والترقب، ولا دليل على أن الاستفهام إنكاري، فإن الموقف لم يعد يحتمل الإنكار وقد قامت القيامة فعلاً، بعد أن سبقت بها النذر، وتتابعت بأنبائها رسالات الدين.

والإنسان هنا هو الإنسان ــ على الإطلاق ــ تروعه الزلزلة العنيفة وما أعقبها من إخراج الأرض أثقالها، فيسأل في دهشة وتعجب: مالها!

ومن المفسرين من ذهب إلى أن "(الإنسان) هنا هو الكافر، لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأما المؤمن فيقول: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون"[1].

وصرح أبو حيان في (البحر) بأن هذا هو مذهب الجمهور، ونص عبارته: "والظاهر عموم الإنسان، وقيل: ذلك الكافر لأنه يرى ما لم يقع في ظنه قط ولا صدقه، والمؤمن – وإن كان مؤمناً بالبعث فإنه استهول المرأى ..... قال الجمهور: الإنسان هو الكافر، يرى ما لم يظن"[2].

ويضعف وجه تخصيص الإنسان هنا بالكافر، فاللغة لا تعين على هذا التخصيص، والاستعمال القرآني للفظ الإنسان لا يؤيده، ثم هو تخصيص لا يقوى به المعنى، فلأن تكون رجة الزلزلة وهول الموقف، مما يروع الإنسان على الإطلاق، كافراً كان أو مؤمناً، أقوى من أن يقتصر الدهش والعجب على الكافر وحده.

ويؤنس إلى هذا الإطلاق والتعميم، قوله تعالى في وصف الزلزلة، في آية الحج: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) [الحج:1ــ2].

فتذهل في ذلك اليوم كل مرضعة، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، عامة الناس، لا الكفار وحدهم!

ومن ذلك دلالة الاستفهام بالهمزة على الدهشة والاستغراب في قوله تعالى: (أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً) [النازعات:10ــ11]

1 ــ الكشاف: 784/4.

2 ــ البحر المحيط: 495/8.

فالسؤال هنا يحتمل أن يكون على وجه التمني، إذ يقولون في موقف الهول: ليتنا نرد في الحافرة، ونكون عظاماً نخرة، ولكن يبعد هذا الاحتمال قولهم بعد ذلك: تلك إذن كرة خاسرة، إذ لو كان الاستفهام على وجه التمني، لكانت الكرة في حسابهم رابحة، كالذي في قوله تعالى: (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء:102]، وقوله: (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الزمر: 58].

ذكر أبو حيان أن الاستفهام هنا على وجه الاستبعاد والاستهزاء[1]، والاستهزاء قريب والاستبعاد متبادر في سؤال الكفار للرسل، بآيات :

كقوله تعالى: (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) [الإسراء:49].

وقوله: (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) [الإسراء:98].

وقوله تعالى في سورة المؤمنون: (قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) [المؤمنون:82].

وقوله: (وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ) [الواقعة:47] ؟

والآيات كلها مكية والسياق فيها متشابه، فهي من جدال المماريين في البعث، والسؤال بها (أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا)؟ مما قالوه في الدنيا لرسل الله إليهم، على وجه الاستبعاد والتكذيب والإنكار.

وليس الأمر كذلك مع آية النازعات حيث السؤال يوم ترجف الراجفة، لا في الحياة الدنيا، وأُتي بالسؤال مع الفعل المضارع (يَقُولُونَ) الذي انفردت به آية النازعات، دون الآيات السابقة التي صدر السؤال فيها بالفعل ماضياً (قَالُوا)، والمضارعة تعني الإحضار، وبهذا الإحضار يتجه مقول القول إلى موقف القيامة، (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ)..... (يقولون أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ) ؟ (أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً) ؟

1 ــ ينظر البحر المحيط: 413/8.

ومقتضى هذا، أن يحمل الاستفهام هنا، لا على وجه التمني الذي تصرف عنه الآية التالية، ولا وجه الاستهزاء الذي لا يمكن تصوره في مثل ذلك الموقف، ولا على وجه الإنكار الذي لا محل له مع الإحضار وتحقق البعث، وإنما على وجه الدهشة والاستغراب، وحيرة المأخوذ برجفة القيامة بغتة!

التنبيه:

ومن دلالات الاستفهام بالهمزة تضمنه معنى التنبيه في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1)﴾ [الماعون:1]، قال الفخر الرازي فيه: " واعلم أن هذا اللفظ وإن كان في صورة الاستفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب كقولك: أرأيت فلانا ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه؟"[1].

والذي يترجح أن السر البياني في الاستفهام عما يبدو للناس واضحاً غير خفي، ويحسبونه معلوماً غير مجهول، إذ ليس التكذيب بالدين مظنة خفاء، والناس يحسبونه أنه يكفي المرء التصديق بالدين لأن ينطق الشهادتين، ويؤدي العبادات المفروضة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

ومن ثم يأتي الاستفهام عما يحسبه الناس مستغنياً عن كل بيان، فيثير أقصى اليقظة والانتباه، ويرهف الدهشة والترقب انتظاراً لجواب غير متوقع، وتطلعاً إلى معرفة ماذا يكون التكذيب بالدين غير الذي يعلمون منه بالضرورة؟

كما يمكن أن يكون الاستفهام هنا مستعملا في التعجيب من حال المكذبين بالجزاء، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع، فالتعجيب من تكذيبهم بالدين وما تفرع عليه من دَعّ اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين، وقد صيغ هذا التعجيب في نظم مشوِّق، لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى من تعرف المقصد بهذا الاستفهام.

توالي البنى الاستفهامية حسب الوجود والاحتياج:

ومن الاستفهام بالهمزة ما اشتركت بنيته وتوالت معانيه بحسب الوجود والاحتياج قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)﴾ [الواقعة]

1 ــ مفاتيح الغيب:104/32.

وبعده: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64)[الواقعة]
وبعده: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69)[الواقعة].

وبعده: (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72)[الواقعة].

فترتبت هذه الأشياء التي تختص بقدرة الله تعالى، وقدّم بعضها على بعض، فالأول هو خلقُ الإنسان من نطفة، والنعمةُ في ذلك قبل النعمة في الثلاثة الأخر التي بعده، فوجب تقديمه، ثم بعده ما به قوام الإنسان من فائدة الحرث، وهى الطعام الذي لا يستغني عنه جسد الحيّ، وهو ذلك الحبّ الذي يختبز فيحتاج بعد حصوله إلى حصول ما يعجن به، وهو الماء، ثم إلى النار التي تعدّه خبزا، فالترتيب على حسب الحاجة، والنعمة الثانية بعد الأولى.

وقال في الأولى: (لولا تذكّرون)، وقال في الماء : (.. فلولا تشكرون)، وذلك أن في الأولى تنبيه على البعث والإعادة وهي النشأة الثانية، وأنها كالنشأة الأولى، وحمل للإنسان على أن يتذكر الأول، الذي هو الأصل ليثبت به الثاني الذي هو فرع، على أن القادر كما كان لم يتغير.

وأما قوله: (فلولا تشكرون) فإنه بعد قوله: (لو نشاء جعلناه أجاجاً) أي: شديد الملوحة كماء البحر، أي: فهلاّ تشكرون أن جعله عذبا، فكل مكان لائق به ما ذكر فيه.

فروق بسبب الزيادة في آداة الاستفهام:

ومن الفوارق البلاغية التي أوحت بها البنية النحوية ما جاء في قوله تعالى في سورة الصافات: (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87).[الصافات] و قوله تعالى في سورة الشعراء: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71)[الشعراء].

فوردت زيادة (ذا) في قوله في الاستفهام في الصافات: (ماذا تعبدون)، وأخليت (ما) في الشعراء منها، وذلك أن قوله: (ما تعبدون) معناه: أيّ شيء تعبدون، وقوله : (ماذا) على وجهين:

أحدهما: أن تكون (ما) وحدها اسما، و (ذا) بمعنى الذي، والمعنى: ما الذي تعبدون، و (تعبدون) صلة لها.

والآخر: أن تكون (ما) مع (ذا) اسما واحداً بمعنى: أيّ شيءٍ ، وهو في الحالين أبلغ من (ما) وحدها، إذا قيل: ما تفعل؟

فـ"(ما تعبدون) في سورة الشعراء إخبار عن تنبيههم لهم، لأنهم أجروا مقاله مجرى مقال المستفهم فأجابوه، و(قَالُوا: نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) [الشعراء:71]، فنبّه ثانياً بقوله: (... هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ) [الشعراء:72]

وأما (ماذا تعبدون) في سورة الصافات فإنها تقريع، وهو حال بعد التنبيه، ولعلّهم إذا علموا بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لا يجيبون بإجابتهم في الأول، ثم أضاف تبكيتا إلى تبكيت، و لم يستدع منهم جواباً فقال: (أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87).[الصافات]

فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية، ولمّا بالغ وقرّع استعمل اللفظ الأبلغ، وهو (ماذا)، التي إن جعلت (ذا) منها بمعنى (الذي) فهو أبلغ من (ما) وحدها، وإنْ جُعلا اسما كان أيضاً أبلغ وأوكد من (ما) إذا خلت من (ذا)[1].

التحضيض والتهييج:

ومن دلالة الاستفهام على التحضيض والتهييج قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) [الحديد:11] .

قال ابن عاشور: "والاستفهام في قوله (من ذا الذي يقرض الله) مستعمل في التحضيض و التهييج على الاتصاف بالخير، كأن المستفهم لا يدري من هو أهل هذا الخير والجدير به، قال طرفة:

إذا القومُ قالوا مَن فتَىً خِلت أنني عُنيت فلم أكسَل ولم أتبلَّدِ[2]"[3]

فالاستفهام يستعمل في الحض على هذا الفعل، والاتصاف بهذا الوصف، وزاد ذلك تحضيضا وتهييجا على هذا الخير قوله (يُقْرِضُ اللَّهَ) وقوله (فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ).

---

1 ــ ينظر ملاك التأويل: 375/2 وما بعدها.

2 ــ شرح المعلقات السبع: معلقة طرفة. ص:43.

3 ــ التحرير والتنوير: 2/ 481.

التقرير:

والاستفهام التقريري هو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه، وغالبا ما ينسحب على النفي، مثل الاستفهام الأول في قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) [محمد:10] فالاستفهام تقريري، والمعنى: أليست تعاسة الذين كفروا مشهوداً عليها بآثارها من سوء عاقبة أمثالهم الذين كانوا قبلهم يدينون بمثل دينهم.

قال ابن عاشور: "وإنما أوقع الاستفهام على نفي القول، لأن غالب الاستفهام التقريري يقحم فيه ما يفيد النفي، لقصد التوسيع على المقرَّر حتى يُخيَّل إليه أنه يُسأل عن نفي وقوع الشيء، فإن أراد أن يزعم نفيه، فقد وسَّع المقرِّر عليه ذلك، ولكنه يتحقق أنه لا يستطيع إنكاره، فلذلك يقرره على نفيه، فإذا أقر كان إقراره لازماً له، لا مناص له منه، فهذا قانون الاستفهام التقريري الغالب عليه، وهو الذي تكرر في القرآن.."[1].

وبين أبو حيان أن الهمزة في الآية للتقرير، فقال: "(أَفَلَمْ يَسِيرُوا) تقرير، لأن الهمزة إذا دخلت على النفي كان الكلام في كثير من المواضع تقريراً نحو قوله تعالى: (أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ) [الأعراف:172]، (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) [الانشراح:1]، (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً) [الشعراء:18]، ولذلك جاز العطف على جملة إثباتية نحو: ووضعنا، ولبثت"[2].

وما ذكره صاحب البحر المحيط من مسوغ العطف بين الجملة المثبتة والمنفية في الظاهر، هو كون الهمزة للتقرير، فأصبح نفي النفي إثباتا.

ومن إفادة التقرير عن طريق الاستفهام بالهمزة قوله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) [الانشراح:1]] فهو استفهام تقريري على النفي، والمقصود التقرير على إثبات المنفي، وهذا التقرير مقصود به التذكير، لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحَهم، وإنقاذَهم من النار، ورفعَ شأنهم بين الأمم، ليدوم على دعوته العظيمة نَشيطاً غير ذي أسف ولا كَمَدٍ[3].

1 ــ التحرير والتنوير: 419/1.

2 ــ البحر المحيط: 299/1.

3 ــ ينظر التحرير والتنوير: 408/30.

واللام في قوله: (لك) لام التعليل، وهو يفيد تكريماً للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) بأن الله فعل ذلك لأجله.

وفي ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح سلوك طريقة الإبهام للتشويق، فإنه لما ذُكر فعل (نشرح) عَلم السامع أن ثَمَّ مشروحاً، فلما وقع قوله: (لك) قوي الإبهام فازداد التشويق، لأن (لك) يفيد معنى شيئاً لأجلك، فلما وقع بعده قوله: (صدرك) تعين المشروح المترقَّب، فتمكن في الذهن كمال تمكن، وهذا ما أشار إليه في (الكشاف)[1].

ومن الدلالة على التقرير قوله تعالى: (...أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ) [الزمر:32] قال ابن عاشور: "والاستفهام تقريري، وإنما وُجِّه الاستفهام إلى نفي ما المقصودُ التقريرُ به جرياً على الغالب في الاستفهام التقريري، وهي طريقة إرخاء العنان للمقرَّر بحيث يُفتح له باب الإنكار علماً من المتكلم بأن المخاطب لا يَسعه الإنكار، فلا يلبث أن يقر بالإثبات، ويجوز أن يكون الاستفهام إنكارياً، رداً لاعتقادهم أنهم ناجون من النار الدال عليه تصميمهم على الإعراض عن التدبر في دعوة القرآن"[2] .

الإنكار:

كثيرا ما يتمحص الاستفهام للدلالة على الإنكار كما في قوله تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ...كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) [محمد:15] فـــ"قوله: (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ) كلام مستأنف مقدر فيه استفهام إنكاري دلّ عليه ما سبق من قوله: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) [محمد:14]والتقدير: أكَمَنْ هو خالد في النار، والإنكار متسلط على التشبيه الذي هو بمعنى التسوية.

ويجوز أن تكون جملة (مَثَلُ الْجَنَّةِ) بدلاً من جملة (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) فهي داخلة في حيز الاستفهام الإنكاري، والخبر قوله: (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ)"[3].

ومنه قوله تعالى: (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) [الفجر] فـــ(أنّى) اسم استفهام بمعنى: أين له الذكرى، وهو استفهام مستعمل في الإنكار والنفي، في محل نصب ظرف مكان، وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم، و(له) متعلقان

1 ــ ينظر الكشاف: 771/4.

2 ــ التحرير والتنوير: 6/24ــ7.

3 ــ التحرير والتنوير: 94/26ــ95.

بما تعلق به الظرف، والذكرى مبتدأ مؤخر، ولا بدّ من تقدير حذف المضاف، والتقدير: وأين له نَفْع الذكرى.

ومنه قوله تعالى: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ)[محمد:18] و"الاستفهام إنكار مشوب بتهكم، وهو إنكار وتهكم على غائبين، موجه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أي: لا تحسب تأخير مؤاخذتهم إفلاتاً من العقاب، فإنه مُرجَوْن إلى الساعة، وهذا الاستفهام الإنكاري ناظر إلى قوله آنفاً: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) [محمد:12]"[1] .

ومن دلالة الاستفهام على الإنكار قوله تعالى: (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) [الزمر:19] فـــ(مَن) الأولى موصولة مبتدأً، وخبرُه (أفأنْتَ تُنْقِذُ مَن في النَّارِ) ، والفاء في قوله: (أفأنْتَ تُنْقِذُ مَن في النَّارِ) مؤكدة للفاء الأولى في قوله: (أفَمَنْ حَقَّ) الخ، والهمزة والفاء معاً مؤكدتين للهمزة الأولى والفاءِ التي معها لاتصالهما، وفي الفاء قال أبوحيّان: "والذي تقوله النحاة: أن الفاء للعطف، وموضعها التقديم على الهمزة، لكن الهمزة لما كان لها صدر الكلام قدمت، فالأصل عندهم: فأمن حق عليه"[2].

ولأن جملة (أفأنْتَ تُنْقِذُ) صادقة على ما صدقت عليه جملة (أفَمَن حقَّ عليهِ كلِمَةُ العذَابِ)، فالاستفهام إنكاري جار على غالب استعماله من توجهه إلى كلام لا شرط فيه، إذ أصل الكلام: الذين تَحِقّ عليهم كلمة العذاب أنت لا تنقذهم من النار، فتكون الهمزة في قوله: (أفَمَن حقَّ عليه كلِمَةُ العَذَابِ) للاستفهام الإنكاري، وتكون همزة (أفأنْتَ تُنْقِذُ مَن في النَّارِ) تأكيداً للهمزة الأولى.

وقد أفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في (أفأنْتَ تُنْقِذُ) تقوية الحكم، وهو إنكار أن يكون النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بتكرير دعوته يخلصهم من تحقق الوعيد، أو يُحصل لهم الهداية إذا لم يقدِّرها الله لهم.

1 ــ التحرير والتنوير: 102/26ــ103.

2 ــ البحر المحيط: 404/7.

ومن ذلك قوله تعالى: (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) [الطور:39]، فالقرآن ينكر إحدى مقولات المشركين المتهافتة عن اللّه سبحانه، تلك التي ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة، الذين يتصورونهم إناثا فوجه الخطاب مباشرة إليهم.

و"كانوا يعتبرون البنات في درجة أقل من درجة البنين، إلى حد أن تسود وجوههم من الكمد والكظم حين يبشرون بالأنثى، وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى اللّه! فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم، ليخجلهم من هذا الادعاء"[1].

وهو ادعاء متهافت لا يستقيم! وزيادة في التخجيل والترذيل، قال تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى (١٩)وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأخْرَى (٢٠)أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأنْثَى (٢١)[النجم]

فالاستفهام الأول جاء للتعجيب والتشهير وذلك واضح في افتتاح السؤال: (أَفَرَأَيْتُمُ؟) وفي الحديث عن اللات، والعزّى، ومناة، إذ كان بجزيرة العرب كثير من هذه المعبودات تعظمها القبائل المختلفة، ولكن اللات، والعزّى، ومناة، كانت أعظمها.

وهذه المعبودات كانت رموزا لملائكة يعتبرهن العرب إناثا، ويقولون: إنهن بنات اللّه، ومن هنا جاءت عبادتها، والذي يقع غالبا أن ينسى الأصل، ثم تصبح هذه الرموز معبودات بذاتها عند جمهرة العباد، ولا تبقى إلا قلة متنورة هي التي تذكر أصل الأسطورة!.

ولعل هذا ما لفت انتباه أبي حيان حين ركز على مدلول حروف التأنيث في أسماء تلك الآلهة المزعومة، مع ما تضيفه موقعية كلمة (الأنثى) للتركيب من بُعد متمثل في رعاية الفاصلة: إذ قال: "وإن كان في لحاق تاء التأنيث في اللات، وفي مناة، وألف التأنيث في العزى، ما يشعر بالتأنيث، لكنه قد سمى المذكر بالمؤنث، فكان في قوله: (الأُنثَى) نص على اعتقاد التأنيث فيها، وحسن ذلك أيضاً كونه جاء فاصلة، إذ لو أتى ضميراً، فكان التركيب ألكم الذكر وله هن؟ لم تقع فاصلة"[2].

ويشير سيد قطب إلى دلالة الاستفهام من خلال التعريج على منطلق معتقدهم وتصورهم لهذه المعبودات، بأن الله لما ذكر هذه المعبودات الثلاثة معجّبا منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ؟) .. عقب

1 ــ في ظلال القرآن: 3400/6.

2 ــ البحر المحيط :159/8.

عليها باستنكار دعواهم أن للّه الإناث وأن لهم الذكور بقوله: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ؟ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى) ..

جاء في الظلال: "مما يوحي بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة الملائكة، ونسبتها إلى اللّه سبحانه....وقد كانوا هم يكرهون ولادة البنات لهم، ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثا – وهم لا يعلمون عنهم شيئا يلزمهم بهذا التصور، وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى اللّه! واللّه – سبحانه – يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم، ويسخر منها، ومنهم: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ؟) ...إنها إذن قسمة غير عادلة، قسمتكم بين أنفسكم وبين اللّه! (تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى !) ..والمسألة كلها وهم، لا أساس له من العلم ولا من الواقع، ولا حجة فيها ولا دليل"[1] .

ومن دلالة الاستفهام على الإنكار قوله تعالى: (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) [الطور:32]، فالاستفهام في قوله (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ) استفهام إنكاري، وأحلامهم أي: عقولهم بقولهم كاهن وشاعر ومجنون، وهو قول متناقض، وكانت قريش تدعى أهل الأحلام والنهي.

قال أبو حيان: "قيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادها الله، أي: لم يصحبها التوفيق"[2] .

وقال في الاستفهام في قوله تعالى: "(أَمْ تَأْمُرُهُمْ)، قيل: أم بمعنى الهمزة، أي: أتأمرهم؟ وقدرها مجاهد بـــ(بل)، والصحيح أنها تتقدر بـــ(بل) والهمزة"[3].

ومن ذلك قوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ) [محمد:13].

و"(كأيِّن) بهمزة بعد الكاف وبتشديد الياء، وقرأه ابن كثير بألف بعد الكاف وتخفيف الياء مكسورة، وهي لغة، تفريع على جملة (أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ) [محمد:13] لتحقيق أنهم لا ناصر لهم تحقيقاً يرجع إلى ما في الكلام من المعنى التعريضي، فهو شبيه بالاستئناف البياني جاء بأسلوب التفريع.

1 ــ في ظلال القرآن: 3408/6.

2 ــ البحر المحيط: 148/8.

3 ــ البحر المحيط: 148/8.

ويجوز مع ذلك أن يكون مفرَّعاً على ما سبق من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [محمد:12] الآية، فيكون له حكم الاعتراض لأنه تفريع على اعتراض، وهذا تفنن في تلوين الكلام لتجديد نشاط السامعين، وهو من الأساليب التي ابتكرها القرآن في كلام العرب"[1].

والاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه، والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين كما ظهر ذلك عليهم في مواطن كثيرة.

وقد تكون (كأين) خبرية، وهي كلمة مركبة من الكاف، وأي، بمعنى: كم الخبرية، ومحلها الرفع على الابتداء، و(من قرية) تمييز لها، و(هي) مبتدأ، و(أشد) خبر، والجملة صفة لـــ (قرية)، و(قوة) تمييز، و(من قريتك) جار ومجرور متعلقان بـــ(أشد)، و(التي) صفة لـــ (قريتك) وجملة (أخرجتك) صلة (التي)، وجملة (أهلكناهم) خبر (كأين)، والفاء عاطفة، و(لا) نافية للجنس، و(ناصر) اسمها، و(لهم) خبرها[2].

ومن استعمال الاستفهام للدلالة على الإنكار قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر:23]

و" (أنّى) اسم استفهام بمعنى: أين له الذكرى، وهو استفهام مستعمل في الإنكار والنفي، والكلامُ على حذف مضاف، والتقدير : وأين له نَفْع الذكرى"[3].

ومن دلالة الاستفهام بالهمزة على الإنكار بصيغة التعريض قوله تعالى: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ﴾ [يس:23] فقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ استفهام إنكاري، أي أنكر على نفسي أن أتخذ من دونه آلهة، أي لا أتخذ آلهة.

قال ابن عاشور في تفسير الآية: "والاتخاذ: افتعال من الأخذ وهو التناول، والتناول يشعر بتحصيل ما لم يكن قبل، فالاتخاذ مشعر بأنه صُنع، وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين أنهم جعلوا الأوثان آلهة، وليست بآلهة، لأن الإله الحق لا يُجعل جعلاً، ولكنه مستحق الإلهية

1 ــ التحرير والتنوير: 92/26.

2 ــ ينظر إعراب القرآن وبيانه:197/7.

3 ــ التحرير والتنوير: 339/30.

بالذات، ووصف الآلهة المزعومة المفروضة الاتخاذَ بجملة الشرط بقوله: (إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـــانُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّى شَفَـــاعَتُهُمْ شَيْئـــاً وَلا يُنقِذُونِ)، والمقصود: التعريض بالمخاطبين في اتخاذهم تلك الآلهة بعلة أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه زلفى، وقد علم من انتفاء دفعهم الضر أنهم عاجزون عن جلب نفع، لأن دواعي دفع الضر عن المَولى أقوى وأهم، ولحاق العار بالوَلِيّ في عجزه عنه أشد"[1].

ومن تضمن دلالة الاستفهام بالهمزة للتقرير والإنكار ما ورد في قوله تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ)[يس:31]، فالهمزة للاستفهام التقريري أو الإنكاري، و(لم) حرف نفي وقلب وجزم، و(يروا) فعل مضارع مجزوم بـــ(لم) والواو فاعل، وقد علقت (يروا) عن العمل، لأن الرؤية هنا قلبية علمية وليست بصرية، لأن إهلاك القرون لم يكن مشهوداً لأمة جاءت بعد الأمة التي أهلكت قبلها، وفعل الرؤية معلق عن العمل بورود (كَمْ)، لأن (كَمْ) لها صدر الكلام سواء كانت استفهاماً أم خبراً، فإن (كَمْ) الخبرية منقولة من الاستفهامية وما له صدر الكلام لا يعمل ما قبله فيما بعده.

و(كم) إما أن تكون خبرية في محل نصب مفعول مقدم لـــ (أهلكنا)، والجملة في محل نصب مفعول (يروا)، وإما أن تكون (كم) استفهامية و(قبلهم) ظرف متعلق بـــ(أهلكنا)، و(من القرون) حال، وأن وما دخلت عليه بدل من معنى (كم أهلكنا)، والتقدير: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم[2].

قال الزمخشري: "أَلَمْ يَرَوْا: ألم يعلموا، وهو معلق عن العمل في كَمْ، لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام أو للخبر، لأن أصلها الاستفهام، إلا أن معناه نافذ في الجملة، كما نفذ في قولك: ألم يروا إن زيدا لمنطلق، وإن لم يعمل في لفظه، و(أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ) بدل من (كَمْ أَهْلَكْنا) على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم"[3].

والاستفهام يمكن أن يكون إنكارياً؛ فتزلت غفلتهم عن إهلاك القرون منزلة عدم العلم، فأنكر عليهم عدم العلم بذلك، وهو أمر معلوم مشهور، ويمكن أن يكون الاستفهام

1 ــ التحرير والتنوير: 368/22.

2 ــ ينظر إعراب القرآن وبيانه: 322/6.

3 ــ الكشاف: 13/4.

تقريرياً بُني فيه التقرير على نفي العلم بإهلاك القرون استقصاء لمعذرتهم، حتى لا يسعهم إلا الإقرار بأنهم عالمون، فيكون إقرارهم أشد لزوماً لهم، لأنهم استفهموا على النفي، فكان يسعهم أن ينفوا ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) [ق:6] فالهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على محذوف، (لم ينظروا) ولم حرف نفي وقلب وجزم، (ينظروا) فعل وفاعل، و(إلى السماء) شبه جملة متعلقان بـــ(ينظروا)، و(كيف) اسم استفهام في محل نصب حال، و(بنيناها) فعل وفاعل ومفعول به، والجملة بدل من السماء، و(زَيَّنَّاهَا) معطوفة على (بنيناها)، والواو للحال، و(ما نافية)، و(لها) خبر مقدّم، و(من) حرف جر زائد، و(فروج) مجرور لفظا مبتدأ مؤخر محلا.

والاستفهام يمكن أن يكون إنكارياً والنظرُ نظرَ الفكر، على نحو قوله تعالى: (قلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) [يونس:101]، ومحل الإنكار هو الحال التي دل عليها (كيفَ بنيناها)، أي ألم يتدبروا في شواهد الخليقة؟!، فتكون الآية في معنى: أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق؟ .

ويمكن أن يكون الاستفهام تقريرياً، والنظر للمشاهدة، ومحل التقرير هو فعل (ينظروا)، أو يكون (كيف) مراد به الحال المشاهدة[1]، وهذا الوجه أشدّ في النعي عليهم لاقتضائه أن دلالة المخلوقات المذكورة على إمكان البعث يكفي فيها مجرد النظر بالعين .

و التقرير على نفي الشيء المراد الإقرار بإثباته طريقة قرآنية، وبينا أن الغرض منه إفساح المجال للمقرَّر إن كان يروم إنكار ما قُرر عليه، ثقة من المقرِّر ـــ بكسر الراء ـــ بأن المقرَّر ـــ بالفتح ـــ لا يُقدم على الجحود بما قرر عليه لظهوره.

ومن دلالة الاستفهام على الإنكار مع حذف الأداة قوله تعالى: (فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) [البلد:11ـــ12] و"تكون (فلا اقتحم العقبة) استفهاماً حذف منه أداته، وهو استفهام إنكار، والمعنى: أنه يدعي إهلاك مَال كثيرٍ في الفساد من ميسر وخمر ونحو ذلك، أفَلا أهلكه في القُرَب والفضائل، بفكّ الرقاب، وإطعام المساكين في زمن المجاعة، فإن الإنفاق في ذلك لا يخفى على الناس خلافاً لما يدعيه من إنفاقه"[2].

1 ـــ ينظر التحرير والتنوير: 285/26.

2 ـــ التحرير والتنوير: 355/30ـــ356.

وقد نبه صاحب التحرير والتنوير إلى قضية تتعلق بتكرار (لا) عند دخولها على الماضي وإفادتها للدعاء في مثل هذا التركيب عادة، غير أنها هنا خرجت على القاعدة المعروفة في ذلك، فقال: "وعلى هذا الوجه لا يعرِض الإشكال بعدم تكرُّر (لا)، فإن شأن (لا) النافية إذا دخلت على فعل المضي و لم تتكرر أن تكون للدّعاء، إلاّ إذا تكررت معها مثلُها معطوفةٌ عليها، نحو قوله: (فلاَ صَدَّق ولا صلَّى) [القيامة:31]، أو كانت (لا) معطوفة على نفي، نحو: ما خرجتُ ولا ركبتُ، فهو في حكم تكرير (لا).

وقد جاءت هنا نافية في غير دعاء، و لم تتكرر استغناء عن تكريرها بكون ما بعدها وهو (اقتَحَم العقبة) يتضمن شيئين، جاء بيانهما في قوله: (فكُّ رقبة أو إطعام،) فكأنه قال: فلا فَكَّ رقبةً، ولا أطعم يتيماً أو مسكيناً"[1].

ثم ذكر وجها آخر لعدم تكرار (لا) فقال: و"يجوز أن يكون عدم تكرير (لا) هنا استغناء بقوله: (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) [البلد:17]فكأنه قيل: فلا اقتحم العقبة ولا آمن، ويظهر أن كل ما يصرف عن التباس الكلام كاف عن تكرير (لا) ...وأُطلق (العقبةُ) على العمل الموصل للخير، لأن عقبة النجد أعلى موضع فيه، ولكل نجد عقبة ينتهي بها، وفي العقبات تظهر مقدرة السابرة"[2] .

التوبيخ:

ومن دلالة الاستفهام على التوبيخ قوله تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) [محمد:22]، فالفاء استئنافية، و(هل) حرف استفهام جيء به لأجل التوبيخ، و(عسيت) فعل ماض من أفعال الرجاء، والتاء اسمها، وأن تفسدوا خبر (عسى)، و(إن) شرطية، و(توليتم) فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، والجواب محذوف لدلالة فهل عسيتم عليه، وجملة الشرط وجوابه معترضة لا محل لها من الإعراب.

قال أبو حيان: "(فَهَلْ عَسَيْتُمْ): التفات للذين في قلوبهم مرض، أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم"3 .

---

[1] ــ التحرير والتنوير: 355/30ــ356

2 ــ التحرير والتنوير: 355/30ــ356.

3 ــ البحر المحيط: 81/8.

وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب، والسرّ فيه هنا أنه جاء لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع، وتسجيل ذلك عليهم مشافهة وخطابا.

قال صاحب إعراب القرآن وبيانه: "ولقائل أن يقول كيف يصحّ الاستفهام من اللّه تعالى وهو عالم بما كان وما يكون؟

والجواب: أنه لما عهد منكم أحرياء بأن يقول لكم كل من سبر أغواركم، وعرف تمريضكم، ورخاوة عقدكم في الإيمان، يا هؤلاء ما ترون؟ هل يتوقع منكم إذا توليتم أمور الناس، ونيطت بكم شئونهم، وأصبحتم حكاما، هل يتوقع منكم أن تفسدوا في الأرض بالتناحر على الملك، والتهالك على الدنيا، والتناور، والتناهب، وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب، ووأد البنات، وأخذ الرشاوى والعودة إلى الجاهلية الأولى؟"[1].

ومن دلالة الاستفهام على التوبيخ قوله تعالى: (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13]، و(ما) اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، و(لكم) خبر، و(لا)نافية، و(ترجون) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، وجملة (لا ترجون) حال من الكاف في (لكم)، و(للّه) حال لأن اللام للتبيين، ولو تأخرت لكانت صفة للوقار، و(وقارا) مفعول به لـــ (ترجون) أي توقيرا وتعظيما.

وهو استفهام صورته صورة السؤال عن أمر ثبت لهم في حال انتفاء رجائهم توقيرَ الله، والمقصود أنه لا شيء يثبت لهم صارف عن توقير الله، فلا عذر لكم في عدم توقيره[2].

التكذيب:

وأضاف ابن عاشور دلالة الاستفهام في الآية السابقة على التكذيب لتضمن حرف الاستفهام (هل) معنى (قد) بقوله: "والاستفهام مستعمل في التكذيب لما سيعتذرون به لانخزالهم، ولذلك جيء فيه بـــ(هل) الدالة على التحقيق، لأنّها في الاستفهام بمنزلة (قد) في

1 ــ إعراب القرآن وبيانه: 210/7.

2 ــ قال القرطبي: "قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف؛ أي مالكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة، أي أي عذر لكم في ترك الخوف من الله، وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثوابا ولا تخافون له عقابا، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: مالكم لا تخشون لله عقابا وترجون منه ثوابا، وقال الوالبي والعوفي عنه: مالكم لا تعلمون لله عظمة، وقال ابن عباس أيضا ومجاهد: مالكم لا ترون لله عظمة، وعن مجاهد والضحاك : مالكم لا تبالون لله عظمة، قال قطرب: هذه لغة حجازية، وهذيل وخزاعة ومضر يقولون: لم أرج: لم أبال، والوقار: العظمة، والتوقير: التعظيم". الجامع لأحكام القرآن:303/18.

الخبر، فالمعنى: أفيتحقق إن توليتم أنكم تفسدون في الأرض، وتقطعون أرحامكم، وأنتم تزعمون أنكم توليتم إبقاء على أنفسكم، وعلى ذوي قرابة أنسابكم، على نحو قوله تعالى: (قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا.) [البقرة:246][1].

التعجيب المشوب بالإنكار:

ومنه الدلالة على التعجيب المشوب بالإنكار في قوله تعالى: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) [المدثر:18ــ20] فـ"(كَيف قدّر) في الموضعين متحد المعنى، وهو اسم استفهام دال على الحالة التي يبينها متعلّق (كيف)، والاستفهام موجه إلى سامع غير معيّن، يستفهم المتكلم سامعه استفهاماً عن حالة تقديره، وهو استفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالإنكار على وجه المجاز المرسل، و (كيف) في محل نصب على الحال مقدمة على صاحبها لأن لها الصدر وعاملها (قَدَّر)"2.

التعجيب:

ومن الاستفهام الدّال على التعجيب قوله تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) [غافر:5] والاستفهام بـــ (كيف كانَ عقاب؟) مستعمل في التعجيب من حالة العقاب، وذلك يقتضي أن المخاطب بالاستفهام قد شاهد ذلك الأخذ والعقاب، وإنما بني ذلك على مشاهدة آثار ذلك الأخذ في مرور الكثير على ديارهم في الأسفار، كما أشار إليه قوله تعالى: (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ) [الحجر:76] ونحوه، وفي سماع الأخبار عن نزول العقاب بهم وتوصيفهم، فتزّل جميع المخاطبين منزلة من شاهد نزول العذاب بهم، ففي هذا الاستفهام تحقيق وتثبيت لمضمون جملة (فأخذتهم).

ويمكن أن يكون في هذا الاستفهام معنى التقرير، بناء على أن المقصود بقوله: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) إلى قوله: (فَأَخَذْتُهُمْ) التعريض بتهديد المشركين من قريش، بتنبيههم على ما حلّ بالأمم قبلهم، لأنهم أمثالهم في الإشراك والتكذيب، فلذلك يكون

1 ــ التحرير والتنوير:26/111ــ112.

2 ــ التحرير والتنوير: 29/309.

الاستفهام عمّا حلّ بنظرائهم تقريرياً لهم بذلك، وحذفت ياء المتكلم من (عقاب) تخفيفاً مع دلالة الكسرة عليها[1].

ولعلنا قد أتينا على معظم بُنى الاستفهام في الربع الأخير من القرآن الكريم، و التي تعددت أدواتها، و كان غالب الاستفهام فيها بالهمزة لمرونتها في الدخول على الأسماء والأفعال، ثم (هل)، و(من)، و(كيف)، و(كم)، و(كأيّن)، و(متى)، و(أنّى)،و قد خرج الاستفهام في معظم البنى إلى دلالات أخرى: كالإنكار على المشركين، و التوبيخ لهم، والتعجيب من شأنهم، و ذلك كله من خصائص القرآن المكي الذي ظلّ يقابل عناد المشركـــين و كفرهم و تكذيبهم، و ذلك بسد الأبواب في كل ما يحتجون به، و بيان قصورهم، و ضآلة فكرهم و ضيقه، و فساد نفوسهم، كما استعمل الاستفهام في التقريـــر، و الإلجاء، والتجهيل ، والدهشة والاستغراب من أهوال القيامة في جانبهم، والعرض، والتحضيض، والاستعطاف، والتشويق، والتنبيه في جانب المؤمنين.

كما رأينا توالي الأنماط الاستفهامية بالبنية نفسها أحيانا وفق متطلبات المقام، إضافة على حذف أداة الاستفهام حينا، والزيادة عليها حينا آخر لخدمة أغراض بيانية وبلاغية لم تكن ليظهر مدلولها من دون ذلك الإجراء، فكان هذا التنوع في الأساليب، وفي البنى، وفي الدلالات.

1 ــ ينظر التحرير والتنوير:87/24.

4 ــ التمني والنداء:

التمني:

التمني هو طلب حصول الشيء على سبيل المحبة، أو "هو طلب أمر محبوب لا يتوقع حصوله"[1]، وإضافة إلى أم الباب (ليت) فإن هناك حروفا أخرى تقوم مقامها في هذا الاستعمال كـــ(لو)، و(هل)، و(لعل)، خاصة وأن (ليت) تختص بالجمل الاسمية إلا في حال ارتباطها بـــ(ما) مما يضيق اختصاصها، وذلك ليس مؤشرا على قلة استعمال هذا الأسلوب في فن القول، فاقتحام (هل) و(لو) لهذا الغرض البلاغي من خلال دخولهما على الجملة الفعلية، توسعة لدائرة التمني إلى مجال أرحب، وإن نأتا عن غرضيهما واستعماليهما الأصليين.

فالتمني ما هو إلا مسلك تنفس وهروب من الواقع المعاش إلى الرغبة التي عزّ مطلبها، وتنآى السبيل إليها، ولذا فهو يكثر في كلام الشعراء الذين يجمحون بخيالهم ويتمنون ما لم ينالوه على أرض الواقع.

التمني بـــ (لعلّ):

ففي باب التمني بـــ (لعل) نجد قوله تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسْبَابَ (٣٦)أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظُنُّهُ ..(٣٧) [غافر:36ــ37].

قال صاحب الكشاف في تفسير الآية: "فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير؟ ولو قيل: لعلى أبلغ أسباب السماوات لأجزأ؟ قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها، ولأنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه، ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان، ثم أوضحه، وقرئ: فأطلع بالنصب على جواب الترجي، تشبيها للترجى بالتمني"[2] .

1 ــ البلاغة الواضحة: لعلي الجارم ومصطفى أمين. مطبعة المعارف. الطبعة الأولى. 1349هـــ. 1930م.: ص:107.

2 ــ الكشاف: 167/4.

وذكر ابن عاشور في بعض المواطن التي وردت فيها كلمة (لعل) بأن الترجي ليس من الإنشاء، فقال:"و (لعل) إذا جاءت في ترجي الشيء المخوف سميت إشفاقا وتوقعا، وأظهر الأقوال أن الترجي من قبيل الخبر، وأنه ليس بإنشاء مثل التمني"1 .فالترجي عنده خبر وليس من الإنشاء، بينما عده من عده من البلاغيين خبرا.

التمني بـــ (ليت):

ومن التمني بـــ (ليت) قوله تعالى: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦)يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) [الحاقة:25ـــ27]

وفيها تمنّي كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يُؤْت كتابه، لأنه علم من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب، فيتمنى أن لا يكون عَلِم بذلك.

و"جملة (يا ليتها كانت القاضية) من الكلام الصالح لأن يكون مثلاً لإيجازه ووفرة دلالته ورشاقة معناه، عبر بها عما يقوله من أوتي كتابه بشماله من التحسر، بالعبارة التي يقولها المتحسر في الدنيا بكلام عربي يؤدي المعنى المقصود، ونظيره ما حكي عنهم في قوله تعالى: (دَعَوا هُنَالِكَ ثُبُوراً) [الفرقان:13] وقوله: (يا وَيْلَتَا ليتني لم أَتَّخِذْ فُلاناً خليلاً) [الفرقان:28] وقوله: (يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذا الكِتَابِ الآية) [الكهف:49]"2.

التمني بـــ (لو):

ومن التمني بـــ (لو) ما ورد في قوله تعالى: (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) [الزمر]

و (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) فـــ (أو) حرف عطف، و(تقول) عطف على (أن تقول)، و(لو) شرطية، و(أن) وما دخلت عليه فاعل لفعل محذوف تقديره: ثبت، و(أن)، واسمها، وجملة (هداني) خبرها، واللام واقعة في جواب (لو)، وكان، واسمها، و(من المتقين) خبرها، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط جازم.

1 ــ التحرير والتنوير: 93/19.

2 ــ التحرير والتنوير: 136/29.

وفي (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (أو تقول) عطف على ما تقدم، والفاعل مستتر تقديره: هي، يعود على نفس، و(أو) للتنويع لما تقوله النفس في ذلك اليوم العصيب تعللا بما لا يفيد، ولا يسفر عن فائدة، و(لو) شرطية، و(أن) وما دخلت عليه فاعل لفعل محذوف، و(أن) وخبرها المقدم، و(كرة) اسمها المؤخر، (فأكون): الفاء عاطفة، و(أكون) معطوف على (كرة)، وهو عطف على اسم خالص من التقدير بالفعل. ..

وقد تكون الفاء للسببية، و(أكون) فعل مضارع منصوب بـــ (أن) مضمرة بعد فاء السببية الواقعة جوابا للتمني المفهوم من قوله (لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً)، والفرق بين الوجهين: أنه على الأول: يكون فيه الكون من جملة المتمنى، وعلى الثاني: يكون فيه الكون مترتبا على حصول المتمنى، لا متمنى.

وفي قوله تعالى: (بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ) [الزمر:59] (بلى) حرف جواب جاء لرد النفي الذي تضمنه قول القائل: لو أن اللّه هداني، و(قد) حرف تحقيق، و(جاءتك آياتي) فعل ومفعول به وفاعل، (فكذبت) بها عطف على (جاءتك)، و(كنت) كان، واسمها، و(من الكافرين) خبرها.

و"معنى (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) إنهم يقولونه لقصد الاعتذار والتنصل، تعيد أذهانهم إلى ما اعتادوا الاعتذار به للنّبيّ (صلى الله عليه وسلم)، كما حكَى الله عنهم: (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) [الزخرف:20]، وهم كانوا يقولونه لقصد إفحام النّبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) حين يدعوهم، فبَقيَ ذلك التفكير عالقاً بعقولهم حين يُحضرون للحساب.

وأما قولها- حكاية عن النفس-: (حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً) فهو تمنّ محض، و(لو) فيه للتمني، وانتصب (فأكون) على جواب التمنّي.

وهذا اعتراف بأنها علمت أنها كانت من المسيئين، وقد حُكي كلام النفس في ذلك الموقف على ترتيبه الطبيعي في جَوَلانه في الخاطر، بالابتداء بالتحسر على ما أوقعت فيه نفسها، ثم بالاعتذار والتنصل طمعاً أن ينجيها ذلك، ثم بتمنيّ أن تعود إلى الدنيا لتعمل الإحسان، كما في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ...) [المؤمنون:99ــ100]، فهذا الترتيب في النظم هو أحكم ترتيب، ولو رتب الكلام على

خلافه لفاتت الإشارة إلى تولد هذه المعاني في الخاطر حينما يأتيهم العذاب، وهذا هو الأصل في الإنشاء ما لم يوجد ما يقتضي العدولَ عنه"[1].

و"(بلى) حرفٌ لإبطال منفي أو فيه رائحة النفي، لقصد إثبات ما نفي قبله، فتعين أن تكون هنا جواباً لقول النفس (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) [الزمر:57]، لما تقتضيه (لو) التي استعملت للتمنّي من انتفاء مَا تمناه، وهو أن يكون الله هداه ليكون من المتقين، أي: لم يهدني الله فلم أتق"[2].

وقد قوبل كلام النفس بجواب يقابله على عدد قرائنه الثلاث، وذلك بقوله: (بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها) وهذا مقابل (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي) [الزمر:57]، ثم بقوله: (وَاسْتَكْبَرْتَ) وهو مقابل قولها: (عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جنبِ الله) [الزمر:56]، أي ليستْ نهايةُ أمرك التفريط بل أعظم منه وهو الاستكبار، ثم بقوله:(وكنت مِنَ الكافرين) وهذا مقابل قولِ النفس (لَكُنتُ مِن المُتقين) [الزمر:57] فهذه قرائن ثلاث، والمعنى: أن الله هداك في الدنيا بالإرشاد بآيات القرآن فقابلتَ الإرشاد بالتكذيب والاستكبار والكفر بها فلا عذر لك.

قال ابن عاشور في بيان هذا الأسلوب من النشر والطي: "وكان الجواب على طريقة النشر المشوش بعد اللّف رعياً لمقتضى ذلك التشويش، وهو أن يقع ابتداءُ النشر بإبطال الأهم مما اشتمل عليه اللّف، وهو ما ساقوه على معنى التنصل والاعتذار، من قولهم: (لو أنَّ الله هداني) [الزمر:57] لقصد المبادرة بإعلامهم بما يدحض معذرتهم، ثم عاد إلى إبطال قولهم: (على ما فرطتُ في جَنب الله) [الزمر:56] فأبطل بقوله: (فكذَّبتَ بِها) ، ثم أكمل بإبطال قولهم: (لو أنَّ لي كرَّةً فأكونَ من المُحسنين) [الزمر:58] بقوله: (وكُنت من الكافرين)، ولم يُورَد جواب عن قول النفس (وإن كُنتُ لَمِنَ الساخِرين) [الزمر:56] لأنه إقرار"[3].

وأنه "لو لم يسلك هذا الأسلوب في النشر لهذا اللف لفات التعجيل بدحض المعذرة، ولَفاتَتْ مقابلة القرائن الثلاث المجاب عنها بقرائنَ أَمثالِها، لِما علمت من أن الإبطال روعي

1 ــ التحرير والتنوير:47/24.
2 ــ التحرير والتنوير:48/24.
3 ــ التحرير والتنوير:48/24.

فيه قرائن ثلاث، على وزان أقوال النفس، وأن ترتيب أقوال النفس كان جارياً على الترتيب الطبيعي، فلو لم يشوش النشر لوجب أن يقتصر فيه على أقلَّ من عدد قرائن اللف، فتفوت نكتة المقابلة التي هي شأنُ الجدال؛ مع ما فيه من التورك"[1] .

التمني بـــ (لولا):

ومن التمني بـــ(لولا) ما جاء في قوله تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ) [محمد:20].

فـــ"(لولا) حرف مستعمل هنا في التمني، وأصل معناه التحضيض، فأطلق وأريد به التمني، لأن التمني يستلزم الحرصَ، والحرصُ يدعو إلى التحضيض، وحذف وصف (سورة) في حكاية قولهم: (لولا نزلت سورة) لدلالة ما بعده عليه من قوله: (وذُكِر فيها القتال)، لأن قوله (فإذا أنزلت سورة)، أي: كما تمنَّوا، اقتضى أن المسؤول سورة يشرع فيها قتال المشركين، فالمعنى: لولا نزلت سورة يذكر فيها القتال وفرضه، فحُذف الوصف إيجازاً"[2] .

النداء:

النداء هو تنبيه المخاطب وحمله على الالتفات والاستجابة[3]، وهو أسلوب من أساليب الطلب، ويتم النداء بأدوات خاصة أشهرها الهمزة، و(أي) لنداء القريب قربا حسيا أو معنويا، ويا، وهيا، وأيا لنداء البعيد بعدا حسيا أو معنويا، وأكثر أدواته استعمالا هي (يا) لنداء القريب والبعيد[4].

وحكم المنادى هو النصب إن كان مضافا أو شبيها بالمضاف أو نكرة غير مقصودة، أو في محل النصب إذا كان اسم علم مفرد أو نكرة مقصودة، ويكون ذلك على تقدير فعل محذوف يقدر بـــ:(أدعو) أو (أنادى) عند بعضهم.

1 ــ التحرير والتنوير:49/24.

2 ــ التحرير والتنوير: 107/26.

3 - شرح المفصّل: 120/8.

4 - ينظر الإتقان للسيوطي: 2/ 82 –83 .

وقد يخرج النداء عن غرضه الأصلي إلى أغراض أخرى كالدّعاء أو الترجي أو الالتماس، أو الندبة، أو التعظيم، أو التحقير، أو التنبيه، أو الاستغاثة، وغالبا ما يصحب بأمر أو نهي.

النداء بـ (يا):

من ذلك قوله تعالى: (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) [الزمر:52] فـ (أن) وما دخلت عليه في محل نصب مفعول لأجله، وقدّره الزمخشري بقوله: "أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كراهة أن تقول"[1]، و(نفس) فاعل (تقول)، و(يا) حرف نداء، و(حسرتا) منادى مضاف لياء المتكلم المنقلبة ألفا، وأصله (ياحسرتي) أي:ندامتي، و(على ما فرطت) أي: على تفريطي، فـ (ما) مصدرية، والمصدر المؤول مجرور بـ (على)، والجار والمجرور متعلقان بـ (حسرتا)، و(في جنب اللّه) متعلقان بـ (فرطت).

ثمّ ذكر الزمخشري علة تنكير (نفس) قائلا: "فإن قلت: لم نكرت؟ قلت: لأنّ المراد بها بعض الأنفس، وهي نفس الكافر، ويجوز أن يراد: نفس متميزة من الأنفس: إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعذاب عظيم، ويجوز أن يراد التكسير، كما قال الأعشى :

وربّ بقيع لو هتفت بجوه ... أتاني كريم ينفض الرّأس مغضبا[2]"[3]

وفي حرف (يا) في قوله: (ياحسرتي) استعارة مكنية بتشبيه الحسرة بالعاقل الذي ينادي ليقبل، أي هذا وقتك فاحضري، والنداء من روادف المشبه به المحذوف، أي: يا حسرتي احضري فأنا محتاج إليك، أي إلى التحسر، وشاع ذلك في كلامهم حتى صارت هذه الكلمة كالمثل لشدة التحسر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1 ــ الكشاف: 136/4.

2 ــ البيت للأعشى وقبله: دعا قومه حولي فجاءوا لنصره ... وناديت قوما بالمُسَنّاة غُيَّبَا
فأرضوه أن أعطَوهُ منّي ظُلامَةً ... وما كنت قُلاًّ قبل ذلك أَزْيَبَا
يصف قومه بالجبن حتى كأنهم أموات مقبورون، صارت الأحجار مسناة فوقهم. وسنيت الشيء سهلته، أى : منعمة مملسة. أو بالية مفتتة. ويجوز أن أصله مسننة ، فقلبت النون الثانية ألفا. وسننت الحجر حددته وملسته. وفي وصف القبور بذلك مبالغة في وصف قومه بالجبن، بل هم دون تلك الأموات، وقُل: قليل، وأزيب: اللئيم الدعي، فرب بقيع : أى موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى، والمراد مقبرة، لا بقيع الغرقد بالغين وهو مقبرة المدينة بعينها، لو هتفت بجوه، أى : ناديت شجاعهم لجاءنى كريم ينفض رأسه من تراب القبر، أو من الغضب لما نالني من المكروه، وليس المراد كريما واحدا، بل كرماء كثيرون بمعونة المقام، والحو - بالمهملة - : الشجاع، وبالمعجمة : العسل، وبالجيم : ما غلظ وارتفع من الأرض. ديوان الأعشى. ص:115.

3 ــ الكشاف: 136/4.

حذف حرف النداء في الدعاء:

ومن النداء الدعاء في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) [غافر:7] وافتتح دعاء الملائكة للمؤمنين بالنداء لأنه أدخل في التضرع وأرجى للإجابة، وتوجهوا إلى الله بالثناء بسعة رحمته وعلمه لأن سعة الرحمة مما يُطمع باستجابة الغفران، وسعة العلم تتعلق بثبوت إيمان الذين آمنوا[1].

حذف المنادى:

ورد حذف المنادى في قوله تعالى: (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) [الفجر:24] و(يا) حرف تنبيه ونداء، والمنادى محذوف، و(ليتني) ليت، واسمها، وجملة (قدمت) خبرها و(لحياتي) جار ومجرور متعلقان بـــ (قدمت)، وجملة النداء مقول القول.

و (يا ليتني) الخ يمكن أن تكون قولاً باللسان تحسراً وتندماً، فتكون الجملة حالاً من (الإنسان)، أو بدل اشتمال من جملة (يتذكر)، فإن تذكره مشتمل على تحسر وندامة، ويمكن أن تكون قوله في نفسه، فتكون الجملة بياناً لجملة (يتذكر)2.

المنادى المعرف الموصوف:

ومن دلالة النداء ما تضمنه وصف المنادى بعده بالمعرف بـــ(ال) كقوله تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) [الفجر:27] فوصف (النفس) بـــ (المطمئنة) ليس وصفاً للتعريف ولا للتخصيص، أي لتمييز المخاطَبين بالوصف الذي يميزهم عمن عداهم، فيعرفون أنهم المخاطبون المأذونون بدخول الجنة، لأنهم لا يَعْرفون أنهم مطمئنون إلا بعد الإذن لهم بدخول الجنة، فالوصف مراد به الثناء والإيماء إلى وجه بناء الخبر، وتبشير من وُجه الخطاب إليهم بأنهم مطمئنون آمنون.

ويمكن أن يكون للتعريف أو التخصيص، بأن يجعل الله إلهاماً في قلوبهم يعرفون به أنهم مطمئنون[3].

---

1 ــ التحرير والتنوير: 90/24.

2 ــ ينظر التحرير والتنوير: 339/30.

3 ــ ينظر التحرير والتنوير: 343/30.

الاستعاضة عن الياء بالميم في لفظ (اللّهم):

ومن النداء الدعاء في قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [الزمر:46] فـ (اللهم) منادى، والميم المشددة عوض عن (يا)، و(فاطر السموات والأرض) منادى مضاف.

قال ابن عاشور: "وابتدىء خطابُ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربَّه بالنداء، لأن المقام مقام توجيه وتحاكم، وإجراء الوصفين على اسم الجلالة لما فيهما من المناسبة بخضوع الخلق كلهم لحكمه، وشمول علمه لدخائلهم من مُحقّ ومُبطل"[1].

وإنما قال في (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): إنه على تقدير: (يا)، و لم يجعله صفة على المحلّ، لأن اسم اللّه سبحانه وتعالى لما اتصلت به الميم المعوضة عن حرف النداء أشبه الأصوات فلم يجز نعته، أي: فقد صار مثل هلا، إذ الميم بمنزلة صوت مضموم إلى اسم اللّه مع بقائهما على معنييهما[2].

المنادى المضاف إلى ياء المتكلم:

ومن النداء ما يفيد العموم كقوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر:53]، فالخطاب بـــ (ياعِبَادي) وإن كان يراد به المشركون ابتداءً بدليل قوله: (وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ) [الزمر:54]، وقوله: (وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) [الزمر:56]، وقوله: (بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [الزمر:59] فقد جرى على غير الغالب في مثله في عادة القرآن عند ذكر (عبادي) بالإضافة إلى ضمير المتكلم.

وعموم قوله (عبادي) وعموم صلة (الذين أسرفوا) يشمل أهل المعاصي من المسلمين، وإن كان المقصود الأصلي من الخطاب المشركين، على عادة الكلام البليغ من كثرة المقاصد والمعاني التي تفرغ في قوالب تسعُها.

ولعل وجه ثبوت الياء في هذه الآية دون نظيرها، وهو قوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ..) [الزمر:10]، أن الخطاب هنا للذين أسرفوا وفي مقدمتهم المشركون،

1 ــ التحرير والتنوير: 24.31.

2 ــ إعراب القرآن وبيانه:522/6.

وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم، فكان إثبات (ياء) المتكلم في خطابهم زيادة تصريح بعلامة التكلُّم تقوية لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى، إيماء إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده[1].

ثمّ إن في قوله سبحانه: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر:53] فنون متنوعة من البديع والبيان، من إقباله سبحانه عليهم، وفي ذلك منتهى الاطمئنان لهم، لمحو ما سبق لهم من ذنوب وأوضار، والإشعار بأن أمامهم مندوحة من الوقت لاستدراك ما فرط ورأب ما انصدع.

ثم نداؤهم، وفي ذلك من التودّد إليهم والتلطف بهم ما يهيب بذوي المسكة من العقول منهم إلى المبادرة بالإنابة والرجوع بالتوبة.

ثم إضافتهم إليه إضافة تشريف لهم، وأنهم خلقاء بآصرة العبودية يمتون بها إليه سبحانه، وذلك كاف لمقابلتهم ذلك بالمثل، وإعلان التوبة للازدلاف إليه بها، وإضافة الرحمة إلى أخص أسمائه تعالى وأجلها، وأنها هي الأصل في معاملته لعباده، وإعادة الظاهر بلفظه في قوله (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا).

ثم الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله (من رحمة اللّه) لتخصيص الرحمة بالاسم الكريم كما تقدم آنفا.

وأخيرا إبراز الجملة من قوله (إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) مؤكدة بـــ (أن)، وبضمير الفصل، وبالصفتين المودعتين للمبالغة، فهذه سبعة فنون كاملة في آية واحدة.

المنادى والترخيم:

ومن النداء المقترن بالدعاء قوله تعالى: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ) [الزحرف:77] وفي الآية الواو عاطفة، و(نادوا) فعل ماض، وفاعل، و(يا مالك) نداء، واللام لام الأمر، و(يقض) فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و(علينا) جار ومجرور متعلقان بـــ (يقض)، أي: ليمتنا، و(ربك) فاعل.

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 41/24.

وجيء بندائهم بصيغة الماضي مع أنه مما سيقع يوم القيامة، إما لأن إبلاسهم في عذاب جهنم ــ وهو اليأس، يكون بعد أن نادوا يا مالك[1]، وأجابهم بما أجاب به، وذلك إذا جعلت جملة (ونادوا) حالية، وإمّا لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه، تخريجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، نحو قوله تعالى: (ويَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) [النمل:87] (فصَعِق مَن في السماوات ومَن في الأرض) [الزمر:68] وهذا إن كانت جملة (ونادوا) معطوفة .

قال الزخشري: "وقرأ على وابن مسعود رضى اللّه عنهما: يا مال، بحذف الكاف للترخيم ، ...وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: ونادوا يا مال، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم.

وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه، وقرأ أبو السرار الغنوي: يا مال[2]، بالرفع كما يقال: يا حار[3]..."[4].

واللام في (ليقض علينا ربك) لام الأمر بمعنى الدعاء، وتوجيه الأمر إلى الغائب لا يكون إلا على معنى التبليغ كما هنا، أو تنزيل الحاضر منزلة الغائب لاعتبار مَّا، مثل التعظيمِ،

---

1 ــ قال الزمخشري: " فإن قلت : كيف قال وَنادَوْا يا مالِكُ بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلت : تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم ، وعلمهم أنه لا فرج لهم ، ويغوّثون أوقاتا لشدّة ما بهم ماكِثُونَ لابثون. وفيه استهزاء. والمراد : خالدون. عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إنما يجيبهم بعد ألف سنة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم (يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيقولون : ادعوا مالكا ، فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك. ــ الكشاف: 264/4

2 ــ قال صاحب إعراب القرآن وبيانه: "قال ابن جنّي : "و للترخيم في هذا الموضع سر، وذلك أنهم لعظم ما هم عليه خفتت أصواتهم ووهنت قواهم وذلّت أنفسهم فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة ".

قال الطيبي: قلت هذا اعتذار منه لقراءة ابن مسعود، حيث ردّها ابن عباس بقوله : ما أشغل أهل النار عن الترخيم فإن ما للتعجب وفيه معنى الصدّ، نظير قولك لمن كان في شدة واشتغل عنها بما لا يهمه: ما أشغلك عن هذا!! أما يصدّك عن هذا ما أنت فيه من الهول والشدّة؟!" قلت: والترخيم هو لغة التسهيل والتليين يقال صوت رخيم أي سهل لين ، واصطلاحا حذف بعض الكلمة على وجه مخصوص وهو ثلاثة أنواع :

1- ترخيم النداء 2- ترخيم الضرورة 3- ترخيم التصغير ، ومباحثها في كتب النحو. و مالك هو خازن النار أي رئيس سدنتها الماضي عليهم كلامه و مجلسه في وسط النار وفيها جسور تمر عليها ملائكة العذاب فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها". ا هـ إعراب القرآن وبيانه: 105/7ــ106.

3 ــ يا حار: في نداء حارث

4 ــ الكشاف: 264/4.

في نحو قول الوزير للخليفة: لِيَرَ الخليفة رأيه، و(مالك) المنادى اسم المَلَك الموكّل بجهنم خاطبوه ليرفع دعوتهم إلى الله تعالى شفاعة.

وقد بدا واضحا من تتبعنا للجملة الطلبية في هذا الربع من القرآن الكريم أن الأسلوب القرآني قد وظف كل إمكانات التعبير المحتملة والموجودة في اللغة، لإيصال رسالته الاعتقادية أو التشريعية في أحسن صورة وفي أروع سبك، كما بدا ذلك الثراء الدلالي والبلاغي الذي يقف المرء مبهورا حياله، حتى أنه لبإمكاننا القول أن مجمل بنى الجملة الطلبية التي وردت في هذا الربع قد خرجت إلى معان بلاغية، من ذلك خروج الاستفهام إلى الإنكار والتوبيخ تارة، والتهديد تارة أخرى، والتعريض بشأن ما في سياقات أخر .

ولا يختلف شأن الأمر والنهي عن الاستفهام إذ نجد للأمر مواضع لا يستعمل فيها، وللنهي مواضع قد يصلح فيها الأمر وقد لا يصلح، ولكن لا على سبيل الاختيار، وإنما على قصد إعطاء دلالة إضافية، وتأكيد أمر ما مثلما هو شأن توكيد الأمر عن طريق النهي.

كما لمسنا ذلك التفنن والتنوع في استخدام أسلوب التمني والنداء وذلك بحسب ما يليق بالمُنَادِي وبالمنادَى في كل مقام، إضافة إلى أنه قد يقترن بأمر ونهي أو استفهام أو خبر فيهدي إليك ثوبا جديدا من المعاني، ما كنت لتصل إليه لولا ذلك الرصف والبناء العجيب.

الفَصْل الرّابِع

الجـــــــــملة الشـــــرطية

المبحث الأوّل: الشرط باستخدام الحروف

المبحث الثاني: الشرط باستـــخدام الأسماء

المبحث الثالث: الشرط باستخدام الظروف

المبحث الرابع: أجـــوبة التراكيب الطلبية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ الجملة الشرطية:

جعل الزمخشري وغيره الجملة الشرطية جملة مستقلة، فتكون الجمل حينئذ اسمية وفعلية وشرطية وذلك نحو: (بكر إن تعطه يشكرك).

وهي عند الجمهور فعلية، وذلك أن الجمل الشرطية تكون مصدرة إما بحرف شرط أو باسم شرط، واسم الشرط قد يكون عمدة، وقد يكون فضلة، تقول: (من تكرم أكرم)، فـــ (من) مفعول به مقدم، ونحو قوله تعالى: (أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [الإسراء:110]، فـــ (أيا) مفعول به مقدم منصوب[1].

وتقول (متى تأتني آتك)، فـــ (متى) ظرف زمان، و(أينما تذهب اذهب معك) فـــ(أينما) ظرف مكان، وهذه الأسماء ليست عمدا، وهي مقدمة عن تأخير، نحو قولك (محمدا أكرمت)، و(غدا أسافر)، و(بينكما أجلس)، وأن العبرة بصدر الجمل، فكذلك الأمر في الجمل الشرطية.

وقد يقول قائل أي فرق بين أسماء الشرط وبين أسماء الاستفهام؟ فلماذا يكون قولك (أي رجل تكرم؟) جملة فعلية باعتبار (أيّ) مفعول به مقدما، ولا يكون (أي رجل تكرم أكرم) جملة فعلية أيضا، مع أن إعراب (أي) في الجملتين واجد؟ ولماذا يكون قولك (متى تسافر؟) جملة فعلية، ولا يكون قولك (متى تسافر أسافر) جملة فعلية أيضا؟ ولماذا يكون قولك (أين تذهب؟) جملة فعلية، ولا يكون قولك (أين تذهب أذهب) جملة فعلية أيضا؟

فالظاهر أن هذه الجمل عل شاكلة واحدة، وهي جمل فعلية، وفي نحو قولك (من يأتني أكرمه) و(أي رجل يحضر أحضر معه)، و(ما يرضك يرضني) جمل اسمية، لأن (من) و(أي) و(ما) مبتدءات، فتكون الجمل على سمت واحدة،ويقال ذلك في بعض الجمل الشبيهة بالشرطية نحو (الذي يأتني فله الفضل) وغيرها، فهل يمكن تصنيفها تصنيفا خاصا أيضا.

ومن منطلق التقسيم الذي ابتدأت به، باعتبار الخبر والطلب، وذلك مما يشتمل على نوعي الجملة، أي: الاسمية والفعلية، وباعتبار دلالتها التي يتنازعها الخبر والإنشاء، جعلت لجملة الشرط فصلا مستقلا.

1 ـــ ينظر مغني اللبيب: 17/5. وما بعدها.

وللشرط أدوات، تنقسم إلى أدوات جازمة و أدوات غير جازمة، وتجزم الأدوات الجازمة منها فعلين، وهي: إن، ومن، وما، ومهما، وأيّ، ومتى، وأيان، أين، وإذ ما، وحيثما، وأنى، وهذه الأدوات التي تجزم فعلين كلها أسماء، إلا إن، وإذ ما، فإنهما حرفان[1].

وهذه الأدوات تقتضي وجود "جملتين، إحداهما ـــ وهي المتقدمة ـــ تسمى شرطا، والثانية ـــوهي المتأخرة ـــ تسمى جوابا وجزاء، ويجب في الجملة الأولى أن تكون فعلية، وأما الثانية فالأصل فيها أن تكون فعلية، ويجوز أن تكون اسمية، نحو إن جاء زيد أكرمته، وإن جاء زيد فله الفضل"[2].

وتطلق تسمية أدوات الشرط غير الجازمة على تلك الأدوات الشرطية التي لا تؤثر جزما على الفعل المضارع، إلا أن المعنى التعليقي موجود في هذه الأدوات، و تنقسم أدوات الشرط غير الجازمة إلى نوعين: أدوات شرط امتناعية، وأدوات شرط غير امتناعية.

أولا: أدوات الشرط الامتناعية وهي: لو، لولا، لوما، والمقصود من الامتناع أن الربط بين جملتي الشرط والجواب يكون ربطا سلبيا، إذ لا يكمن التعليق فيها لتوقف وجود الجواب على وجود الشرط، وإنما لأن الربط بين الشرط والجواب يقوم على انعدام الجواب لانعدام الشرط، كما هو الحال في (لو)، وقد يكون انعدام الجواب لوجود الشرط كما هو الحال في (لولا)، و(لوما)، وذلك يعني أن الامتناع قد يكون للجواب والشرط معا كما في (لو)، وقد يكون الامتناع للجواب دون الشرط كما في (لولا)، و(لوما).

ثانيا:أدوات الشرط غير الامتناعية:وهذا النوع الثاني من أدوات الشرط غير الجازمة، ويطلق عليه أدوات الشرط غير الامتناعية، أي: أن الشرط في هذا المقام لا يفيد الامتناع كما هو الحال في (لو) وأخواتها، وإنما يفيد مجرد التعليق، والربط بين جملتي الشرط والجواب، مثله تماما مثل أدوات الشرط الجازمة، وأدوات الشرط غير الامتناعية هي: إذا، أمَّا، مَّا،كلَّما[3]، وقد قسمت الأدوات في الجملة الشرطية بين الاسمية، والظرفية، والحرفية، فجاءت كالآتي:

---

1 ــ ينظر شرح ابن عقيل:4/22ــ26.

2 ــ شرح ابن عقيل:4/27.

3 ــ ينظر همع الهوامع في شرح جمع الجوامع. جلال الدين السيوطي. تحقيق أحمد سمس الدين. دار الكتب العلمية.بيروت. لبنان. الطنغة الأولى. 1998م. 2/449. وما بعدها.

1ــ الشرط باستخدام الحروف:

وقسّمته تبعا لحرف الشرط، فكان منه:

الشرط بـــ (أمّا):

"(أمّا) حرف تفصيل، وهي قائمة مقام أداة الشرط، وفعل الشرط، ولهذا فسرها سيبويه: بمهما يك من شيء، والمذكور بعدها جواب الشرط، فلذلك لزمته الفاء، نحو: أما زيد فمنطلق، والأصل: مهما يك من شيء فزيد منطلق، فأنيبت (أمّا) مناب (مهما يك من شيء)، فصار: أما فزيد منطلق، ثم أخرت الفاء إلى الخبر، فصار: أما زيد فمنطلق"[1].

وهذه الفاء ملتزمة الذكر، وقد جاء حذفها بكثرة عند حذف القول معها[2]، كقوله عز وجل: (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ..) [آل عمران:106] أي: فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم.

وجاء الشرط بـــ (أمّا) لإفادة التمييز والفصل كقوله تعالى: (فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) [الفجر:15ــ16]

وهما جملتان شرطيتان مصوغتان على المنوال نفسه تقريبا، جاء في إعراب القرآن للدرويش: "الفاء استئنافية،...و(أمّا) حرف شرط وتفصيل، و(الإنسان) مبتدأ، و(إذا) ظرف متعلق بـــ(يقول)، و(ما) زائدة، وجملة (ابتلاه) في محل جر بإضافة (إذا) إليها، و(ربه) فاعل، (فأكرمه) عطف على ابتلاه، و(نعمه) عطف أيضا، والفاء رابطة لما في (أما) من معنى الشرط، وجملة (يقول) خبر الإنسان، ولا يمتنع تعلق الظرف بـــ(يقول) الواقعة خبرا، لأن الظرف في نية التأخير والتقديم، فأما الإنسان فقائل: ربي أكرمني وقت الابتلاء، و(ربي) مبتدأ، وجملة (أكرمني) خبر، وحذفت الياء من أكرمن اختصارا"[3].

و"حرف (أمَا) يفيد تفصيلاً في الغالب، أي يدل على تقابل بين شيئين من ذوات وأحوال، ولذلك قد تكرر في الكلام، فليس التفصيلُ المستفاد منها بمعنى تبيينِ مجملٍ قبلَها، بل هو تفصيل وتقابُل وتوازن، وهو ضرب من ضروب التفصيل الذي تأتي له (أمَّا)، فارتباط

1 ــ شرح ابن عقيل:42/4.

2 ــ ينظرشرح ابن عقيل:43/4.

3 ــ إعراب القرآن وبيانه: 309/8.

التفصيل بالكلام السابق مستفاد من الفاء الداخلة على (أما)، وإنما تعلقه بما قبله تعلّقُ المفرع بمنشئه، لا تفصيل بيان على مجمل"1.

والمفصل هنا أحوال الإنسان الجاهل فُصّلت إلى حاله في الخفض والدعة، وحاله في الضنك والشدة، فالتوازن بين الحالين المعبَّر عنهما بالظرفين، في قوله: (إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ) الخ وفي قوله : (وإِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) الخ، وهذا التفصيل ليس من قبيل تبيين المُجمل، ولكنه تمييز وفصْل بين شيئين أو أشياء تشتبه أو تختلط.

وأوثِر الفعل المضارع في الجوابين لإفادة تكرر ذلك القول وتجدده كلما حصل مضمون الشرطين.

ومن الشرط بـــ (أما) قوله تعالى: (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨)فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) [الواقعة:88ـــ89]، و(أما) حرف شرط و تفصيل، و(إن) شرطية، و(كان) فعل ماض ناقص، واسمها مستتر، أي: (المتوفّى)، و(من المقربين) خبر (كان)،(فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) الفاء رابطة لجواب (أما)، و وجواب (إن) الشرطية محذوف أغنى عنه جواب (أمَّا) المذكور، وحذف جواب إن شائع كثيرا، و(روح) مبتدأ خبره محذوف مقدّم عليه، أي: فله روح، وما بعده عطف عليه.

وجملة (فروح وريحان) جواب (أما) التي هي بمعنى: مهما يكن شيء، وفُصل بين (ما) المتضمنة معنى اسم الشرط، وبين فعل شرط، وبين الجواب ـــ بشرط آخر، هو (إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) لأن الاستعمال جرى على لزوم الفصل بين (أمّا) وجوابها بفاصل، كراهية اتصال فاء الجواب بأداة الشرط، لما التزموا حذف فعل الشرط فأقاموا مقامه فاصلاً كيفَ كان.

وبالصيغة الشرطية نفسها، أي: أمّاـــ إن كان ـــ جار ومجرور.....ـــ الفاء الرابطة لجواب (أما)ـــ مبتدأ خبره محذوف مقدّم عليه، ـــ أتى قوله تعالى بعدها: (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠)فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) [الواقعة:90ـــ91]

وقوله تعالى: (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢)فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣)وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) [الواقعة:92ـــ93ـــ94]

1 ـــ التحرير والتنوير: 328/30ـــ329.

ومثله قوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) [الليل:5..10] (فأما) تفريع وتفصيل للإجمال في قوله: (إن سعيكم لشتى) [الليل:4] فحرف (أمَّا) يفيد الشرط والتفصيل، وهو يتضمن أداة شرط وفعل شرط، لأنه بمعنى: مَهما يكن من شيء ، والتفصيل: تفكيك بين متعدد اشتركت آحاده في حالة، وانفرَد بعضها عن بعض بحالة هي التي يُعتنَى بتمييزها.

ومن ذلك قوله تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩)وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠)وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) [الضحى:9ــ 11] فلما كانت (أمَّا) بمعنى: ومهما يكن شيء، قرن جوابها بالفاء، وقدم مفعول الفعل (فلا تقهر) وهو (اليتيم) للاهتمام بشأنه، ولهذا القصد لم يؤت به مرفوعاً، وقد حصل مع ذلك الوفاء باستعمال جواب (أما) أن يكون مفصولاً عن (أما) بشيء، كراهية موالاة فاء الجواب لحرف الشرط، ويظهر أنهم ما التزموا الفصل بين (أما) وجوابها بتقديم شيء من علائق الجواب إلا لإرادة الاهتمام بالمقدم، لأن موقع (أما) لا يخلو عن اهتمام بالكلام اهتماماً يرتكز في بعض أجزاء الكلام، فاجتلاب (أما) في الكلام أثر للاهتمام، وهو يقتضي أن مثار الاهتمام بعض متعلّقات الجملة، فذلك هو الذي يعتنون بتقديمه، وكذلك القول في تقديم (السائل)، وتقديم (بنعمة ربك) على فعليهما[1].

الشرط بـــ (لو):

تستعمل (لو) استعمالين:

أحدهما: أن تكون مصدرية، وعلامتها صحة وقوع (أن) موقعها، نحو: وددت لو قام زيد، أي: قيامه.

الثاني: أن تكون شرطية، ولا يليها غالبا إلا ماضي المعنى، وذلك نحو قولك: لو قام زيد لقمت، وفسرها سيبويه: بأنها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره، وفسرها غيره بأنها حرف امتناع لامتناع، وهذه العبارة الأخيرة هي المشهورة، والأولى الأصح، وقد يقع بعدها ما هو مستقبل المعنى،.. ومنه قوله تعالى: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ) [النساء:9][2]

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 401/30.

2 ــ ينظر شرح ابن عقيل: 38/4.

وتختص (لو) الشرطية بالفعل، "فلا تدخل على الاسم، كما أن (إن) الشرطية كذلك، لكن تدخل (لو) على (أن) واسمها وخبرها، نحو: لو أن زيدا قائم لقمت، واختلف فيها، والحالة هذه، فقيل: هي باقية على اختصاصها، و(أن) وما دخلت عليه في موضع رفع فاعل بفعل محذوف، والتقدير: لو ثبت أن زيدا قائم لقمت، أي: لو ثبت قيام زيد، وقيل: زالت عن الاختصاص، و(أنّ) وما دخلت عليه في موضع رفع مبتدأ، والخبر محذوف، والتقدير: لو أن زيدا قائم ثابت لقمت، أي: لو قيام زيد ثابت، وهذا مذهب سيبويه"[1].

وإن وقع بعدها فعل مضارع فإنها تقلب معناه إلى المضى[2]، ولا بد لـــ(لو) هذه من جواب، وجوابها إما فعل ماض أو مضارع منفي بـــ(لم)، وإذا كان جوابها مثبتا فالأكثر اقترانه باللام، نحو: لو قام زيد لقام عمرو، ويجوز حذفها، فتقول: لو قام زيد قام عمرو، وإن كان منفيا بـــ(لم) لم تصحبها اللام، فتقول: لو قام زيد لم يقم عمرو، وإن نفي بـــ(ما)، فالأكثر تجرده من اللام، نحو: لو قام زيد ما قام عمرو، ويجوز اقترانه بها، نحو: لو قام زيد لما قام عمرو[3].

ومن طريف ما يوجد في الرّبع الأخير من القرآن من الجمل الشرطية، واستعمال الشرط بـــ (لو) قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣)أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨)أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩)لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) [الواقعة:63ـــ70]

فقال في آية الزرع: (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) [الواقعة:65] باللام في: (لجعلناه)، وقال في آية الماء: (لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ) [الواقعة:70] ففي الآية الأولى: (لو) شرطية، و(نشاء) فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: نحن، واللام واقعة في جواب (لو)، و(جعلناه) فعل، وفاعل، ومفعول به، و(حطاما) مفعول (جعل) الثاني،

---

1 ــ شرح ابن عقيل: 39/4.

2 ــ قال ابن مالك: لو حرف شرط في مضي ويقل إيلاؤها مستقبلا لكن قبل
وهي في الاختصاص بالفعل كإن لكن لو أن بها قد تقتـــرن
وإن مضارع تلاها صـــــــرفا إلى المضي نحو لو يفي كفى

3 ــ ينظر شرح ابن عقيل: 40/4ـــ41.

والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم، و(ظلتم) فعل ماض ناقص وأصله (ظَلِلتم) بكسر اللام حذفت العين تخفيفا، والتاء اسمها، و(تفكهون) فعل مضارع حذفت منه إحدى تاءيه، والواو فاعل، وجملة (تفكهون) خبرها، وللآية المقابلة لها الإعراب نفسه، غير أنه لم يذكر اللام.

قال الزمخشري: "فإن قلت: لم أدخلت اللام على جواب (لَوْ) في قوله (لَجَعَلْناهُ حُطاماً) ونزعت منه هاهنا؟ قلت: إنّ (لو) لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى، تعلق الجزاء بالشرط، و لم تكن مخلصة للشرط كـــ (إن)، ولا عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا، من حيث إفادتها في مضموني جملتيها، أنّ الثاني امتنع لامتناع الأوّل: فافتقرت في جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق، فزيدت هذه اللام لتكون علما على ذلك، فإذا حذفت بعد ما صارت علما مشهورا مكانه، فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفا ومأنوسا به: لم يبال بإسقاطه عن اللفظ، استغناء بمعرفة السامع.

ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول: خير ، لمن قال له: كيف أصبحت؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه، وتساوي حالي حذفه وإثباته لشهرة أمره.... فإذن حذفها اختصار لفظي، وهي ثابتة في المعنى، فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما، على أن تقدّم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية ونائب عنه"[1].

و لم يكتف الزمخشري بهذا التبرير لسقوط اللام في الآية الثانية بدلالة الأولى عليها، بل ذكر مبررا ثانيا لدخول هاته اللام وهو التوكيد، وسننقل قوله بعد أسطر.

وسبب تأكيد الفعل باللام في قوله في الزرع: (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا) وعدم تأكيده في الماء حيث قال تعالى: (لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً) أن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاما لا يحتمل أن يتوهم أنه من فعل الزراع، ولهذا قال سبحانه: (أ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) أو يتوهم أن خصبه من سقي الماء، وأن جفافه من حرارة الشمس وعدم السقي، أو تواتر مرور الإعصار، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك كله على الحقيقة، وأنه قادر على جعله لو شاء حطاما في حالة نموّه وزمن ونضارته.

1 ــ الكشاف: 4/465ــ466.

فلما كان هذا التوهم محتملا أوجبت البلاغة توكيد فعل الجعل فيه وإسناده لزارعه على الحقيقة ومنشئه، لرفع هذا التوهم، ولما كان إنزال الماء من السماء محالا بما لا يتطرق احتمال توهم متوهم أن أحدا من جميع الخلق قادر عليه، لم يحتج إلى توكيد الفعل في جعله أجاجا، فإنه لا يمكن أن يتوهم أحد أن أحدا يترل الماء من السماء أجاجا ولا عذبا الذي هو أسهل من الأول وأهون.

وفي الآية الأولى ذكر عمل الإنسان في الحرث والزرع وبذل الجهد فيهما فقال: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣)أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)[الواقعة] فإن الزراعة والحراثة تقتضي بذل جهد كبير ليستوي الزرع على سوقه، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر فيها شيئا.

ثم إن الإنسان إذا حرث وزرع وبذل جهدا حتى إذا استوى زرعه على سوقه، وحان وقت الاستفادة منها أصبح حطاما، كان ذلك أشق شيء عليه، لأنه يرى عمله وكدّه وإنفاقه ذهب هباء وضاع سدى، إذ دلّ عليه قوله تعالى: (فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)[الواقعة]، ومعنى (تفكهون): تندمون على اجتهادكم فيه، وتذكرون الحرمان بعد التعب، والمغرم: المثقل بالديون.

وهذا إضافة إلى ثقل الخسارة المادية بصيرورة الزرع حطاما وما ينتج عن ذلك من آثار، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الماء الأجاج يمكن تحويله إلى ماء عذب بالتقطير أو بغير ذلك من وسائل التحلية، فيكون صالحا للاستعمال والشرب كما نرى الآن في كثير من الأماكن، وأما الحُطام من الزرع فلا يمكن تحويله إلى حب أو فاكهة يأكل منها الإنسان، فحالة الحرمان والخسارة فيه أكبر، ولهذا أتى الفرق بين الحالين، فوضعت اللام في الموضع الذي يقتضيها.

جاء في (الكشاف):" إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم عل أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب، من قِبَلِ أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعا للمطعوم...ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب"[1].

1 ــ الكشاف: 467/4.

يدلك على ذلك أنه حيث اجتمع الأكل والشرب في القرآن الكريم قدم الأكل على الشرب، قال تعالى: (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) [الشعراء:79]، وقال (كلوا واشربوا) في عدة آيات من القرآن الكريم[1]، بتقديم الأكل عل الشرب، وههنا قدم الحرث والزرع على الماء، فناسب ذلك إدخال اللام على آية المطعوم دون المشروب.

وجاء في (روح المعاني): "إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب، لأن جعل الماء العذب ملحا أسهل إمكانا في العرف والعادة، والموجود من الماء المالح أكثر من الماء العذب، وكثيرا ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحا إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق، وأما المطعوم فإن جعله حُطاما من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد، فلذ قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره.اهـ"[2] .وقد دخلت (لو) هنا على جملة فعلية مثبتة ومؤكدة.

ومن الشرط بـــ (لو) قوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...) [الحشر:9] وفي الآية الواو عاطفة، و(يؤثرون) فعل مضارع، والواو فاعل، و(على أنفسهم) جار ومجرور متعلقان بـــ (يؤثرون)، والواو حالية، و(لو) شرطية، و(كان) فعل ماض ناقص، و(بهم) خبر (كان) المقدم، و(خصاصة) اسمها المؤخر.

فدخلت (لو) على جملة منسوخة بفعل ناقص وهو (كان)، وتذكير فعل (كان) لأجل كون تأنيث الخصاصة ليس حقيقياً، ولأنه فُصل بين (كان) واسمها بالمجرور، والباء للملابسة.

وقد دلّت (لو) على تعليق جوابها بشرط يفيد حالة لا يُظنّ حصول الجواب عند حصولها، والتقدير: لو كان بهم خصاصة لآثروا على أنفسهم، فيُعلم أن إيثارهم في الأحوال التي دون ذلك بالأحرى دون إفادة الامتناع.

ومن ذلك قوله تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [الصف:8] ففي قوله (وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ) الواو للحال، و(اللّه) مبتدأ، و(متمّ) خبر، و(نوره) مضاف إليه، والجملة حالية من فاعل (يريدون) أو (يطفئوا)،

1 ــ البقرة:60. الطور:19. الحاقة:24. المرسلات:43.

2 ــ روح المعاني:149/27.

والواو للحال أيضا، و(لو) شرطية، و(كره الكافرون) فعل وفاعل، والجملة حالية من الحالية المتقدمة، وجواب (لو) محذوف، والتقدير: أتمّه وأظهره.

ودلت (لو) هنا على أن مضمون شرطها أجدر ما يُظَنُّ أن لا يحصل عند حصوله مضمونُ الجوَاب، ولذلك يقدِّر المعربون قبله ما يدلّ على تقدير حصول ضد الشرط، فيقولون: هذا إذا لم يكن كذا بل وإن كان كذا ، وهو تقدير معنى لا تقدير حذف، لأن مثل ذلك المحذوف لا يطرد في كل موقع، فإنه لا يستقيم في مثل قوله تعالى : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)[يوسف:17]، إذ لا يقال: هذا إذا كنّا كاذبين، بل ولو كنا صادقين.

وكذلك ما في هذه الآية لأن المعنى : والله متمّ نورَه على فرض كراهة الكافرين، ولما كانت كراهة الكافرين إتمام هذا النور محققةً، كان سياقها في صورة الأمر المفروض تهكماً[1].

ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) [يس:66]،وقوله تعالى: (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ) [يس:67] وهما صيغتان شرطيتان لهما المنوال التركيبي نفسه، ففى الآية الأولى الواو عاطفة، و(لو) شرطية، و(نشاء) فعل مضارع، وفاعل، والمفعول به محذوف، أي: لو نشاء طمسها، واللام واقعة في جواب (لو)، وجملة (طمسنا) لا محل لها، و(على أعينهم) جار ومجرور متعلقان بـــ (طمسنا)، وجملة (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ) في الآية الثانية لها الإعراب نفسه.

فهي جملة شرطية عطفت على جملة شرطية، فالمعطوف عليها جملة شرط امتناعي، والمعطوفة جملة شرط امتناعي أيضا، و أفادت الجملتان إمهالهم والإملاء لهم.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) [الزمر:47] فـــ(لو) شرطية، و(أن) وما دخلت عليه فاعل لفعل محذوف على الأرجح، و(للذين) خبرها المقدم، و(ما) اسمها المؤخر، و(في الأرض) صلة (ما)، و(جميعا) حال، و(مثله) عطف على (ما)، و(معه) ظرف متعلق بمحذوف حال، واللام واقعة في جواب (لو)، و(افتدوا) فعل

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 191/28.

وفاعل، و(به) جار ومجرور متعلقان بـــ (افتدوا)، و(من سوء العذاب) متعلقان بـــ (افتدوا) أيضا، و(يوم القيامة) الظرف حال من فاعل (افتدوا)، أي حال كونهم في ذلك اليوم العصيب، وهو مضاف، و(القيامة) مضاف إليه.

وهذا الشرط مستعمل في التهويل مما سيكون عليه حال المشركين، بأنه لو وجَدوا فديةً منه بالغةً ما بلغت من كل عزيز عليهم من أهليهم وأموالهم بل وأنفسهم لافتدوا بها، فهو أهون من سوء العذاب يوم القيامة.

جاء في التحرير والتنوير:"ووجه التهويل في ذلك هو ما يستلزمه مِلك هذه الأشياء من الشح بها في متعارف النفوس، فالكلام تمثيل لحالهم في شدة الدرك والشقاء، بحال من لو كان له ما ذكر لبذله فدية من ذلك العذاب، وتضمن حرف الشرط أن كون ما في الأرض لهم منتف، فأفاد أن لا فِداء لهم من سوء العذاب وهو تأييس لهم"[1].

ومن الشرط بـــ (لو) قوله تعالى: (قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ) [فصلت:14] فـــ (قالوا) فعل ماض وفاعل، و(لو) حرف شرط غير جازم، و(شاء) فعل، و(ربنا) فاعل، والمفعول به محذوف، تقديره: لو شاء ربنا إنزال ملائكة لأنزلهم، واللام واقعة في جواب الشرط، و(أنزل ملائكة) جملة جواب الشرط، والفاء الفصيحة، و(إن) واسمها، و(بما) جار ومجرور متعلقان بـــ(كافرون)، وجملة (أرسلتم به) صلة، و(كافرون) خبر (إن).

جاء في التحرير والتنوير في حذف مفعول (شاء) بعد (لو) الشرطية: "ومفعول (شاء) محذوف دل عليه السياق، أي لو شاء ربنا أن يرسل إلينا لأنزل ملائكة من السماء مرسَلين إلينا، وهذا حذف خاص هو غير حذف مفعول فعل المشيئة الشائع في الكلام، لأن ذلك فيما إذا كان المحذوف مدلولاً عليه بجواب (لوْ) كقوله تعالى: (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) [الأنعام:149]، ونكتته الإبهام ثم البيان، وأما الحذف في الآية، فهو للاعتماد على قرينة السياق والإيجاز، وهو حذف عزيز لمفعول فعل المشيئة، ونظيره قول المعري :

وإنْ شئتَ فازعُم أَنَّ مَن فوقَ ظهرها   عَبيدُكَ واستَشْهِدْ إلٰهَكَ يَشْهَدِ[2]

---

1 ــ التحرير والتنوير: 33/24.

2 ــ ومطلع هذه القصيدة: إليك تناهى كل فخر وسَوْدَدِ، فأبْلِ الليالي والأنامَ، وجـــدِّدِ

وقبل البيت قوله: وقد علِمت هذي البسيطةُ أنّها تُراثُكَ فلتشرُفْ بذاك وتزْدَد.

وتضمن كلامهم قياساً استثنائياً تركيبه: لو شاء ربنا أن يرسل رسولاً لأرسل ملائكة يترلهم من السماء لكنه لم يترل إلينا ملائكة، فهو لم يشأ أن يرسل إلينا رسولاً، وهذا إيماء إلى تكذيبهم الرسل، ولهذا فرعوا عليه قولهم: (فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كافِرُونَ) أي جاحدون رسالتكم وهو أيضاً كناية عن التكذيب"[1].

الشرط بـــ (إن):

جاء في المغني:" إن ـــ المكسورة الخفيفة ـــ: ترد على أربعة أوجه:

أحدها: أن تكون شرطية، نحو: (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ...) [الأنفال:38]، و(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ) [الأنفال:19]، وقد تقترن بـــ (لا) النافية، فيظن من لا معرفة له أنها (إلا) الاستثنائية، نحو: (إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) [التوبة:40]، (إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ) [التوبة:39].."[2].

ومما يظهر فيه الفرق لاختلاف التركيب الشرطي بـــ (إن) قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ...)[فصلت:50]، وفيها الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، ولا يمكن أن تكون للابتداء لأنها دخلت على (إن) التي هي للجزاء، ولام الابتداء من خصائص الاسم، أو ما يضارع الاسم، و(إن) حرف شرط جازم، و(أذقناه) فعل ماض وفاعل ومفعول به، والجملة في محل جزم فعل الشرط، و(رحمة) مفعول به ثان، و(من بعد) نعت لـــ (رحمة)، أو متعلقان بـــ (أذقناه)، و(ضرّاء) مضاف إليه، وجرّ بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف لألف التأنيث الممدودة، واللام جواب القسم، وجواب الشرط محذوف لسدّ جواب القسم مسدّه على القاعدة المشهورة[3]، و(هذا) مبتدأ، و(لي) خبر، واللام للاستحقاق، أي: أستحقه بعملي.

ديوان أبي العلاء المعري (سقط الزند). دار صادر للطباعة والنشر. بيروت. 1957م. ص:93.

1 ـــ التحرير والتنوير: 255/24.

2 ـــ مغني اللبيب: 125/1.

3 ـــ ذكر النحاة أنه حين يجتمع الشرط والقسم، فإن الجواب يكون للسابق منهما، ويجب أن يكون فعل الشرط ماضيا، وإنما يكون الجواب للقسم، لأن الشرط جاء معترضا بين القسم وجوابه، والمعترض في حكم العدم فألغي جوابه. ويلزم أن يكون فعل الشرط ماضيا لفظا أو معنى حتى لا يظهر لحرف الشرط فيه عمل، وتسمىّ اللام الداخلة على (إن) اللام الموطئة للقسم. شرح الكافية: 339/2.

قال ابن مالك : واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

وقوله تعالى في سورة هود: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) [هود:10] وفيها الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم أيضا، و(إن) حرف شرط جازم، و(أذقناه) فعل ماض، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل جزم فعل الشرط، و(نعماء) مفعول به ثان، و(بعد) ظرف متعلق بمحذوف صفة لـــ (نعماء)، و(ضراء) مضاف إليه، وجملة (مسته) صفة، و(لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) اللام جواب القسم، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم، و(يقولن) فعل مضارع مبني على الفتح، وجملة (ذهب السيئات) مقول القول، و(عني) متعلقان بذهب.

ففي قوله: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ) زيادة (منا)، و(من)، ولا توجد تلك الزيادة في آية سورة هود، وذلك أن قوله (منا) مما بالكلام إلى ذكره حاجة، وقد استغنى عنها في سورة هود عليه السلام لتقدم ذكرها في الآية التي قبلها، وهي : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ)[هود:9].

وأما قوله: (مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ) فلأنه لما حدّ الرحمة والجهة الواقعة منها حدّ الطرف الذي بعدها، ليتشاكل المقترنان في التحقيق، ولما لم يكن ذلك في الآية التي في سورة هود من حدّ في الأول لم يحتج إليه في الثاني.

ومن ذلك ما اجتمع من الصيغ الشرطية بـــ (إن) في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (١٢) [الحشر:11ـــ12] حيث نجد في الآية الأولى: قوله تعالى: (لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ) [الحشر:11]، وقوله تعالى: (وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ) [الحشر:11]

كل واحد من الشرط والقسم يستدعي جوابا، وجواب الشرط إما مجزوم أو مقرون بالفاء، وجواب القسم إن كان جملة فعليـــة مثبتة مصدرة بمضارع أكد باللام والنون، نحو: والله لأضربن زيدا، وإن صدرت بماض اقترن باللام وقد، نحو: والله لقد قام زيد، وإن كان جملة اسمية فبإن واللام، أو اللام وحدها، أو بإن وحدها، نحو: والله إن زيدا لقائم، والله لزيد قائم، والله إن زيدا قائم، وإن كان جملة فعلية منفية فينفي بما أولا أو إن، نحو: والله ما يقوم زيد، ولا يقوم زيد، وإن يقوم زيد، والاسمية كـــذلك، فـــإذا اجتمع شرط وقسم حذف جواب المتأخر منهما لدلالة جواب الأول عليه، فتقول: إن قام زيد والله يقم عمرو، فتحذف جواب القسم لدلالة جواب الشرط عليه وتقول والله إن يقم زيد ليقومن عمرو، فتحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليـــه. شرح ابن عقيل: 4/35ـــ36.

وفي الآية الثانية: قوله تعالى: (لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ) [الحشر:12]

وقوله تعالى: (وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ) [الحشر:12]

وقوله تعالى: (وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ) [الحشر:12]

ففي الشرط الأول اجتمعت صيغتا الشرط والقسم، ففيها اللام موطئة للقسم، و(إن) شرطية، و(أخرجتم) فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط، والتاء نائب فاعل، واللام جواب القسم أيضا، و(نخرجن) فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم، وجواب (إن) الشرطية محذوف، و(معكم) ظرف متعلق بـــ (نخرجنّ).

وكذلك قوله: و(إن قوتلتم)، وفيها الواو عاطفة، و(إن شرطية) حذفت قبلها اللام الموطئة للقسم، و(قوتلتم) فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط، واللام جواب القسم، و(ننصرنّكم) فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وجواب (إن) محذوف، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وفقا للقاعدة، من أنه إذا تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم.

وأتت صيغ الشرط الثلاث في الآية الثانية مقابلات لصيغتي الآية الأولى، وبالاستعاضة عن لام الجواب المؤكّدة بـــ (لا) النافية لمناقضة مضمونهما في تكذيب زعم المنافقين في نصرة اليهود، وباستبدال صيغة الماضي المبني للمجهول بصيغة المضارع المبني للمجهول، للإشارة إلى أنه زعم قديم ممن لا يعتد بمثله ستكذبه أيام الجد واللقاء.

ومن الشرط بـــ (إن) قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[محمد:7]، و(إن) شرطية، و(تنصروا) فعل الشرط، و(اللّه) مفعول به، و(ينصركم) جواب الشرط، و(يثبت أقدامكم) عطف على الجواب، وهذا يتقدير حذف مضاف، أي: دين اللّه ورسوله.

و"جيء في الشرط بحرف (إنْ) الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط، للإشارة إلى مشقة الشرط وشدته ليُجعل المطلوبُ به كالذي يشك في وفائه به"[1] .

1 ــ التحرير والتنوير: 85/26.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ) [الطور:44] وفيها الواو عاطفة، و(إن) شرطية، و(يروا) فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، و(كسفا1) مفعول به، و(من السماء) شبه الجملة صفة لـــ (كسفا)، و(يقولوا) جواب الشرط، و(سحاب) خبر لمبتدأ محذوف، و(مركوم) صفة لـــ (سحاب).

والمعنى: إن يروا كسفاً من السماء مما سألوا أن يكون آية على صدقك لا يذعنوا ولا يؤمنوا ولا يتركوا البهتان، بل يقولوا: هذا سحاب، وإن يقع ذلك في المستقبل يقولوا سحاب، وهذا لا يقضي أنه يقع، لأن أداة الشرط إنما تقتضي تعليق وقوع جوابها على وقوع فعلها لو وقع، والمقصود: أنهم يقولون ذلك عناداً مع تحققهم أنه ليس سحاباً[2]، وهو من قبيل قوله تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) [الحجر:14ــ15]

ومنه قوله تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) [القمر:2] وفيها الواو عاطفة، ويمكن أن تكون (استئنافية)، و(إن) شرطية، و(يروا) فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، و(يعرضوا) جواب الشرط، و(يقولوا) عطف على (يعرضوا)، و(سحر) خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا، و(مستمر) صفة لـــ (سحر).

ووقوع المفعول (آية) نكرة في سياق الشرط يفيد العموم، وجيء بهذا الخبر في صورة الشرط للدلالة على أن هذا ديدنهم ودأبهم.

وضمير (يروا) عائد إلى المشركين، كما جاء في مواضع كثيرة من القرآن، مع أن قصة انشقاق القمر وطعنهم فيها مشهور يومئذٍ، وأورد الطبري الكثير من روايات حادثة انشقاق القمر، منها ما رواه عن قتادة: "أن أنس بن مالك حدثهم أن أهل مكة سألوا رسول

---

[1] ــ والكِسف بكسر الكاف : القطعة ، ويقال : كسفة . والكِسْف : جمع كِسفة ، مثل التمر جمع تمرة ، والسِّدر جمع سِدْرة. والمركوم : المجموع بعضه فوق بعض ، وهو السحاب الممطر قال تعالى : (ثم يجعله ركاماً) (النور:43). ينظر جامع البيان للطبري: 485/22.

2 ــ ينظر التحرير والتنوير: 79/27.

الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرّتين"[1]، ومع ذلك فهم مستمرون على الإعراض والكفر كلما رأوا آية على صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم).

هذا إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط الذي في قوله: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا) [القمر:2]، ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك كأنه قيل: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهوائهم، وسيكذبون ويتبعون أهواءهم[2].

ومن الشرط بـــ (إن) قوله تعالى: (...قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ...) [الزمر:38] فـــ(إن) شرطية، و(أرادني اللّه) فعل، ومفعول به مقدم، وفاعل مؤخر، وهو في محل جزم فعل الشرط، والجواب محذوف وجملة الشرط اعتراضية، والجملة الاستفهامية (هل هن كاشفات) مفعول رأيتم الثاني، و(هن) مبتدأ، و(كاشفات ضره) خبر.

و(ما تدعون من دون الله) مفعول (أرأيتم) الأول، والمفعول الثاني محذوف سدّ مسده جوابُ الشرط المعترَض بعد المفعول الأول، على قاعدة اللغة العربية عند اجتماع مبتدأ وشرطٍ أن يجري ما بعدهما على ما يناسب جملة الشرط، لأن المفعول الأول لأفعال القلوب في معنى المبتدأ.

ومن استعمال الشرط بـــ (إن) لأجل التعجيز قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ) [الرحمن:33] والشرط مستعمل في التعجيز، وكذلك الأمر الذي هو جواب هذا الشرط، من قوله: (فانفذوا)، أي: وأنتم لا تستطيعون الهروب، والمعنى: إن قَدَرْتُم على الانفلات من هذا الموقف فافلتوا، وهذا مؤذن بالتعريض بالتخويف مما سيظهر في ذلك الموقف من العقاب لأهل التضليل[3].

وجملة (هل هن كاشفات ضرِّه) جواب (إنْ)، واستعمال العرب إذا صُدّر الجواب بأداة استفهام غير الهمزة يمكن تجرده عن الفاء الرابطة للجواب، كقوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ

1 ــ جامع البيان للطبري: 565/22.

2 ــ التحرير والتنوير: 172/27.

3 ــ ينظر التحرير والتنوير: 258/27ــ259.

إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) [الأنعام:47]، ويمكن اقترانه بالفاء كقوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)[هود:63]، فأما المصدّر بالهمزة فلا يمكن اقترانه بالفاء كقوله: (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣)أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) [العلق:13،14] .

وجواب الشرط دليل على المفعول الثاني لفعل الرؤية، والتقدير: أرأيتم مَا تدعون من دون الله كاشفات ضرّه، والهمزة للاستفهام وهو إنكاري (إنكاراً لهذا الظن).

وجيء بحرف (هل) في جواب الشرط وهي للاستفهام الإنكاري أيضاً تأكيداً لما أفادته همزة الاستفهام، مع ما في (هل) من إفادة التّحْقيق، وضمير (هُنَّ) عائد إلى (مَا) الموصولة، وكذلك الضمائر المؤنثة الواردة بعده ظاهرةً ومستترة، إما لأن مَاصْدَقَ (ما) الموصولة هُنا أحجار غيرُ عاقلة، وجمع غير العقلاء يَجري على اعتبار التأنيث، ولأن ذلك يُصير الكلام من قبيل الكلام الموجه بأن آلهتهم كالإناث لا تقدر على النصر[1].

ومن الشرط بـــ إن) ما خرج عن أصله وجاء لغرض التحذير كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) [الحشر:1]

فقوله: (... إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي..) [الحشر:1] شرط ذُيّل به النهي من قوله : (لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ).

جاء في التحرير والتنوير: "وهذا مقام يستعمل في مثله الشرطُ بمنزلة التتميم لما قبله، دون قصد تعليق ما قبله بمضمون فعل الشرط، أي لا يقصد أنه إذا انتفى فعل الشرط انتفى ما عُلق عَليه، كما هو الشأن في الشروط، بل يقصد تأكيد الكلام الذي قبله بمضمون فعل الشرط، فيكون كالتعليل لِما قبله، وإنما يؤتى به في صورة الشرط مع ثقة المتكلم بحصول مضمون فعل الشرط، بحيث لا يُتوقع من السامع أن يحصل منه غيرُ مضمون فعل الشرط،

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 17/24

فتكون صيغة الشرط مراداً بها التحذير بطريق المجاز المرسل في المركّب، لأن معنى الشرط يلزمه التردد غالباً، ولهذا يؤتى بمثل هذا الشرط إذا كان المتكلم واثقاً بحصول مضمونه متحققاً صحة ما يقوله قبل الشرط"[1].

قال الزمخشري في (الكشاف) في قوله تعالى: (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء:51] "وقرئ: إن كنا، بالكسر، وهو من الشرط الذي يجيء به المدلّ بأمره[2]، المتحقق لصحته، وهم كانوا متحققين أنهم أوّل المؤمنين.

ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله: إن كنت عملت لك فوفني حقي، ومنه قوله تعالى: (إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي) مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك"[3].

فأتى بـــ (إن) الشرطية مع أنهم متحققون أنهم أول المؤمنين، فطمعوا في مغفرة خطاياهم لتحققهم أنهم أول المؤمنين، فيكون الشرط في مثله بمنزلة التعليل وتكون أداة الشرط مثل (إذْ) أو لام التعليل.

ويغلب أن يكون فعل الشرط في مثله فعل كون إيذاناً بأن الشرط محقق الحصول، وما وقع في هذه الآية من هذا القبيل، فالمقصود استقرار النهي عن اتخاذ عدوّ الله أولياء، وعقب بفرض شرطه موثوق بأن الذين نهوا متلبسون بمضمون فعل الشرط بلا ريب، فكان ذكر الشرط مما يزيد تأكيد الانكفاف، ولذلك يجاء بمثل هذا الشرط في آخر الكلام إذ هو يشبه التتميم والتذييل، وهذا من دقائق الاستعمال في الكلام البليغ .

قال الزمخشري: "وأَنْ تُؤْمِنُوا تعليل ليخرجون، أي: يخرجونكم لإيمانكم، وإِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ متعلق بلا تتخذوا، يعني: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي، وقول النحويين في مثله: هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه"[4].

فهو يعني أن هناك فرقاً بين كلام النحويين وبين ما اختاره هُو مِنْ جَعْله متعلقاً بـــ(لا تتخذوا)، فإنه جعل جواب الشرط غير منوي، وكلام النحاة جرى على غالب

1 ــ التحرير والتنوير: 136/28.

2 ــ قوله: المدل بأمره: أي: الواثق به.

3 ــ الكشاف: 313/3.

4 ــ الكشاف:512/4.

أحوال الشروط التي تتأخر عن جوابها نحو: اقبَل شفاعة فلان إنْ شَفِع عندك، وينبغي أن يتطلب لتقديم ما يدل على الجواب المحذوف إذَا حذف نكتة في غير ما جرى على استعمال الشرط بمترلة التذييل والتتميم، وأداة الشرط في مثله تشبه (لو)، و(لولا)، ولذا قال في (الكشاف) في قوله تعالى:(إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها) [الفرقان:42] "و(لولا) في مثل هذا الكلام جارٍ من حيث المعنى ــ لا من حيث الصنعة ــ مَجرى التقييد للحكم المطلق"[1].

والمعنى: لا يقع منكم اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء وموَدّهم، مع أهم كفروا بما جاءكم من الحق، وأخرجوكم لأجل إيمانكم، إن كنتم خرجتم من بلادكم جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي، فكيف تُوالون من أخرجوكم، وكان إخراجهم إياكم لأجلي وأنا ربكم.

ومن الشرط بـــ(إن) قوله تعالى بعد ذلك: (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)[الحشر:2] فـــ(إن) شرطية، و(يثقفوكم) فعل الشرط، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والكاف مفعول به، و(يكونوا) جواب الشرط، وعلامة جزمه حذف النون أيضا، والواو اسمها، و(أعداء) خبرها، و(لكم) جار ومجرور في محل نصب حال.

وأفادت هذه الجملة معنى التعليل لمفاد قوله تعالى: (فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) [الممتحنة:1] وهو الضلال عن الرشد، فإنه قد يخفى ويظنّ أن في طلب مودّة العدوِّ فائدة، كما هو حال المنافقين المحكي في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [النساء:141]

فقد يُظن أن موالاهم من الدهاء والحزم رَجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة، فبيّن الله لهم خطأ هذا الظنّ، وأهم إن استفادوا من مودهم إياهم إطلاعاً على قوهم، فتأهبوا لهم وظفِروا هم لم يكونوا ليرقبوا فيهم إلاًّ ولا ذِمّةً، وأهم لو أخذوهم وتمكنوا منهم لكانوا أعداء لهم، لأن الذي أضمر العداوة زمناً يعسر أن ينقلب ودوداً، وذلك لشدة الحنق على ما لَقُوا

1 ــ الكشاف: 281/3.

من المسلمين من إبطال دين الشرك وتحقير أهله وأصنامهم، وهو ما أشعر به فعل (يكونوا) من أن عداوتهم قديمة وأنها مستمرة[1].

ومن الشرط بـــ (إن) قوله تعالى: (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ) [الرحمن:23] وفيها (إن) شرطية، و(يردن) فعل الشرط، والنون للوقاية، والياء المحذوفة لاتباع خط المصحف مفعول به، و(الرحمن) فاعل، و(بضر) جار ومجرور متعلقان بـــ (يردن)، و(لا) نافية، و(تغن) جواب الشرط، و(عني) جار ومجرور متعلقان بـــ (تغن)، و(شفاعتهم) فاعل، و(شيئا) مفعول مطلق، أو مفعول به، و(لا ينقذون) عطف على (لا تغن) وحذفت الياء أيضا مراعاة لسنة المصحف.

والمقصود: التعريض بالمخاطبين في اتخاذهم تلك الآلهة، بعلة أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى، وقد علم من انتفاء دفعهم الضر أنهم عاجزون عن جلب نفع، لأن دواعي دفع الضر عن المَولى أقوى وأهم، ولحاق العار بالوَلِيّ في عجزه عنه أشد.

ومن ذلك قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ) [غافر:13] و(إن) شرطية، و(أعرضوا) فعل ماض والواو فاعل، والفعل في محل جزم فعل الشرط، (فقل) الفاء رابطة، و(قل) فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت، و(أنذرتكم) فعل ماض، وفاعل، ومفعول به، وعبّر بالماضي وسياق الكلام يقتضي الاستقبال للدلالة على تحقق الإنذار، و(صاعقة) مفعول به ثان، و(مثل) صفة لصاعقة.

وقد "جعل الله استمرارهم على الإعراض بعد تلك الحجج أمراً مفروضاً كما يُفْرَض المُحال، فجيء في جانبه بحرف (إنْ) الذي الأصل فيه أن يقع في الموقع الذي لا جزم فيه بحصول الشرط كقوله تعالى: (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) [الزخرف:5] في قراءة من قرأ بكسر همزة (إنْ)"[2].

واشتملت هذه الآية على كلام مستأنف على طريق الالتفات، مسوق لتحذير المشركين بعد إعراضهم، وللالتفات في قوله: (فإن أعرضوا) الآية سر بليغ فقد خاطبهم أولا بقوله: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[فصلت:9] بيد أنهم لم يأبهوا لخطابه و لم يستوعبوا نصحه، فالتفت من الخطاب إلى

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 139/28.

2 ــ التحرير والتنوير: 252/24.

الغيبة لأنهم فعلوا الإعراض، فليس له إلا أن يعرض عن خطابهم ليصح التلاؤم، ويناسب اللفظ المعنى، وهذا من أرفع أنواع البلاغة وأرقاها وكم للالتفات من أسرار.

ثم عدل عن المضارع المستقبل إلى الماضي بقوله: (فقل أنذرتكم) للدلالة على أن ما ينذرهم به أمر متحقق لا مندوحة عنه[1].

الشرط بـــ (إمّا):

ومن الشرط بـــ (إمّا) قوله تعالى: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ) [غافر:77] فقوله: (فإمَّا نُرِيَنَّكَ) شرط، اقترن فيه حرف (إنْ) الشرطية بحرف (ما) الزائدة مدغمة للتأكيد، و لذلك لحقت نون التوكيد بفعل الشرط، فـــ(نرينك) فعل الشرط مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والكاف مفعول به، و(بعض الذي) مفعول به ثان، وجملة (نعدهم) صلة الذي، وعطف عليه (أو نَتَوفَّيَنَّكَ) وهو فعل شرط ثان، وجملة (فإلينا يُرْجَعُون) جواب لفعل الشرط الثاني، لأن المعنى على أنه جواب له، وتقديم المجرور في قوله: (فإلينا يُرْجعون) لرعاية الفاصلة وللاهتمام.

وأما فعل الشرط الأول فجوابه محذوف دل عليه أول الكلام وهو قوله: (إنَّ وعد الله حق)، وتقديرُ جوابه: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاكَ، أو نتوفينك فإلينا يُرجعون، أي فهم غير مفلَتين مما نعدهم.

و "إنما حذف جواب الأول دون الثاني، لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل في إنكائهم، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم، وهو حصول المراد على التمام، وأما إن لم يقع، ووقع الثاني، وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم، فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسلية وتطمين النفس، على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا، فهو حتم في الآخرة ولا بد منه"[2].

الشرط بـــ (لولا):

لـــ (لولا)، و(لوما) استعمالان:

أحدهما: أن يكونا دالين على امتناع الشيء لوجود غيره،.. ويلزمان حينئذ الابتداء، فلا يدخلان إلا على المبتدأ، ويكون الخبر بعدهما محذوفا وجوبا، ولا بد لهما من جواب، فإن

1 ــ ينظر إعراب القرآن وبيانه: 620/6.

2 ــ إعراب القرآن وبيانه: 601/6.

كان مثبتا قرن باللام غالبا، وإن كان منفيا بـــ(ما) تجرد عنها غالبا، وإن كان منفيا بـــ(لم) لم يقترن بها، نحو: لولا زيد لأكرمتك، ولوما زيد لأكرمتك، ولوما زيد ما جاء عمرو، ولوما زيد لم يجيء عمرو، فـــ (زيد) في هذه المثل، ونحوها، مبتدأ، وخبره محذوف وجوبا، والتقدير: لولا زيد موجود.

و الثاني: وهو الدلالة على التحضيض، ويختصان حينئذ بالفعل، نحو: لولا ضربت زيدا ولوما قتلت بكرا، فإن قصدت بهما التوبيخ كان الفعل ماضيا، وإن قصدت بهما الحث على الفعل كان مستقبلا بمنزلة فعل الأمر، كقوله تعالى: (فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ..) [التوبة:122] أي: لينفر[1].

ومن الشرط بـــ (لولا) قوله تعالى: (وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ) [الحشر:3] فالواو استئنافية، و(لولا) حرف امتناع لوجود، تفيد امتناع جوابها لأجل وجود شرطها، أي وجود تقدير الله جلاءهم سبب لانتفاء تعذيب الله إياهم في الدنيا بعذاب آخر، و(أن) مصدرية، وهي وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، تقديره: موجود، والسبب أن (أنْ) الواقعة بعد (لولا) هنا مصدريةٌ، لأن (أَنْ) الساكنة النون إذا لم تقع بعد فعل عِلم يقين أو ظن ولا بعد ما فيه معنى القول، فهي مصدرية وليست مخففة من الثقيلة[2].

و(كتب اللّه) فعل، وفاعل، و(عليهم) جار ومجرور متعلقان بـــ(كتب)، و(الجلاء[3]) مفعول به، واللام واقعة في جواب (لولا)، و(عذبهم) فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، و(في الدنيا) جار ومجرور متعلقان بـــ (عذبهم).

1 ــ ينظر شرح ابن عقيل:4/44ــ45.

2 ــ ينظر مغني اللبيب: 1/160 وما بعدها.

3 ــ والجلاء : الخروج من الوطن بنية عدم العود.

وإنما قدر الله لهم الجلاء دون التعذيب في الدنيا لمصلحة اقتضتها حكمته، وهي أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم وحوائطهم دون إتلاف من نفوس المسلمين مما لا يخلو منه القتال، لأن الله أراد استبقاء قوة المسلمين لما يستقبل من الفتوح، فليس تقدير الجلاء لهم لقصد اللطف بهم وكرامتهم وإن كانوا قد آثروه على الحرب.

وجملة (وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ) عطف على جملة (وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ) الآية، وليس عطفاً على جواب (لولا)، فإن عذاب النار حاقّ عليهم وليس منتفياً، والمقصود الاحتراس من توهم أنَّ الجلاء بَدل من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2ــ الشرط باستخدام الأسماء:

الشرط بـــ (من):

ومن الشرط بـــ (من) قوله : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) [الزخرف:36] و(من) اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، و(يعش) فعل الشرط، و(عن ذكر الرحمن) متعلقان بـــ (يعش)، و(نُقَيِّضْ) جواب الشرط، وجملتا الشرط والجزاء خبر (من)، و(له) جار ومجرور متعلقان بـــ (نقيض)، و(شيطانا) مفعول به لـــ(نقيض)، و(الفاء) حرف عطف، و(هو) مبتدأ، و(له) حال، لأنه كان في الأصل صفة لـــ(قرين) وتقدمت عليه، و(قرين) خبر.

وفي الآية نكتة بديعة وهي أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، ولذلك أعاد عليه الضمير مجموعا في قوله: (وإنهم ليصدّونهم)، والثاني الواو في قوله (ويحسبون)، والثالث: الهاء في قوله (إنهم)، من قوله تعالى بعد ذلك: (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) [الزخرف:37].

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشا قالت: قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه، فقيضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد اللّه، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللّات والعزّى، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: أولاد اللّه، قال: وما العزّى؟ قال: بنات اللّه، قال أبو بكر فمن أمهم؟ فسكت طلحة و لم يجبه، فقال لأصحابه: أجيبوا الرجل فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، فأنزل اللّه: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ) الآية.

قال الطبري في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى ذكره: ومن يعرض عن ذكر الله فلم يخف سطوته، و لم يخش عقابه (نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) يقول: نجعل له شيطانا يغويه فهو له قرين: يقول: فهو للشيطان قرين، أي يصير كذلك، وأصل العشو: النظر بغير ثبت لعلة في العين، يقال منه: عشا فلان يعشو عشوا وعشوّا: إذا ضعف بصره، وأظلمت عينه، كأن عليه غشاوة، كما قال الشاعر:[1]

1 ــ هذا بيت مركب من شطرين من بيتين مختلفين؛ فصدره للحطيئة من قصيدة مدح بها بغيض بن عامر بن شماس بن لأي بن أنف الناقة التميمي. وعجزه من بيت لعبد بن الحر من قصيدة قالها وهو في حبس مصعب بن الزبير في الكوفة وبيت الحطيئة

مَتى تَأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ... تَجِدْ حَطَبا جَزْلا وَنارًا تَأَجَّجا"[1]

قال صاحب إعراب القرآن وبيانه: "وفي هذه الآية أيضا من التنكيت، وهو: أن يقصد المتكلم إلى شي ء بالذكر دون غيره مما يسدّ مسدّه، لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه على سواه، فإن لقائل أن يقول: لأي نكتة عدل عن لفظ الحقيقة، فلم يقل: ومن يعرض عن ذكر الرحمن، فاستعار لفظة العشا للضلال؟ فنقول: النكتة في ذلك: أن لفظ الاستعارة موفّ بالمعنى المراد بخلاف لفظ الحقيقة، فإن الإعراض إعراضان: إعراض يرجى بعده الإقبال، لأن المعرض متمكّن من الإقبال، وذلك إعراض المؤمن المعتقد أحسن معتقد، فيعرض له من الملاذّ التي تستغرق فكره، وتشغل قلبه وعقله شغلا بتلك اللذة، أو ضدها، أو غيرها من أمور الدنيا، فيعرض عن الذكر في تلك الحالة، فمصاحبة الشيطان لذلك غير دائمة، لأنه يمكن أن يؤوب إلى اللّه سبحانه، ويتوب عن ذلك."[2]...

ثم يتكلم عن النوع الثاني من الإعراض، وهو الذي لا يُرجى لصاحبه توبة، لأمر قضاه الله عز وجلّ، وأنه هو المقصود بملازمة الشيطان له، وهو الذي لأجله استعمل لفظ العشا، فيقول: "وإعراض ضلال عن طريق الرشد وسبيل الخير، حتى لو قدّرنا أنه أراد الإقبال على الخير لمنعته منه سابقة الضلال والشقوة التي غلبت عليه، والمراد بالإعراض في الآية: إعراض الضلال لا إعراض الغفلة، فلا جرم أنه حسن استعارة العشا للضلال فيها، وهذا المعرض هو الذي يقيض له مقارنة الشيطان أين كان، وحيث كان، وبذلك يتبين موضع النكتة التي رجّحت العدول عن لفظ الحقيقة إلى لفظ الاستعارة"[3].

ومنه قوله تعالى: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ) [يس:68] و(من) اسم شرط جازم، و(نعمره) فعل الشرط، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به، و(ننكسه) جواب الشرط، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به، و(في الخلق) جار

بتمامه كما في (خزانة الأدب الكبير للبغدادي3: 662) : مَتى تَأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ ... تجِدْ خَيرَ نارٍ عِنْدَها خَـيرُ مُوقِـدِ
وبيت عبد الله بن الحر بتمامه هو ، كما في (الخزانة 3 : 663):
مَتى تَأْتِنا تُلْمِمْ بِنا فِي دِيارِنا ..... تَجِدْ حَطَبا جَزْلا ونارا تَأَجَّجا.

1 ــ جامع البيان للطبري: 603/21.

2 ــ إعراب القرآن وبيانه: 86/7.

3 ــ إعراب القرآن وبيانه: 86/7

ومجرور متعلقان بـــ (ننكسه)، والهمزة للاستفهام الانكاري، والفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، و(لا) نافية، و(يعقلون) فعل مضارع مرفوع وفاعله.

وجملة (وَمَن نُّعَمِّرْهُ) عطفاً على جملة (وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـــاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ) [يس:67] فهي جملة شرطية عطفت على جملة شرطية، فالمعطوف عليها جملة شرط امتناعي والمعطوفة جملة شرط تعليقي، والجملة الأولى أفادت إمهالهم والإملاء لهم، والجملة المعطوفة أفادت إنذارهم بعاقبة غير محمودة ووعيدَهم بحلولها بهم، أي إن كنا لم نمسخهم و لم نطمس على عيونهم فقد أبقيناهم ليكونوا مغلوبين أذلة.

ومن الجمل الشرطية، والتي استعمل فيها اسم الشرط (من) قوله تعالى في سورة الطلاق: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)[الطلاق:2-3]

ثم قال: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) [الطلاق:4]

ثم قال بعد ذلك: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) [الطلاق:5]

فتكرر الأمر بتقواه تعالى أثناء ما ذكره سبحانه من الطلاق والعدة وما يرجع إليهما، وخص كلا بجزاء على ذلك بقوله في الأولى: (يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

وفي الثانية (يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا.)

وفي الثالثة : (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) .

ذلك أن الأوامر التي دارت عليها هذه السورة وبنيت عليها ثلاثة:

الأول: الأمر بالمحافظة على إيقاع الطلاق إذا ضمت إليه الضرورة في وقته لاستقبال العدة حتى لا يقع إضرار بالمطلقة بتطويل عدتها.

والثاني: الأمر بإحصاء العدة والمحافظة عليها، وألا تخرج المعتدة من بيتها حيث وقع عليها الطلاق ولا تبيت عنه، إلى ما يرجع إلى هذا.

والثالث: إنفاذ ما يقع الاعتماد عليه في إمساك أو مفارقة، من حسن الصحبة وجميل العشرة إن اعتمد الإمساك أو (الإمتاع) والتلطف رعياً لما تقدم من الصحبة إن عول على المفارقة.

فعلى هذه القضايا الثلاث بناء هذه السورة، وعلى الوعظ في ذلك، والتأكيد بالتزام تقوى الله والتزام ما حد سبحانه فيما ذكر.

ولمراعاة هذه الأوامر الثلاثة ورد الإخبار بجزاء من اتقاه سبحانه في ثلاث كرات، فبإزاء أول قضية من أوامر السورة قوله تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ) [الطلاق:2]، أي في إيقاع الطلاق في محله ووقته، (يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) [الطلاق:2] بحكمه على نفسه إن لحقه ندم، كما قال تعالى: (لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) [الطلاق:1] أي: من تقلب الأحوال وصيرورة البغض ودا، فيجد السبيل إلى المراجعة سهلاً بالتزامه الوجه الجاري على السنة، وأخذه بالطاعة، فينشرح صدره بتيسير أمره، ويكثر رزقه بتقوى ربه: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق2 – 3]، فمن يتق الله في صبره أيام العدة على ما يلزمه من نفقة وسكنى – حيث يلزم ذلك وإن طالت الأيام – فكأن طولها مع ما يتكلفه فيها مظنة للضجر وكرب النفس، فإذا اتقى الله في ذلك (يسر عليه) تلك المشقة، وقرب عليه أمرها وإن بعدت المشقة، وأنسه في وحشتها وجعل له من أمره يسرا.

فإذا اتقى الله عند تمامها والإشراف على انفصالها، وأخذ بالسنة، واتقى الله فيما يختاره تعالى له ويقضيه من إمساك أو فراق، فيلتزم المعروف إن أمسك، ويتبع كل سيئة جرت حال طلاقه وغضبه – من قبح كلام أو قصد مضرة، وإن كانت بأدنى إيلام، أو إساءة معاملة تنافر المجاملة والمكارمة – بحسنة تقابلها، وتمحوها من إظهار التندم، وطلاقة البشر، والإغضاء عن كل ما جرى أيام المنافرة، ويستبدل المناقشة بالمياسرة، فإذا فعل هذا واتقى الله في ذلك كفر عنه سيئاته، وأعظم أجره، جزاء على تلك الأعمال.

ويشهد لما تمهد من جزاء تقوى الله سبحانه في تلك الحالات ما أفصح به ما بعد من الآيات، قال تعالى: (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) [الطلاق:6] إلى قوله سبحانه: (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) [الطلاق:7]، ومن تأمل جري هذه الآيات والوصايا الجليلة وما تشير إليه من الإشفاق وجميل التجمل والإنفاق مع ما تقدم وجده جارياً على أوضح التناسب وألج الالتئام.

ومن ذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [الحديد:24] فالواو استئنافية، و(من) اسم شرط جازم مبتدأ، و(يتولّ) فعل

الشرط، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة، والفاء رابطة لجواب الشرط لوقوع الجملة الاسمية مقامه، و(إن)، واسمها، و(هو) ضمير فصل، و(الغني) خبر (إن)، و(الحميد) خبر ثان.

فجملة (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) قائمة مقام جواب الشرط، لأن مضمونها علة للجواب، فالتقدير: ومن يتولّ فلا يضر الله شيئاً، ولا يضر الفقير، لأن الله غني عن مال المتولّين، ولأن له عباداً يطيعون أمره فيحمدهم.

ومثله قوله تعالى: (..وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر:9] فالواو استئنافية، و(من) شرطية في محل رفع مبتدأ، و(يوق) فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة، وهو فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل مستتر تقديره: هو، و(شحّ) مفعول به ثان، والفاء رابطة لجواب الشرط، و(أولئك) مبتدأ، و(هم) ضمير فصل أو مبتدأ ثان، و(المفلحون) خبر (أولئك)، أوخبر (هم)، والجملة خبر (أولئك)، وجملة (فأولئك) إلخ في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر (من).

قال الزمخشري: " الشح – بالضم والكسر، وقد قرئ بهما–: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع، كما قال :

يمارس نفسا بين جنبيه كزّة إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا[1]

وقد أضيف إلى النفس، لأنه غريزة فيها. وأما البخل فهو المنع نفسه"[2].

وجيء باسم الإشارة في جواب الشرط لتعظيم هذا الصنف من الناس، وصيغة القصر المؤداة بضمير الفصل للمبالغة، لكثرة الفلاح الذي يترتب على وقاية شح النفس، حتى كأن جنس المفلح مقصور على ذلك المُوقَى.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)[الممتحنة:1] من قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ

1 ــ البيت نقله الزمخشري و لم أجد قائله.

2 ــ الكشاف:505/4.

وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) [الممتحنة:1] والواو عاطفة أو مستأنفة، و(من) اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، و(يفعله) فعل الشرط، والفاعل مستتر تقديره: هو، والهاء مفعول به، والفاء رابطة لجواب الشرط لاقترانه بـــ(قد)، و(ضلّ) فعل، وفاعله: هو، و(سواء السبيل) مفعوله.

وجاء الفعل بعد (مَن) الشرطية مستقبلا، وهو وعيد للذين يفعلون مثل ما فعل حاطب بن أبي بلتعة حينما بعث كتابا إلى قريش يخبرهم بمجيء النبي (صلى الله عليه وسلم) لغزوهم في فتح مكة بعد أن بلغهم النهي والتحذير والتوبيخ والتفظيع لعمله.

وقوله تعالى: (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [الحشر:9] وفيها الواو استئنافية، و(من) اسم شرط جازم مبتدأ، و(يتولهم) فعل الشرط، والفاء رابطة، وجملة (أولئك هم الظالمون) في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر (من).

وجيء في جواب الشرط باسم الإشارة لتمييز المشار إليهم زيادة في إيضاح الحكم، وأفاد قوله: (فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) القصر، أي: أن ظلمهم لشدَّته ووقوعه بعد النهي الشديد والتنبيه على الأخطاء والعصيان ظلم لا يغفر، لأنه اعتداء على حقوق الله، وحقوق المسلمين، وعلى حق الظالم نفسه.

جاء في الظلال: "وإلى أن يتحقق وعد اللّه الذي دل عليه لفظ الرجاء رخص اللّه لهم في موادة من لم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ورفع عنهم الحرج في أن يبروهم، وأن يتحروا العدل في معاملاتهم معهم فلا يبخسوهم من حقوقهم شيئا، ولكنه نهى أشد النهي عن الولاء لمن قاتلوهم في الدين، وأخرجوهم من ديارهم، وساعدوا على إخراجهم، وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون .. ومن معاني الظلم الشرك بالرجوع إلى قوله تعالى: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان:13] .. وهو تهديد رهيب يجزع منه المؤمن، ويتقي أن يدخل في مدلوله المخيف!"[1].اهـــ

ومن ذلك قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) [غافر:40]

1 ــ في ظلال القرآن: 3545/6.

وفي الآية جملتان شرطيتان كلاهما باسم الشرط (من)، غير أن جواب الشرط في الجملة الأولى جملة فعلية، وجوابه في الجملة الثانية جملة اسمية، فـــفي قوله: (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا) (من) اسم شرط جازم مبتدأ، و(عمل) فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، و(سيئة) مفعول به، والفاء رابطة، و(لا) نافية، و(يجزى) فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل مستتر تقديره: هو، و(إلا) أداة حصر، و(مثلها) مفعول (يجزى) الثاني.

وفي قوله (وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ) الواو عاطفة، و(من) شرطية مبتدأ، و(عمل) فعل ماض فعل الشرط، و(صالحا) مفعول به أو صفة لمصدر محذوف أي: عملا صالحا، و(من ذكر)حال، أو (أنثى) عطف على من (ذكر)، و(هو مؤمن) الواو للحال، و(هو) مبتدأ، و(مؤمن) خبر، والجملة في محل نصب على الحال، (فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ) الفاء رابطة، و(أولئك) اسم إشارة مبتدأ، وجملة (يدخلون الجنة) خبر (أولئك)، والجملة في محل جزم جواب الشرط، وجملة (يرزقون) حال، والواو نائب فاعل، و (فيها) حال، و(بغير) صفة للمفعول به المحذوف، أي يرزقون رزقا واسعا بلا حساب.

وجيء باسم الإشارة لِلتنبيه على أن المشار إليه يستحق ما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجْل ما ذكر قبل اسم الإشارة من الأوصاف، وهي عمل الصالحات مع الإيمان، زيادة على استفادة ذلك من تعليقه على الجملة الشرطية، وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة جواب الشرط لإفادة الحصر، إذ المعنى : أنكم إن متم على الشرك والعمل السيّء لا تدخلونها.

وقوله:(مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنْثَى) بيان لما في (مَن) من الإبهام من جانب احتمال التعميم فلفظ (ذَكَرٍ أو أُنْثَى) مراد به عموم الناس، بذكر صنفيهم تنصيصاً على إرادة العموم، وليس المقصود به إفادة مساواة الأنثى للذكر في الجزاء على الأعمال، إذ لا مناسبة له في هذا المقام، وتعريضاً بفرعون وخاصته أنهم غير مُفلَتين من الجزاء[1].

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 151/24.

ومن الشرط بـــ (من) قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [ص:41]، فتوالت جملتان شرطيتان، جملة (فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ) وفيها الفاء عاطفة، و(من) اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، و(اهتدى) فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، والفاء رابطة، و(لنفسه) خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهدايته لنفسه، والجملة في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ.

وجملة (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) عطف على نظيرتها، وصيغة القصر فيها لتنزيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أسفه على ضلالهم المفضي بهم إلى العذاب منزلةَ من يعود عليه من ضلالهم ضُر، فخوطب بصيغة القصر.

الشرط بـــ (ما):

ومن الشرط بـــ (ما) قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر:5] فـــ(ما) اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدّم لـــ (قطعتم)، و(قطعتم) فعل، وفاعل، في محل جزم فعل الشرط، و(من لينة) حال، والواو حرف عطف، و(تركتموها) عطف على (قطعتم)، و(قائمة) مفعول ثان لـــ(ترك)، و(على أصولها) جار ومجرور متعلقان بـــ (قائمة)، والفاء رابطة لجواب الشرط، و(بإذن) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، أي: فقطعها بإذن اللّه، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط.

وجعل ابن عاشور (ما) موصولة أشربت معنى الشرط، وزيدت الفاء (فَبِإِذْنِ اللَّه) لتدل على ذلك المعنى فقال: "والفاء من قوله: (فبإذن الله) مزيدة في خبر المبتدأ لأنه اسم موصول، واسم الموصول يعامل معاملة الشرط كثيراً إذا ضُمن معنى التسبب، وقد قرئ بالفاء وبدونها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ في سورة [الشورى:30]"[1].ا هـــ

وقد تلتها الآيتين السادسة والسابعة من السورة نفسها محتوية على أربعة تراكيب بالصيغة نفسها، أي: ما ـــ فعل ـــ فاعل.....ـــ الفاء ....،

1 ـــ التحرير والتنوير: 77/28.

وذلك في قوله تعالى: (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[الحشر:6]

وقوله تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) [الحشر:7]

وقوله: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)[الحشر:7]

وقوله: (وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ..) [الحشر:7]

وقد وجدت الجمل الشرطية وغيرها تتكرر بالصيغة نفسها في السورة الواحدة، وذلك أن لكل سورة نمط معين في تناسب آياتها، مما يكسبها إيقاعا خاصا يتوافق ومقتضيات موضوعاتها، ومقامات نزولها وتنزُّلاتها.

3 ــ الشرط باستخدام الظروف:

الشرط بـــ (إذا):

(إذا)أداة شرط غير جازمة لما يستقبل من الزمان، تفيد الربط بين جملة الشرط، وجوابه، ولا يليها إلا الفعل ظاهرا، أو مقدرا، واستعمل الشرط بـــ(إذا) في كثير من آيات الربع الأخير من ذلك قوله تعالى: (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) [محمد:21].

فـــ (إذا) ظرف للزمان المستقبل وهو الغالب فيها، فيكون ما بعدها مقدراً وجوده، أي: فإذا جدّ أمر القتال وحدث، و"جملة (فلو صدقوا الله) دليل جواب (إذَا)، لأن (إذا) ضمنت هنا معنى الشرط، أي: كذبوا الله وأخلفوا فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم، واقتران جملة الجواب بالفاء للدلالة على تضمين (إذَا) معنى الشرط، وذلك أحسن من تجريده عن الفاء إذا كانت جملة الجواب شرطية أيضاً.

و"التعريف في (الأمر) تعريف العهد، أو اللام عن المضاف إليه، أي: أمر القتال المتقدم آنفاً في قوله: (وذُكر فيها القتال)"[1].

ومن الشرط بـــ(إذا) قوله تعالى: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ) [محمد:4] فـــ"(إذا) ظرف للمستقبل مضمنة معنى الشرط، وجواب الشرط قوله: (فضَرْب الرقاب).

قال الزمخشري: "فَضَرْبَ الرِّقابِ أصله: فاضربوا الرقاب ضربا، فحذف الفعل وقدّم المصدر، فأنيب منابه مضافا إلى المفعول، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد، لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه، وضرب الرقاب عبارة عن القتل، لأنّ الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء، وذلك أنهم كانوا يقولون: ضرب الأمير رقبة فلان، وضرب عنقه وعلاوته،.. إذا قتله، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، فوقع عبارة عن القتل، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل...على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة، وهو حز العنق، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه"[2].

---

1 ــ التحرير والتنوير: 110/26.

2 ــ الكشاف: 316/4.

وضرب الرقاب: كناية يعبر بها عن القتل سواء كان بالضرب أم بالطعن في القلوب بالرماح أو بالرمي بالسهام، وأوثرت على كلمة القتل لأن في استعمال الكناية بلاغة، ولأن في خصوص هذا اللفظ غلظة وشدة تناسبان مقام التحريض.

ومن الجمل الشرطية المستعمل فيها الشرط بـــ (إذا) والتي تغيرت دلالتها بوجود تغير في التركيب، بسبب بعض الحروف الزائدة، على الرغم مما يبدوا من تشابه البنى:

قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [فصلت:20].

وقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) [الزخرف:38].

وقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...) [الزمر:71]

فزيدت (ما) بعد (إذا) في آية فصلت، إذ قصد توكيد معنى الشرط الذي تتضمنه (إذا) لقوة معنى الجزاء، وإذ لم يقصد ذلك في الآيتين الأخريين لقرب معنى الجزاء من الشرط لم تستعمل (ما) بعدها، ولأن شهادة السمع والأبصار وسائر الجوارح "من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المجيء، ألا ترى استنكارهم لها حتى قالوا لجلودهم: (لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟) فأجابوا بأن قالوا: (أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) [فصلت:21]، وليس كذلك: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب...وكذلك: (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ) أي: قال الآدمي لقرينه من الجن اللذين اشتركا في الدنيا في معصية الله ثم اشتركا في العذاب في الآخرة: ليتني لم أتبعك وكان بعد مابين المشرقين بيني وبينك.

وهذا أيضا مما يتوقع كونه منهما، ثم يتبرأ بعض من بعض، فليس في الجزاء ما يوجب قوة الشرط الذي لا يتوقع ولا يستفاد إلا به ومنه"[1].

و"(حتى) ابتدائية وهي مفيدة لمعنى الغاية، فهي حرف انتهاء في المعنى وحرف ابتداء في اللفظ، أي أن ما بعدها جملة مستأنفة، و(إذا) ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط وهو متعلق بجوابه، و(ما) زائدة للتوكيد بعد (إذَا)، تفيد توكيد معنى (إذَا) من الارتباط بالفعل

1 ــ درة التنزيل: 1144/1.

الذي بعد (إذا)، سواء كانت شرطية كما في هذه الآية، أم كانت لمجرد الظرفية كقوله تعالى: (وإذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُون) [الشورى:37]، ويظهر أن ورود (مَا) بعد (إذا) يقوّي معنى الشرط في (إذا)، ولعلهُ يكون معنى الشرط حينئذ نصاً احتمالاً، وضمير المؤنث الغائب في (جَاءُوهَا) عائد إلى (النَّار)، أي إذا وصلوا إلى جهنم"[1] .

ثم إننا نجد الآية من سورة الزمر قد تكررت في موضعين مع زيادة الواو في الوضع الثاني، وهذه الزيادة استلزمت تغيرا في وصف البينة التركيبية للآية للتفاوت الحاصل بينهما في الدلالة.

فالآية الأولى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...) [الزمر:71]، و"هي تصف حال الكفار عند دخولهم النار، خالية من الواو بعد (جاءوها)، و فيها "(حتى) ابتدائية و (إذا) ظرف لزمَان المستقبل يضمّن معنى الشرط غالباً، أي: سيقوا سوقاً ملازماً لهم بشدته متصل بزمن مجيئهم إلى النار، وجملة (فتحت) جواب (إذا) لأنها ضمنت معنى الشرط وأغنى ذكر (إذا) عن الإتيان بـــ (لمّا) التوقيتية، والتقدير: فلما جاءوها فتحت أبوابها، أي: وكانت مغلقة لتفتح في وجوههم حين مجيئهم فجأة تهويلاً ورعبا"[2].

والآية الثانية واردة في سياق الكلام عن دخول المؤمنين الجنة، وهي قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ..) [الزمر:73]، فيلفت نظرنا وجود الواو قبل (فتحت)، وقد اختلف في بيانها المفسرون، فرجح بعضهم بأنها واو الحال، وأعطاها آخرون تسمية واو الثمانية نظرا لارتباط ورودها بهذا العدد.

يقول ابن عاشور في بيانها: "والواو في جملة (وفتحت أبوابها) واو الحال، أي حين جاءوها وقد فتحت أبوابها، فوجدوا الأبواب مفتوحة، على ما هو الشأن في اقتبال أهل الكرامة، وقد وهم في هذه الواو بعض النحاة مثل ابن خالويه والحريري وتبعهما الثعلبي في (تفسيره) فزعموا أنها واو تدخل على ما هو ثامن، إمّا لأن فيه مادة ثمانية كقوله: (ويقُولُون سَبعَة وثامِنُهم كَلبُهم) [الكهف:22] ، فقالوا في (وفُتحَت أبوابها): جيء بالواو لأن أبْواب الجنة ثمانية، وإما لأنه ثامن في التعداد نحو قوله تعالى: (التَائبُونَ العَابدُونَ) إلى قوله: (والنّاهُونَ عَن المنكرِ) [التوبة:112] فإنه الوصف الثامن في التعداد، ووقوع هذه الواوات

1 ـــ التحرير والتنوير: 265/24ــ266.

2 ـــ التحرير والتنوير:69/24

مُصادفة غريبة، وتنبُّه أولئك إلى تلك المصادفة تنبه لطيف ولكنه لا طائل تحته في معاني القرآن بَلْهَ بلاغته"[1].

ثم محّص (إذا) للزمان دون الشرط، فقال: "و(إذا) هنا لمجرد الزمان غير مضمنة معنى الشرط، فالتقدير: حتّى زمانِ مجيئهم إلى أبواب الجنة، أي خلّتهم الملائكة الموكلون بإحفافهم عند أبواب الجنة، كحالة من يُهدي العروس إلى بيتها، فإذا أَبلغها بابه خَلَّى بينها وبين بيتها، كأنهم يقولون: هذا مترلكم فدونكموه، فتلقتهم خزنة الجنة بالسلام"[2].

بينما أعربها الدرويش بما يأتي: "حتى: الابتدائية، و(إذا) ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة (جاؤوها) في محل جر بإضافة (إذا) إليها، وجوابها هنا محذوف، لأنه في صفة أهل الجنة، فدل بحذفه على أنه شيء لا يكتنه، ولا يحيط به الوصف، والواو عاطفة، وجملة (فتحت أبوابها) معطوفة على جاؤوها"[3].

ثم لخص أقوال المعربين في جواب (إذا)، والسر في مجيء الواو في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) بقوله: "في جواب (إذا) ثلاثة أوجه: أحدها:قوله: (وفتحت)، والواو: زائدة، وهو رأي الكوفيين والأخفش، وإنما جيء هاهنا بالواو دون التي قبلها، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة، فتفتح له، ثم تغلق عليه، فناسب ذلك عدم الواو فيها، بخلاف أبواب السرور والفرح، فإنها تفتح انتظارا لمن يدخلها، والثاني: أن الجواب محذوف، قال الزمخشري: وحقه أن يقدر بعد (خالدين) لأنه لا يجيء بعد متعلقات الشرط ماعطف عليه، والتقدير: اطمأنوا، وقدره المبرد: سعدوا، وعلى هذين الوجهين فتكون الجملة من قوله (فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) في محل نصب على الحال، وسمى بعضهم هذه الواو واو الثمانية، قال: لأن أبواب الجنة ثمانية، وكذا قالوا في قوله تعالى: (وثامنهم كلبهم)، وقيل: تقديره حتى إذا جاؤوها جاؤوها، وفتحت أبوابها، يعني أن الجواب بلفظ الشرط، ولكنه يزيد بتقييده بالحال، فلذلك صح"[4].

1 ــ التحرير والتنوير: 24/71ــ72.

2 ــ التحرير والتنوير: 24/71ــ72.

3 ــإعراب القرآن وبيانه: 6/539ــ540.

4 ــإعراب القرآن وبيانه: 6/542.

ومن الشرط بـــ (إذا) قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢)﴾ [الواقعة:1ـــ2] و(إذا) شرطية، والعامل فيها الفعل الذي بعدها ويليها، و(وقعت الواقعة) فعل، وفاعل، (ليس) فعل ماض جامد ناقص، و(لوقعتها) خبرها مقدّم، و(كاذبة) اسم (ليس)، و(كاذبة) صفة لموصوف محذوف أي (نفس كاذبة).

قال الزمخشري : "فإن قلت: بم انتصب إذا ؟ قلت : بليس، كقولك: يوم الجمعة ليس لي شغل، أو بمحذوف يعني: إذا وقعت، كان كيت وكيت، أو بإضمار أذكر"[1].

قال أبو حيان: "والعامل في (إذا) الفعل بعدها على ما قررناه في كتب النحو، فهو في موضع خفض بإضافة (إذا) إليها، لذا احتاج إلى تقدير عامل، إذ الظاهر أنه ليس ثم جواب ملفوظ به يعمل بها"[2].

ثمّ شرع في الرد على الزمخشري في ادعائه أن عامل النصب في (إذا) هو (ليس) فقال: " أما نصبها بـــ(ليس) فلا يذهب نحوي ولا من شدا شيئاً من صناعة الإعراب إلى مثل هذا، لأن (ليس) في النفي كـــ(ما)، و(ما) لا تعمل، فكذلك (ليس)، وذلك أن (ليس) مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان، والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز، لأن حد الفعل لا ينطبق عليها، والعامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث، فإذا قلت: يوم الجمعة أقوم، فالقيام واقع في يوم الجمعة، و(ليس) لا حدث لها، فكيف يكون لها عمل في الظرف؟

والمثال الذي شبه به، وهو: يوم الجمعة ليس لي شغل، لا يدل على أن يوم الجمعة منصوب بـــ(ليس)، بل هو منصوب بالعامل في خبر (ليس)، وهو الجار والمجرور، فهو من تقديم معمول الخبر على (ليس)، وتقديم ذلك مبني على جواز تقديم الخبر الذي لـــ(ليس) عليها، وهو مختلف فيه، و لم يسمع من لسان العرب: قائماً ليس زيد، و(ليس) إنما تدل على نفي الحكم الخبري عن الخبر المحكوم عليه فقط، فهي كـــ(ما)، ولكنه لما اتصلت بها ضمائر الرفع، جعلها ناس فعلاً، وهي في الحقيقة حرف نفي كـــ(ما) النافية"[3].

---

1 ــ الكشاف: 455/4.

2 ــ البحر المحيط: 203/8.

3 ــ البحر المحيط: 203/8. وتابع تعليقه على ما ذهب إليه الزمخشري قائلا: "ويظهر من تمثيل الزمخشري إذاً بقوله: يوم الجمعة، أنه سلبها الدلالة على الشرط الذي هو غالب فيها، ولو كانت شرطاً، وكان الجواب الجملة المصدرة بليس ، لزمت الفاء، إلا إن حذفت في شعر، إذ ورد ذلك، فنقول: إذا أحسن إليك زيد فلست تترك مكافأته. ولا يجوز لست بغير فاء، إلا إن

وافتتاح السورة بالظرف المتضمنِ الشرط، افتتاح بديع لأنه يسترعي الألباب لترقب ما بعد هذا الشرط الزماني، مع ما في الاسم المسند إليه من التهويل بتوقع حدث عظيم يحدث.

قال سيد قطب: "هذا المطلع واضح فيه التهويل في عرض هذا الحدث الهائل، وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المعنى، ويتناسق مع مدلولات العبارة، فمرتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها، (إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ. خافِضَةٌ رافِعَةٌ) .. ولا يقول: ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة، وهي خافضة رافعة، ولكن يبدأ حديثا جديدا: (إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا. وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا. فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا) .. ومرة أخرى لا يقول: ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم .. فكأنما هذا الهول كله مقدمة، لا يذكر نتائجها، لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ، أو تعبر عنها العبارة! هذا الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة المروّعة المفزّعة التي يرسمها هذا المطلع بذاته، فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته – بما فيه من مدّ ثم سكون – تلقى في الحس كأنما هي ثقل ضخم ينقض من عل ثم يستقر، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال! (لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ)"[1].

ومن الشرط بـــ(إذا) قوله تعالى: (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) [الزمر:45] وفيها الواو عاطفة، و(إذا) ظرف مستقبل متعلق بالجواب، وجملة (ذكر اللّه) في محل جر بإضافة الظرف إليها، و(اللّه) نائب فاعل، و(وحده) حال، وجملة (اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) لا محل لها لأنها جواب إذا، (وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) عطف على ما تقدم، و(من دونه) صلة (الذين)، و(إذا) الفجائية، و هي حرف فلا تحتاج إلى عامل، و(هم) مبتدأ، وجملة (يستبشرون) خبر.

اضطر إلى ذلك، وأما تقديره: إذا وقعت كان كيت وكيت، فيدل على أن إذا عنده شرطية، ولذلك قدر لها جواباً عاملاً فيها، وأما قوله: بإضمار اذكر، فإنه سلبها الظرفية، وجعلها مفعولاً بها منصوبة باذكر." . البحر المحيط: 203/8.

1 ــ في ظلال القرآن: 3462/6.

فـــ(إذا)الأولى و (إذا) الثانية ظرفان مضمنان معنى الشرط كما هو الغالب، و (إذا) الثالثة للمفاجأة، للدلالة على أنهم يعاجلهم الاستبشار حينئذٍ من فرط حبهم آلهتهم، ولذلك جيء بالمضارع في (يستبشرون) دون أن يقال: مستبشرون، لإفادة تجدّد استبشارهم.

ومن ذلك قوله تعالى: (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) [غافر:12] فـــ (ذلكم) مبتدأ، والإشارة إلى العذاب و(بأنه) خبر، و(إذ) ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة (دعي) في محل جر بإضافة الظرف إليها، و(اللّه) نائب فاعل و(وحده) حال، وجملة (كفرتم) لا محل لها لأنها جواب (إذا)، وجملة الشرط و جوابه خبر (أنه)..

ثمّ تلا الشرط الأول شرط ثان بحرف (إن) في قوله (وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا) وفيه الواو عاطفة، و(إن) شرطية، و(يشرك) فعل الشرط مجزوم، وهو فعل مضارع مبني للمجهول، و(به) سد مسد نائب الفاعل، و(تؤمنوا) جواب الشرط، والفاء عاطفة، و(الحكم) مبتدأ، و(لله) خبره، و(العلي الكبير) صفتان، ومتعلّق (كفرتم) و (تؤمنوا) محذوفان لدلالة ما قبلهما، والتقدير: كفرتم بتوحيده وتؤمنوا بالشركاء.

و"جيء في الشرط الأول بـــ (إذا) التي الغالب في شرطها تحقق وقوعه إشارة إلى أن دعاء الله وحده أمر محقق بين المؤمنين، لا تخلو عنه أيامهم ولا مجامعهم، مع ما تفيد (إذا) من الرغبة في حصول مضمون شرطها.

وجيء في الشرط الثاني بحرف (إنْ) التي أصلها عدم الجزم بوقوع شرطها، أو أنَّ شرطها أمر مفروض، مع أن الإشراك مُحقق، تنزيلاً للمحقق منزلة المشكوك المفروض، للتنبيه على أن دلائل بطلان الشرك واضحة بأدنى تأمل وتدبر، فنزل إشراكهم المحقق منزلة المفروض، لأن المقام مشتمل على ما يَقلَع مضمون الشرط من أصله، فلا يصلح إلاّ لفرضه على نحو ما يفرض المعدوم موجوداً أو المحال ممكناً"[1].

و (إذا) مستعملة هنا في الزمن الماضي لأن دعاء الله واقع في الحياة الدنيا، وكذلك كفرهم بوحدانية الله، فالدعاء الذي مضى مع كفرهم به كان سبب وقوعهم في العذاب، ومجيء (وإنْ يُشْرك بِهِ تُؤْمِنُوا) بصيغة المضارع في الفعلين مؤوّل بالماضي بقرينة ما قبله،

1 ــ التحرير والتنوير:101/24.

وإيثار صيغة المضارع في الفعلين لدلالتهما على تكرر ذلك منهم في الحياة الدنيا، فإن لتكرره أثراً في مضاعفة العذاب لهم.

ومن ذلك قوله تعالى: (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[الجمعة:9] وفيه (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، وجملة (نودي) في محل جر بإضافة الظرف إليها، و(للصلاة) جار ومجرور متعلقان بـــ (نودي)، و(من يوم الجمعة) جار ومجرور متعلقان بـــ (نودي)، والفاء رابطة لجواب (إذا)، و(اسعوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، و(إلى ذكر اللّه) جار ومجرور متعلقان بـــ (اسعوا)، و(ذروا) فعل أمر، والواو فاعل، و(البيع) مفعول به.

وتلى ذلك الشرط شرطان آخران بـــ (إذا) فقال بعد الآية الأولى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الجمعة:10]

ثم قال: (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [الجمعة:11]

وقد وجدت هذه الظاهرة ـــ توالي الصيغ الشرطية بالآداة نفسها، وأحيانا بالتركيبة نفسهاـــ في كثير من سور الربع الأخير من القرآن الكريم، وذلك أن القرآن متشابهة أجزاؤه، متماثلة تراكيبه في فصاحة ألفاظها وشرف معانيها، فهي متكافئة في الشرف والحسن.

وذلك ما يجعل كل سورة تتميز بأسلوب خاص بها، وفق مقتضيات وأغراض الخطاب، وفي هذا دلالة على أن جميع آيات القرآن بالغ الطرف الأعلى من البلاغة وأنها متساوية في ذلك بحسب ما يقتضيه حال كل آية منها، وأما تفاوتها في كثرة الخصوصيات وقلتها فذلك تابع لاختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال، فإن بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال، والطرف الأعلى من البلاغة هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال.

فآيات القرآن متماثلة متشابهة في الحسن لدى أهل الذوق من البلغاء بالسليقة أو بالعِلم، وهو في هذا مخالف لغيره من الكلام البليغ، فإن ذلك لا يخلو عن تفاوت ربما بلغ

بعضُه مبلغَ أن لا يشبه بقيته، فالكاتب البليغ والشاعر المجيد لا يخلو كلام أحد منهما من ضعف في بعضه، وأيضاً لا تتشابه أقوال أحد منهما بل تجد لكل منهما قِطعاً متفاوتة في الحسن والبلاغة وصحة المعاني.

الشرط بـــ (لّما):

(لّما) أداة شرط غير جازمة تفيد التعليق، وتختص بالدخول على الأفعال الماضية، مبنية على السكون في محل نصب على الظرفية الزمانية بمعنى (حين)، ومن الشرط بـــ (لّما) ما أتى في قوله تعالى: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) [الحشر:16] فجملة (فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِي ءٌ مِنْكَ) استعمل فيها الشرط بـــ (لّما)، و(لما) ظرفية حينية أو رابطة متضمنة معنى الشرط، وجملة (كفر) في محل جر بإضافة الظرف إليها، وجملة (قال) لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، و(إن)، واسمها، و(بري ء) خبرها، و(منك) جار ومجرور متعلقان بـــ (بريء).

وفي الآية إيجاز حذف، حُذف فيها معطوفات مقدرة بعد شرط (لَمَّا) هي داخلة في الشرط، إذ التقدير: فلما كفر واستمر على الكفر وجاء يوم الحشر واعتذر بأن الشيطان أضله قال الشيطان: (إني بريء منك)الخ، وهذه المقدرات مأخوذة من آيات أخرى مثل آية سورة إبراهيم[1]، وآية سورة ق[2]، وظاهر أن هذه المحاجة لا تقع إلا في يوم الجزاء، وبعد موت الكافر على الكفر دون من أسلموا[3].

الشرط بـــ (كلما):

(كلما) أداة شرط غير جازمة، مركبة من (كل)، و(ما) المصدرية، نائبة عن الظرف الزماني في محل نصب، تفيد التكرار، ولا يليها إلا الماضي شرطا وجوابا، والعامل فيها جوابها، ومن الشرط بـــ (كلما) قوله تعالى: (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)[نوح:7] وهي مركبة من الواو العاطفة، و(إن)، واسمها، و(كلما) ظرف زمان متعلق بـــ(جعلوا)، و(ما) مصدرية، و(دعوتهم) فعل، وفاعل، ومفعول به، واللام للتعليل، و(تغفر) فعل مضارع منصوب بأن

1 ــ الآية: 20 و21 من سورة إبراهيم.

2 ــ الآيات من 20 إلى 28 من سورة ق.

3 ــ ينظر التحرير والتنوير: 109/28.

مضمرة جوازا بعد لام للتعليل، والجار والمجرور متعلقان بـــ (دعوتهم)، وجملة جعلوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وهو (كلما)، و(أصابعهم) مفعول (جعلوا) الأول، و(في آذانهم) في موضع المفعول الثاني، وجملة (جعلوا أصابعهم) خبر (إن) والرابط ضمير (دعوتهم).

جاء في التحرير والتنوير: "و(كلما) مركبة من كلمتين: كلمةِ (كل) وهي اسم يدل على استغراق أفراد ما تضاف هي إليه، وكلمة (ما) المصدرية، وهي حرف يفيد أن الجملة بعده في تأويل مصدر، وقد يراد بذلك المصدر زمَانُ حصوله، فيقولون (مَا) ظرفية مصدرية لأنها نائبة عن اسم الزمان .

والمعنى: أنهم لم يظهروا مخِيلةً من الإِصغاء إلى دعوته، ولم يتخلفوا عن الإِعراض والصدود عن دعوته طَرفة عَيْن، فلذلك جاء بكلمة (كلما) الدالة على شمول كلّ دعوة من دعواته مقترنةً بدلائل الصد عنها"[1].

قال أبو حيان في البحر في قوله تعالى: (جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِىءاذانِهِمْ): "الظاهر أنه حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه كراهة وبغضاً من سماع النصح ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون كناية عن المبالغة في إعراضهم عن ما دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سد سمعه ومنع بصره، ثم كرر صفة دعائه بياناً وتوكيداً، لما ذكر دعاءه عموم الأوقات، ذكر عموم حالات الدعاء، و (كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ): يدل على تكرر الدعوات"2.

وأطلق اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة البعضية، فإن الذي يُجعل في الأذن الأنملة لا الأصبع كلّه، فعُبر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سد المسامع بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها.

وجعلت الدعوة معللة بمغفرة الله لهم، لأنها دعوة إلى سبب المغفرة، وهو الإِيمان بالله وحده وطاعةُ أمره على لسان رسوله، وفي ذلك تعريض بتحميقهم، وتعجب من خُلُقهم، إذ يعرضون عن الدعوة لما فيه نفعهم، فكان مقتضى الرشاد أن يسمعوها ويتدبروها.

---

1 ــ النحرير والتنوير: 195/29.

2 ــ البحر المحيط: 332/8.

4 ــ أجوبة التركيب الطلبية:

قد يصحب جملة الأمر جواب، فتتألف منهما عبارات متكاملة تؤلف جملا تامة، أما العبارات الأولى فهي جمل طلبية، وأما الثانية فهي جمل خبرية فعلية، أطلق النحاة عليها جوابا، ويكون الفعل المضارع في هذه الجملة مجزوما، وقد عقد سيبويه لذلك بابا سمّاه (هذا باب من الجزاء ينجزم فيه الفعل إذا كان جوابا لأمر أو نهي أو استفهام أو تمن أو عرض، وقال: " فأما ما انجزم بالأمر فقولك: ائتني آتك، وأما ما انجزم بالنهي فقولك: لا تفعل يكن خيرا لك، وأما ما انجزم بالاستفهام فقولك: ألا تأتيني أحدثك؟ وأين تكون أزرك؟ وأما ما انجزم بالتمني فقولك: ألا ماء أشربه، وليته عندنا يحدّثنا، وأما ما انجزم بالعرض فقولك: ألا تنزل تصب خيرا"[1].

فـــ"إذا تقدم لنا أمر دال على أمر أو نهي أو استفهام أو غير ذلك من أنواع الطلب، وجاء بعده فعل مضارع مجرد من الفاء، وقصد به الجزاء، فإنه يكون مجزوما بذلك الطلب، لما فيه من معنى الشرط، ونعني بقصد الجزاء أنك تقدره مُسبَّبا عن ذلك المتقدم، كما أن جزاء الشرط مسبب عن فعل الشرط"[2].

و"لا يجوز الجزم في جواب النهي إلا بشرط أن يصح تقدير شرط في موضعه مقرون بـــ(لا) الناهية،مع صحة المعنى وذلك نحو قولك: (لا تكفرْ تدخلِ الجنة)، و(لا تدن من الأسد تسلم)، فأنه لو قيل في موضعهما (إن لا تكفر تدخلِ الجنة)، و(إن لا تدن من الأسد تسلم) صح، بخلاف (لا تكفر تدخلُ النار)، و(لا تدن من الأسد يأكلُك) فإنه ممتنع، فإنه لا يصح أن يقال: (إن لا تكفر تدخلِ النار)، و(إن لا تدن من الأسد يأكلُك)، ولهذا اجتمعت السبعة على الرفع في قوله تعالى: (وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) [المدثر:6]، لأنه لا يصح أن يقال: (إن لا تمنن تستكثر)، وليس هذا بجواب، وإنما هو موضع نصب على الحال من الضمير في (تمنن)، فكأنه قيل: ولا تمنن مستكثرا، ومعنى الآية أن الله تعالى نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يهب شيئا وهو يطمع أن يتعوّض من الموهوب له (أكثر من الموهوب)[3]".

---

1 ــ الكتاب: سيبويه. ط الخانجي ــ3/93.

2 ــ شرح قطر الندى وبل الصدى: ابن هشام الأنصاري. حققه محمد خير طعمة حلبي. دار المعرفة. بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة. 1998. ص:65.

3 ــ شرح قطر الندى: ص:67.

ومثل ذلك قوله تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) [ص:26].

ففي قوله (وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الواو عاطفة، و(لا) ناهية، و(تتبع) فعل مضارع مجزوم بلا، وفاعله مستتر تقديره: أنت، و(الهوى) مفعول به، والفاء هي فاء السببية لوقوعها في جواب النهي، و(يضلك) فعل مضارع منصوب بـــ(أن) مضمرة بعد فاء السببية، وامتنع جزمه لأنه لا يصح تقدير (إن لا) مكان حرف النهي، فانتصب (فَيُضِلَّكَ) بعد فاء السببية في جواب النهي، ومعنى جواب النهي جواب المنهي عنه فهو السبب في الضلال، وليس النهي سبباً في الضلال، وهذا بخلاف طريقة الجزم في جواب النهي، والفاعل مستتر تقديره: هو، يعود على الهوى، والكاف مفعول به، و(عن سبيل اللّه) جار ومجرور متعلقان بـــ (يضلك).

ومن الجواب بالجزم قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[الحديد:28] فـــ (يا) حرف نداء، و(أي) منادى نكرة مقصودة مبني على الضم، والهاء للتنبيه، و(الذين) بدل، و(جملة آمنوا) صلة، و(اتقوا اللّه) فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، و(آمنوا) فعل أمر معطوف على (اتقوا)، و(برسوله) جار ومجرور متعلقان بـــ (آمنوا)، و(يؤتكم) فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة، والكاف مفعول به أول، و(كفلين) مفعول به ثان، و(من رحمته) شبه جملة صفة لكفلين.

(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ) عطف على (يؤتكم)، و(لكم) جار ومجرور متعلقان بـــ (يجعل) أو في موضع المفعول الثاني، و(نورا) مفعول يجعل، وجملة (تمشون به) صفة لـــ(نورا)، (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) عطف على ما تقدم، و(لكم) جار ومجرور متعلقان بـــ (يغفر)، و(اللّه) مبتدأ، و(غفور) خبر أول، و(رحيم) خبر ثان[1].

1 ــ ينظر إعراب القرآن وبيانه: 442/7.

ورتب على هذا الأمر بقوله (اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ) ما هو جواب شرط محذوف وهو جملة (يؤتكم كفلين[1]) الخ المجزوم في جواب الأمر، أي: يؤتكم جزاءً في الآخرة، وجزاء في الدنيا، فجزاء الآخرة قوله: (يؤتكم كفلين من رحمته)، وقوله: (ويغفر لكم)، وجزاء الدنيا قوله: (ويجعل لكم نوراً تمشون به).

ومن هذا النوع قوله تعالى: (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) [المنافقون:10] وفاء السببية عاطفة، و(يقول) فعل مضارع معطوف على (أن يأتي)، والفاعل مستتر يعود على أحدكم، و(لولا) حرف تحضيض بمعنى هلّا، والتحضيض الطلب الحثيث المضطر إليه، ويستعمل (لولا) للعرض أيضاً، والتوبيخ، والتنديم، والتمني على المجاز أو الكناية، و(أخّرتني) فعل ماض مبني على السكون، وهو بمعنى المضارع، لأن (لولا) التحضيضية تختص بالماضي المؤول بالمضارع، إذ لا معنى لطلب التأخير في الزمن الماضي، والتاء فاعل، والنون للوقاية، والياء مفعول به، و(إلى أجل) جار ومجرور متعلقان بـــ (أخّرتني)، و(قريب) صفة لـــ(أجل)، والفاء في (فأصدّق) عاطفة، و(أكن) فعل مضارع مجزوم بالعطف على محل (فأصدّق)، أي: إن أخّرتني أصدّق وأكن، واسم (أكن) مستتر تقديره: أنا، و(من الصالحين) خبرها.

و"قرى ء بنصب (أكون) وإثبات الواو، فتكون الواو للسببية، وأصدّق منصوب بـــ(أن) مضمرة بعد فاء السببية في جواب الطلب، أي: التحضيض"[2].

---

1 ــ جاء في البحر المحيط: " قال أبو موسى الأشعري: كفلين: ضعفين بلسان الحبشة. انتهى، والمعنى: أنه يؤتكم مثل ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله: (أُوْلَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ)، إذ أنتم مثلهم في الإيمانين، لا تفرقوا بين أحد من رسله، وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، وادعوا الفضل عليهم، فنزلت، وقيل: النداء متوجه لمن آمن من أهل الكتاب، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى، آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، يؤتكم الله كفلين، أي نصيبين من رحمته، وذلك لإيمانكم بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وإيمانكم بمن قبله من الرسل، (وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ): وهو النور المذكور في قوله: (يَسْعَى نُورُهُم)، ويغفر لكم ما أسلفتم من الكفر والمعاصي، ويؤيد هذا المعنى ما ثبت في الصحيح: (ثلاثة يؤتهم الله أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي) الحديث . البحر المحيط: 227/8.

2 ــ إعراب القرآن وبياته: 523/7.

وحق الفعل بعدها أن يكون مضارعاً وإنما جاء ماضياً هنا لتأكيد إيقاعه في دعاء الداعي، حتى كأنه قد تحقق، مثل (أَتَى أَمرُ اللهِ) [النحل:1]، وقرينة ذلك ترتيب فعلَيْ (فأصدق وأكن من الصالحين) عليه.

قال أبو حيان: "(لَوْلا أَخَّرْتَنِى): أي هلا أخرت موتي إلى زمان قليل؟ وقرأ الجمهور: فأصّدّق، وهو منصوب على جواب الرغبة؛ وأبي وعبد الله وابن جبير: فأتصدق على الأصل، وقرأ جمهور السبعة: (وَأَكُن) مجزوماً"[1].

وذكر الزمخشري محمل القراءة بجزم (أكن) بقوله: "(وَأَكُن) بالجزم عطفاً على محل (فَأَصَّدَّقَ)، كأنه قيل: إن أخرتني أصدق وأكن"[2].

وقال ابن عطية: "وقرأ جمهور السبعة والناس (وأكن) بالجزم عطفاً على الموضع، لأن التقدير: إن تؤخرني أصدق وأكن، هذا مذهب أبي علي الفارسي، فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا، وهو أنه جزم (وأكن) على توهم الشرط الذي يدل عليه بالتمني، ولا موضع هنا، لأن الشرط ليس بظاهر، وإنما يعطف على الموضع، حيث يظهر الشرط كقوله تعالى: (مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ)، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع (فَلاَ هَادِيَ لَهُ)، لأنه لو وقع هنالك فعل كان مجزوماً"[3].

وعاد أبو حيان لينتقد مذهب سيبويه الذي ذكره ابن عطية بقوله: "والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم: أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مؤثره، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأثره موجود"[4].

فقراءة الجمهور لـــ (أكن) مجزوماً بسكون آخره على اعتباره جواباً للطلب مباشرة لعدم وجود فاء السببية فيه، واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة وليست عاطفة مفرداً على مفرد، وذلك لقصد تضمين الكلام معنى الشرط، زيادة على معنى التسبب، فيغني الجزم عن فعل شرط، فتقديره: إنْ تؤخرْني إلى أجل قريب أَكُن من الصالحين، جمعاً بين التسبب المفاد بالفاء، والتعليق الشرطي المفاد بجزم الفعل.

---

1 ــ البحر المحيط: 270/8.

2 ــ الكشاف: 544/4.

3 ــ المحرر الوجيز: 315/6 ــ 316.

4 ــ البحر المحيط: 270/8.

وإذ قد كان الفعل الأول هو المؤثر في الفعلين الواقِع أحدهُما بعد فاء السببية والآخرُ بعد الواو العاطفة عليه، فقد أفاد الكلام التسبب والتعليق في كلا الفعلين، وذلك يرجع إلى مُحسن الاحتباك، فكأنه قيل: لولا أخرتني إلى أجل قريب فَأَصَّدَّقَ وأكونَ من الصالحين، وإن تؤخرني إلى أجل قريب أصَّدَّقْ وأكُنْ من الصالحين[1].

ومن لطائف هذا الاستعمال أن هذا السائل بعد أن حثَّ سؤالَه أعقبه بأن الأمر ممكن، فقال: إن تؤخرني إلى أجل قريب أصَّدق وأكن من الصالحين، وهو من بدائع الاستعمال القرآني لقصد الإيجاز وتوفير المعاني.

ومن أجوبة الأمر قوله تعالى: (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) [المعارج:42]) والفاء للفصيحة، أي: إذا تبين أنه لا يفوتنا ولا يعجزنا إنزال ما نريده بهم فذرهم، و(ذرهم) فعل أمر من (وذر)، وفاعل مستتر، ومفعول به، و(يخوضوا) فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب، و(يلعبوا) عطف على (يخوضوا)، و(حتى) حرف غاية وجر، و(يلاقوا) فعل مضارع منصوب بـــ(أن) مضمرة بعد حتى، والواو فاعل، و(يومهم) مفعول به، و(الذي)صفة لـــ (يومهم)، وجملة (يوعدون) صلة الموصول، وهو فعل مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعل.

وجملة (يخوضوا) وجملة (ويلعبوا) حالان من الضمير الظاهر في قوله: (فذرهم)، والتقدير: فذر خوضهم ولعبهم ولا تحزن لعنادهم وإصرارهم.

و"تعدية فعل (ذَرْ) إلى ضمير (هم) من قبيل توجه الفعل إلى الذات، والمراد توجهه إلى بعض أحوالها التي لها اختصاص بذلك الفعل، مثل قوله تعالى: (حُرِّمَت عَلَيْكُمُ المَيْتَة) [المائدة:3] أي حرم عليكم أكلُها.

وقد يتوسل من الأمر بالترك إلى الكناية عن التحقير وقلة الاكتراث، أي: لا تكترث بهم، فإنهم دون أن تصرف همتك في شأنهم، مثل قوله تعالى: (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسكَ عَلَيهِم حَسَرَاتٍ)"[2] [فاطر:8].

1 ــ ينظر التحرير والتنوير: 245/28.

2 ــ التحرير والتنوايز: 182/29.

وجزم (يخوضوا ويلعبوا) في جواب الأمر للمبالغة في ارتباط خوضهم ولعبهم بقلة الاكتراث بهم، إذ مقتضى جزمه في الجواب أن يقدر: أن تذرهم يَخوضوا ويلعبوا، أي: يستمروا في خوضهم ولعبهم وذلك لا يضيرك، ومثل هذا الجزم كثير نحو (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [الجاثية:14].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)[نوح:10ــ11]، وفيها الفاء عاطفة، و(قلت) فعل وفاعل، و(استغفروا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، و(ربكم) مفعول به، وإن، واسمها، وجملة (كان) خبرها، واسم (كان) مستتر تقديره: هو، و(غفارا) خبرها، وجملة (استغفروا) مقول القول، وجملة (إنه كان غفارا) لا محل لها من الإعراب، و(يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً) (يرسل) فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب، والفاعل مستتر يعود على اللّه تعالى، و(السماء) مفعول به، و(عليكم) متعلقان بـــ (يرسل)، و(مدرارا) حال من السماء.

و"معنى (استغفروا ربكم): ءامنوا إيماناً يكون استغفاراً لذنبكم فإنكم إن فعلتم غفر الله لكم،وعلّل ذلك لهم بأن الله موصوف بالغفران، صفة ثابتة تعهد الله بها لعباده المستغفرين، فأفاد التعليل بحرف (إنَّ)، وأفاد ثبوت الصفة لله بذكر فعل (كان)، وأفاد كمال غفرانه بصيغة المبالغة بقوله (غفّاراً)، وهذا وعد بخير الآخرة، ورتب عليه وعداً بخير الدنيا بطريق جواب الأمر، وهو (يُرسل السماء عليكم)"[1].

ويدخل ضمنيا في هذا النوع ما تضمن معنى الشرط نتيجة التقديم والتأخير الحادث في تركيب الجملة من ذلك قوله تعالى: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧)وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) [الإنشراح:7ــ8]

فالفاء عاطفة، و(إذا) ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب، وجملة (فرغت) في محل جر بإضافة الظرف إليها، والفاء رابطة، و(انصب) فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، و (إلى ربك) جار

1 ــ التحرير والتنوير: 197/29

وجرور متعلقان بـــ (ارغب) ولا تمنع الفاء من ذلك، و(ارغب) فعل أمر، والجملة عطف على ما قبلها.

وبغض النظر عن (إذا) فإن الفاء في قوله: (فانصب) [الشرح:7] وقوله: (فارغب) رابطة للفعل، لأن تقديم المعمول يتضمن معنى الاشتراط والتقييد، فإن تقديم المعمول لما أفاد الاختصاص نشأ منه معنى الاشتراط، وهو كثير في الكلام قال تعالى: (بلِ اللهَ فاعبُد) [الزمر:66]، وقال: (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) [المدثر:3ـــ5]، وفي تقديم المجرور قال تعالى: (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [المطففين:26]، ومن ذلك قوله تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)[يونس:58]، فلما قدم المجرور وهو (بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ) حصل بتقديمه معنى الشرط، فقرنت الجملة بعده بالفاء التي تربط الجواب لقصد إفادة معنى الشرط.

وإلى هنا ينتهي هذا الفصل المتعلق بالجملة الشرطية، فلا غرابة أن نرى تنوعا في استخدام البنى والأدوات فيه، من جازم وغير جازم، ولازم وغير لازم، مما توافقه القواعد النحوية، وما حادت عنه تلك القواعد، ذلك أن القرآن أحسن الحديث، و أفضل الأخبار، لأنه اشتمل على أفضل ما تشتمل عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكوين الإنسان، والعقل، وبثّ الآداب، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغَيْن حدّ الإعجاز.

الخـــاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخـــاتمـــة

إنّ تعدد الظواهر اللغوية المتعلّقة بالجملة في الربع الأخير من القرآن الكـــريم يمكـــن الباحث والدّارس من أن يستشرف على كل ظاهرة منها ويقيم لها مبحثا مستقلا، وعلـــى ضوء هذه الدراسة لتلك الظواهر يمكن لنا أن نستخلص النتائج الآتية التي تتضمّن الإجابـــة عن إشكالية هذا البحث:

– بروز دقة طبيعة البلاغة في مساءلتها لموقعية كل كلمة في الجملة ما جاء منها على الأصل، وما جاء على خلافه، مباينة غيرها من العلوم في هذه الدقة المتناهية.

– إنّ أسلوب الخبر في الخطاب القرآني لا يعني ما هو متعارف عليه مـــن أن يقـــال لقائله إنّه صادق أو كاذب، بل نعني فيه إثبات ما هو ثابت في الخطاب ونفي ما هو منفـــي بذلك ممّا ليس هو بطلب، فالقرآن كلّه صدق وحق وإن أطلق عليه خبرا.

– جاء تركيب الجملة الاسمية المثبتة بصور متنوّعة، ظهـــر فيهـــا المبتـــدأ والخـــبر بأوضاعهما المتعدّدة من حيث التعريف و التنكير، والتقديم والتأخير، فرأينا المبتدأ معرفا بـــ (ال)، أتي به للدلالة على التعريف، والتبيان، والاهتمام، والحصر، والاختصاص، و لم يختلف التعريف بالإضافة كثيرا عن ذلك، والاسم الموصول الذي واكب (ال) التعريف في دلالتـــه على العهد والحقيقة.

– الصلات أو الزيادات سواء كانت أحرفا أو أسماء أو أفعالا فيها أسرار بلاغية بالغة الدقة، تصل إلى حد التغيير في الدلالة الأسلوبية، بأن تكسب الموصول معنى الشرط لإفـــادة التعليل.

– يستحضر اسم الإشارة في تركيب الجملة مواصفات الذات التي يشير إليها وكأنها ماثلة للعين، مما يجعله يصنف قبل الكثير من المعارف.

– ابتدئ بالنكرة لإفادة لمعنى الدعاء، والتهديد، والتفصيل، والوصف. كما أتى الخبر جملة فعلية للدلالة على التجدد والتكرار، وورد مفردا ومتعددا بالعطف وبغير عطف، سواء كان كلمات مفردة أم جملا.

– وظف الأسلوب القرآني الجملة الاسمية الموسعة بتراكيبها المختلفة توظيفا دقيقا حسب السياق، فشهدنا دخول (إنّ) على الجمل الاسمية للاهتمام بالخبر، مع توكيده وتقويته، بإضافة لام التوكيد والقسم أحيانا، وكانت أم بابها لكثرة تواردها في الجملة،وتلتها (لكن).

– استعملت (كان) في الجملة في هذا الربع من القرآن بمختلف صياغاتها لإفادة الدوام والاستمرار، ولتنزيل المستقبل منزلة الماضي، واستعمل من أخواتها الفعل (صار)، و لم يخرج في دلالته عن مضمون (كان).

– لا يتوقف وجود النواسخ في الجملة عند الدلالة العامة للكلمة، بل يجعل منها كائنا يتلون وفقا و الموقف، فجمع توظيفها بين صحة المعنى واللفظ، ومشاكلة ما قبلها من الآي، مما يضفي عليها في كل مرة لباسا خاصا لا يبخل بعطاءاته الدلالية و البلاغية المتجددة.

– وردت الجملة الاسمية المنفية أقلّ من سابقتها، واستعمل فيها فعل الكون المنفي لقصد المبالغة في النفي أو توكيده، أو الإيهام والتهويل، وجاء النفي بـــ (ما) و(لا) للدلالة على دوام الحكم وثباته، ولنفي الجنس، و(لات) في موضع واحد مشهور.

– استعملت الجملة الفعلية المثبتة بكلّ أنماطها استخدم فيها الفعل اللازم، والمتعـــدي، كما نزّل الفعل المتعدي منزلة اللازم لأغراض متعددة، وتنوعت حروف التعدية بما يلائم كل مقام، وقد يتعدى الفعل المفعول الظاهر إلى المفعول المضمر، لقصد الانحراف بالدلالة لغـــير الظاهر، وقد يؤتى بالمفعول جملة، وقد يؤتى به مفردا لملمح بلاغي معين.

– شهدنا في الجملة الفعلية دخول اللام وسوف على الفعل المضارع من غير توكيـــده بالنون على خلاف القاعدة النحوية في اشتراط ذلك، في قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ) [الضحى:5]

– حينما يتركز اهتمام الجملة القرآنية على الحدث دون المحدِّث فـــإن الفعـــل يـــبنى للمفعول (للمجهول) دون أن يسند إلى فاعل معلوم، أو ينحرف الأسلوب نحـــو المطاوعـــة والمجاز.

– تتبع تباين ورود صياغة أسلوب فعل معين في الغرض نفسه في الجملـــة القرآنيـــة يكشف جانبا من جوانب دلالات التركيب من شأنه أن يثري الدرس البلاغي، مثلما يتجلى ذلك في الفروق التي تحدثها حروف التعدية.

– تبين لنا في تتبعنا للجملة الفعلية المنفية في الربع الأخير من القرآن توظيف بارع ومتنوع لحروف النفي، إذ ورد معظمها منفيا بـ (لا) لشموليتها، فاستعملت لإفادة العموم، ونفي الجنس، ودلت على تجدد حالة النفي، واختلفت عن (لن) في كونها دالة على الحال، و(لن) على الاستقبال، كما جاء النفي بـ (ما) لاختصاصها بالدخول على المضارع والماضي، و(لم)، و(لّما) أختها، دالة على أن النفي بها متصل بزمان التكلم، إذ المنفي بها متوقع الوقوع، وهي دلالة من مستتبعات التراكيب، وهذا من دقائق العربية.

– شكّل الاستفهام معظم جمل الطلب وكان غالبه بالهمزة لمرونتها في الدخول على الأسماء والأفعال، ثم (هل)، و(من)، و(كيف)، و(كم)، و(كأيِّن)، و(متى)، و(أنّى)، وخرج فيها إلى معان أخرى كالإنكار، والتوبيخ، والتهديد، والنفي، والتسوية، والتجهيل، والدهشة والاستغراب من أهوال القيامة، كما استعمل الاستفهام في التقرير والإلجاء في جانب المشركين أو أهل الكتاب، والعرض، والتحضيض، والاستعطاف، والتشويق، والتنبيه في جانب المؤمنين، وكان ذلك مع جلّ أدواته اسما كانت أم حرفا، ماعدا (كيف) التي وُظِّفت للدّلالة على الحال.

– تنوّعت بنية الأمر من خلال استثمار مجمل صيغه، فمن الأمر بصيغة الفعل، إلى الأمر بالمصدر، واسم فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، وذلك تفّننا في أساليب الإبلاغ، وتوجيها للدّلالة وفقا للمقاصد الشرعية من إيجاب لشيء أو استحبابه أو إباحته، كما انتدب الأمر في بعض الصيغ للدّلالة على: التعجيز، والاحتقار، والتحذير، والإهانة ، والوعيد، والتسوية في جانب المشركين، أو الامتنان، والدعاء، والاهتمام، والدوام، والتجديد، في جانب المؤمنين.

– جاء أسلوب النهي بالطريق المعتاد وهو المضارع المقترن بـ (لا) الناهية، أو بطريق الإخبار بفعل النهي أو لازمه الذي هو فعل التحريم في بعض أحواله، بصيغة المفرد تارة، وبصيغة الجمع تارة أخرى، وخرج النهي إلى الدلالة على الإرشاد أو التوجيه، والتحذير، والتسوية، والاهتمام، والدعاء، والتعريض، أو التنبيه لأمر مغفل عنه، وذلك حسب ما يقتضيه المقام.

– دلّت قلّة نسبة جمل النهي في مقابل جملتي الأمر والاستفهام على قصر المحظورات في أشياء محدودة، لكنّها عظيمة الخطر سواء تعلّق أمرها بالاعتقاد أو نظام الحياة بشكل عام، وعلى سعة هذا الدّين ويسره ولطف الله بعباده.

– لمسنا تفننا وتنوعا في استخدام أسلوب التمني والنداء وذلك بحسب ما يليق بالمُنَادِي وبالمنادَى في كل مقام، إضافة إلى أنه قد يقترن بأمر ونهي أو استفهام أو خبر، فيهدي إليك ثوبا جديدا من المعاني، ما كنت لتصل إليه لولا ذلك الرصف والبناء العجيب.

– استثمرت جملة الشرط في الربع الأخير من القرآن مختلف البنى النحوية، ومعظم الأدوات: الحرفية منها، والاسمية، والظرفية، الجازمة وغير الجازمة، مع أن أغلبها جاء بـ (إن) إذ هي أم الباب، خدمة لمقصدية الخطاب القرآني ومراعاة لمقتضيات السياق والمقامات.

– ذكر المفسرون أغراضا وأسرارا في وصف بنية الجملة في التوكيد، والتعريف، والتقديم، والحذف، والخبر، والإنشاء لم يذكرها البلاغيون والنحاة.

– المقام البلاغي هو الفيصل في تحديد الدلالة البلاغية عند تماثل صور تركيب الجملة، وعند اتحادها لفظا ومعنى.

– تميّز التقديم والتأخير بحضوره الخاص في الجملة النحوية في الربع المدروس، إذ كثيرا ما نجد العنصر اللغوي يتقدم عن مكانه الأصلي لإفادة تقوية الحكم، أو اهتمام به، أو تنويه بشأنه، أو توكيده، أو قصد حصر أو تخصيص.

– يعدّ الحذف ظاهرة نحوية لها تعلُّق أساسي بالبنية فإلى جانب قيمة الإيجاز في التعبير، فإنّ أي نمط من أنماط الحذف سيق لمزيد بيان، وتقريب الصورة من الأذهان، وأتى على أنماط متعدّدة، بدءً بحذف المفردة مهما كان موقعها النحوي، ووصولا إلى حذف جملة بأكملها، وفي كل تركيب يفضي الحذف إلى سر بلاغي.

– شكّل الالتفات لبنة يمتزج فيها النحو بالبلاغة، فيتلوّن الضمير وفقه في بنية الآية بحسب مقامات الخطاب، ويتقلّب من التكلّم إلى الخطاب أو إلى الغيبة أو عكسهما، مساهما بذلك في تجديد نشاط المُتلقّين واستجلاب صفائهم وإشراكهم في الخطاب.

– تعدّ المفردة إحدى أهمّ جزئيات النّظم بموافقتها للسياق الكلّي الناشئ عن العلاقات النحوية، من خلال توظيفها المتميّز، سواء كانت اسما أو فعلا، لتضفي على النص القرآني أثرا جماليا بدلالتها المعجمية، أو أوزانها الصرفية، أو إيقاعات أصواتها وحركاتها

المتناسقة، فاتّسمت بجمال الشكل والمضمون في الجمع بين قوّة التأثير ومتعة الإنغام، فكان لها بريق يرتسم في الحس والوجدان بما تنميه من سحر وبيان، وجعل منها مناطا آخر للإعجاز.

– وظف الأسلوب القرآني كل إمكانات التعبير المحتملة والموجودة في اللغة، لإيصال رسالته الاعتقادية أو التشريعية في أحسن صورة، وفي أروع سبك، كاشفا عن ثراء دلالي وبلاغي يقف المرء مبهورا حياله.

ولا شكّ أنّ البحث في لغة القرآن الكريم ممتع على صعوبته، وهذا لأنّ الدّارس فيه لا يُحرم استفادة منه، فحيثما يمّم الباحث وجهته لاح له من عظيم النتائج ما يبهره، وفتح له من أبواب العلم ما لم يكتشفه سلف، فمازال للباحثين جوانب كثيرة يمكنهم دراستها ومعرفة أسرارها من هذه اللغة المباركة، وفي هذا الكتاب المقدّس.

وأخيرا آمل أن أكون قد وفقت في عملي المتواضع هذا، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان غير ذلك فهو من نفسي ومن الشّيطان، فالله أسأل أن يتجاوز عني ما كان فيه من الزّلل والنقصان.

الفهارس

فهرس الشواهد الشعرية
قائمة المصادر والمراجع
فهـــرس الموضـــوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الشواهد الشعرية

صاحب الشاهد	الشاهد	الصفحة
المتنبي	كالبـــــدر من حيث التفت رأيته يهدي إلى عينيك نـــورا ثاقبا كالبحر يقذف للقـــريب جواهرا جودا، ويبعث للبـــعيد سحائبا كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا	003
حاتم الطائي	ولله صعلوك يساور همـــــّه ويَمضي على الأحداث والدّهر مُقدما فتى طَلَبات لا الخَمص تُرحة ولا شُـبْعةً إن نـــــالها عدّ مغنـــما فذلك إن يهلك فحُسنى ثناؤُه وإن عاش لم يقعد ضـــــــعيفا مذمما	020
النابغة الذبياني	وقد خفت، حتى ما تزيد مخافتي على وَعِــلٍ، في ذي المطارة، عـــاقل	025
كعب بن زهير	فلهو أخوف عندي إذ أكلـــمه وقيل إنك مـــأســور ومقتـــول من ضيغم بثراء الأرض مخـــدره ببطن عـــثر غـــيل دونه غـــيل	026
حسان بن ثابت	قوم إذا حاربوا ضَرّوا عـــدوَّهم أوحاولوا النفعَ في أشياعهم نفَعوا سَجية تلكَ فيهم غير مُحــــدثة إنَّ الخَلائق فاعَــلمْ شرُّها البدَع	028
جرير	كَسَا اللُّؤمُ تَيمًا خُضرَةً فِي جُلُودِهَا فَـــوَيلًا لِتَيْمٍ مِن سَرَابِيلِهَا الخُضـــرِ	035
امرؤ القيس	فأقبلت زحـــفا على الركـــبتين فثـــوبٌ لبست وثـــوبٌ أجـــر	036
الأعشى ميمون	وأنكرتني وما كان الذي نَكِرَتْ من الحوادث إلا الشيبَ والصَّلَعا	044
مجهول القائل	فـــغَنِها وهـــيَ لـــكَ الفِـــداءُ إنّ غـــناءَ الإبـــلِ الحـــداءُ	049
طرفة بن العبد	ولسْتُ بحَـــلاَّل التـــِّلاع مخـــافةً ولكنْ متى يستَرفد القـــومُ أرْفِـــدِ	084
المتنبي	لقد تَصبرت حتى لاتَ مصطبـــَرِ فالآن أقحـــم حـــتى لات مقتحمِ	086
خطام المجاشعي	وغـــير ود جـــادل أو وديــــن وصـــاليات كـــكما يـــؤثفـــين	089
البحتري	شَـــجوُ حُسّـــاده، وغيظُ عِـــداه أنْ يَرَى مُبْـــصِر وَيَسْـــمَع وَاعٍ	098
امرؤ القيس	فظل طهاةُ اللحـــم ما بين مُنضِج صَفيف شِـــواء أو قَدير مُعَجَّـــل	119
النابغة الذبياني	لا مـــرحباً بغـــدٍ ولا أهـــلاً به إن كان تفـــريق الأحبة في غـــدِ	135
الأعشى ميمون	أحـــل بـــه الشـــيب أثْقـــالـــه وما اغـــتره الشـــيبُ إلا اغترارا	139
الخنساء	ولَـــولا كثرة الباكـــين حـــولي عـــلى إخـــوانهم لقتلتُ نفـــسي	148
طرفة بن العبد	ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي	160
الأعشى ميمون	وربَّ بقيع لو هتفت بجوه أتاني كـــريم ينفـــض الرّأس مغضبـــا	206
المعرّي	وإنْ شئتَ فازعُم أنَّ مَن فوقَ ظهرها عَبيدُكَ واستَشْهِدْ إلَهَكَ يَشْهَـــدِ	223
الحطيئة	مَـــتى تَأته تَعْشُو إلى ضَـــوْءِ ناره تَجِـــدْ حَطَبا جَزْلا وَنارًا تَأَجَّجا	237
غير منسوب	يمـــارس نفسا بين جنبيه كـــزّة إذا همّ بالمعـــروف قالت له مهلا	240

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم. رواية حفص عن عاصم.

001- أساليب الاستفهام في القرآن. عبد العليم السيد فودة. مؤسسة دار الشعب. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. نشر الرسائل الجامعية. (دت).

002- أساليب النفي في القرآن. أحمد ماهر البقري . دار المعارف . مصر . 1980م.

003- أساليب بلاغية. أحمد مطلوب. دار غريب للطباعة. الطبعة الأولى. (دت).

004- الأسلوب دراسة لغوية إحصائية. سعد مصلوح. دار البحوث العلمية. القاهرة. الطبعة الأولى. 1980م.

005- أشتات مجتمعات في اللغة و الأدب. عباس محمود العقاد. دار المعارف. مصر. 1963م.

006- الأصول في النحو. أبو بكر محمد بن سهل النحوي المعروف بابن السّراج (ت 316هـ). تحقيق عبد الحسن الفتلى. مطبعة النعمان. النجف. 1973م .

007- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصطفى صادق الرافعي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 2000م.

008- إعجاز القرآن. أبو بكر الباقلاني. تحقيق أحمد صقر. ،دار المعارف. مصر، الطبعة الرابعة، (د ت)

009- إعراب القرآن وبيانه. تأليف الأستاذ: محي الدين الدرويش. دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق. بيروت. الطبعة السابعة. 1420هـ. 1999م.

010- الألسنية العربية. طحان ريمون. دار الكتاب اللبناني . بيروت الطبعة الثانية. 1981م.

011- الإيضاح في علوم البلاغة. للخطيب الغزويني. تحقيق لجنة من أساتذة الأزهر. مطبعة السنة المحمدية. (دت).

012- البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر. أحمد مختار عمر. عالم الكتب. القاهرة.الطبعة السادسة. 1988م.

013- بدائع الفوائد. ابن القيم. المطبعة المنيرية. (دت).

014- البرهان في علوم القرآن. الزركشي. تحقيق أبي الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. ط1. 1957م.

015- البلاغة العربية تأصيل وتجديد. الصاوي الجويني. مطبعة شركة آلات ولوازم المكاتب بالإسكندرية. منشأة المعارف بالإسكندرية. دت.

016- البلاغة العربية قراءة أخرى. محمد عبد المطلب. الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان. 1997م.

017- البلاغة الواضحة. لعلي الجارم ومصطفى أمين. مطبعة المعارف. الطبعة الأولى. 1349هـ. 1930م.

018- البلاغة تطور وتاريخ. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الثامنة. (د ت)

019- البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري. رابح دوب. دار الفجر للنشر والتوزيع. القاهرة. الطبعة الأولى. 1997م .

020- البيان والتبيين. أبو عثمان الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. نشر الخانجي. القاهرة. 1948م.

021- التبيان في إعراب القرآن. لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري. تحقيق :محمد علي البجاوي. دار الجيل. بيروت.الطبعة الثالثة. 1987م

022- التعريفات. السيد الشريف على بن محمد بن محمد الجرجاني. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر. 1357هـ.1938م.

023- التعليقات الوافية على شرح الأبيات الثمانية (نحو الجمل) عبد العزيز الهادي: دراسة وتحقيق: مختار بوعناني. منشورات الفجر وهران. الجزائر. 1995م.

024- تفسير البحر المحيط. المؤلف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود . والشيخ علي محمد معوض. شارك في التحقيق:زكريا عبد المجيد النوقي. أحمد النجولي الجمل. دار الكتب العلمية .الطبعة الأولى. لبنان. بيروت.1422 هـ - 2001م.

025- التفسير البياني للقرآن الكريم. المؤلف: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء). دار المعارف. القاهرة. الطبعة السابعة.
026- تفسير البيضاوي. المؤلف: البيضاوي. دار الفكر. بيروت. دت.
027- تفسير التحرير والتنوير. الشيخ محمد الطّاهر بن عاشور. دار سحنون للنشر والتوزيع. تونس. دت.
028- تفسير القرآن العظيم. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (700 -774 هـ). تحقيق: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية. 1420هـ - 1999 م
029- تفسير القرآن الكريم (التفسير القيم): محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. تحقيق مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية. إشراف الشيخ إبراهيم رمضان.دار ومكتبة الهلال. بيروت. 1410هـ.
030- التوجيه النحوي للقراءات في سورة البقرة. الطاهر قطبي .ديوان المطبوعات الجامعية. بن عكنون. الجزائر . 1991م.
031- جامع البيان في تأويل القرآن. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ت310 هـ.المحقق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى. 1420هـ .2000 م.
032- الجامع لأحكام القرآن. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى:671 هـ).تحقيق : هشام سمير البخاري. دار عالم الكتب. الرياض . المملكة العربية السعودية. الطبعة: 1423 هـ/ 2003 م.
033- حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل. مطبعة دار إحياء الكتب العربية. (دت).
034- حاشية الدسوقي على المغني. مكتبة ومطبعة المشهد الحسني. مصر. (دت).
035- حاشية الصبان على شرح الأشموني. دار إحياء الكتب العربية. (دت).
036- الحيوان. أبو عثمان الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الثالثة. 1969م.
037- خصائص التراكيب. محمد أبو موسى. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الثالثة.

038- الخصائص. أبو الفتح عثمان ابن جني. تحقيق: محمد على النجار. مطبعة دار الكتب المصرية.

038- الخصائص. أبو الفتح عثمان ابن جني. تحقيق محمد على النجار. المكتبة العلمية. (دت).

039- درة التنزيل وغرة التأويل. الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ت420هـ . دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفي آيدين. جامعة أم القرى.2001م. المملكة العربية السعودية.

040- دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تعليق محمود شاكر. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الثانية 1989م.

040- دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. دار المنار. مصر.1366هـ .

041- ديوان أبي العلاء المعري (سقط الزند). دار صادر للطباعة والنشر. بيروت. 1957م.

042- ديوان الأعشى ميمون بن قيس. شرح وتعليق محمد حسين. مكتبة الآداب بالجماميزت. المطبعة النموذجية. (دت).

043- ديوان البحتري. عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي. دار المعارف. القاهرة. مصر. الطبعة الثالثة. (دت)

044- ديوان الخنساء. تحقيق و شرح كرم البستاني. دار صادر بيروت . الطبعة الأولى. 1996م .

045- ديوان المتنبي. تحقيق: يحي شامي. دار الفكر العربي بيروت. الطبعة الأولى. 1997م.

046- ديوان النابغة الذبياني. اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس. دار المعرفة. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. 2005م.

047- ديوان امرؤ القيس. اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي. دار المعرفة. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. 2004م.

048- ديوان جرير. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت. 1986م.

049- ديوان حاتم الطائي. حاتم الطائي. دار صادر. 1981م.

050- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري. شرح عبدأ مهنّا. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. 1994م.

051- ديوان كعب بن زهير.حققه وشرحه وقدّم له الأستاذ علي فاعور. منشورات دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 1997م.

052- رسائل الجاحظ. (العثمانية). تحقيق: عبد السلام هارون. نشر السندوبي. 1352 هـ.

053- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. المؤلف: محمود الألوسي أبو الفضل. دار إحياء التراث العربي. بيروت. (دت).

054- رياض الصالحين. الإمام النووي. تحقيق هاني الحاج. دار الإمام مالك. البليدة. الجزائر. دت

055- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. ابن عقيل. تحقيق :محي الدين عبد الحميد. دار الطلائع. القاهرة. 2004م.

056- شرح المعلقات السبع. الزوزني. دار الأفاق. الأبيار. الجزائر. دت

057- شرح المفصّل للزمخشري. موفق الدين ابن يعيش. طبع ونشر دار الطباعة المنيرية.

058- شرح قطر الندى وبل الصدى. ابن هشام الأنصاري. حققه محمد خير طعمة حلبي. دار المعرفة. بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة. 1998م.

059- شرح كافية ابن الحاجب. رضي الدين الاستراباذي. دار الكتب العلمية. بيروت. دت .

060- شروح التلخيص. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. بدون مؤلف.

061- الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها. أبو الحسن أحمد بن فارس. تحقيق و تقديم: مصطفى التومي. مؤسسة بدران للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. 1964م.

062- عروس الأفراح. ابن السبكي. ضمن شروح التلخيص. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

063- علم المعاني. درويش الجندي. مطبعة نهضة مصر. (د. ت)

064- علم المعاني. عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. 1404هـ. 1984م.

065- علوم البلاغة البيان و المعاني و البديع. أحمد مصطفى المراغي. دار الآفاق للعربية. القاهرة .الطبعة الأولى 2000م.

066- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي بن محمد الشوكاني. ضبطه وصححه أحمد عبد السلام. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1415هـ. 1994م.

067- الفريد في إعراب القرآن المجيد. ابن أبي العز الهمذاني. تحقيق: فهمي حسن النمر وفؤاد علي مخيمر. دار الثقافة. الدوحة. (د ت).

068- في أصول النحو. سعيد الأفغاني. دار الفكر. سوريا. الطبعة الثالثة. 1964م.

069- في النحو العربي (قواعد وتطبيق). مهدي المخزومي. مطبعة مصطفى البايلي. مصر. الطبعة الأولى. 1966م.

070- في النحو العربي (نقد و توجيه). مهدي المخزومي . المكتبة العصرية. لبنان. 1964م.

071- في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق. القاهرة.الطبعة الشرعية الخامسة عشرة. 1408هـ. 1988م.

072- القرآن الكريم تاريخيته ولغته. السيد عبد الغفار. دار المعرفة الجامعية. 1996م.

073- كتاب الأضداد. محمد بن القاسم الأنباري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية. بيروت. 1987م.

074- الكتاب. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت 180هـ). تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. 1977م.

074- الكتاب. سيبويه. مصور على طبعة بولاق. نشر مكتبة المثنى ببغداد.

075- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت538هـ. الكتاب مذيل بحاشية الإمام العلامة أحمد بن محمد المعروف بابن المنير. وتخريج أحاديثه للإمام الزيلعي. دار الكتاب العربي. بيروت.1407هـ.

076- كشف المشكل في النحو. على بن سليمان الحيدري اليمني ت 599هـ. تحقيق: هادي عطية مطر. مطبعة الإرشاد. بغداد. 1984م.

077- الكليات. أبو البقاء الكفوي. تحقيق عدنان درويش و محمد المصري. وزارة الثقافة. دمشق الطبعة الثانية 1981 –1982م.

078- اللغة العربية معناها ومبناها. تمام حسان. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة 1979م.

079- محاضرات في الألسنية. فريناند دو سوسير. ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر. منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة. 1986م.

080- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية.لبنان. الطبعة الأولى. 1413هـ .1993م.

081- مختصر النحو. الهادي الفضلي. دار الشرق. جدة. المملكة العربية السعودية. 1990م.

082- مدخل إلى دراسة اللغة العربية. محمود أحمد نخلة. دار النهضة العربية. بيروت. 1988م.

083- المدرسة النحوية في مصر والشام. عبد العال سالم مكرم. دار الشرق. الطبعة الأولى. 1980م.

084- المركب الاسمي الإسنادي وأنماطه من خلال القرآن الكريم. أبو السعود حسنين الشاذلي. دار المعرفة الجامعية.الإسكندرية. الطبعة الأولى. 1990م.

085- المطول: للتفتازاني. منشورات مكتبة الدواري. قم. إيران. دت.

086- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني. فتحي أحمد عامر. منشأة المعارف. الإسكندرية. القاهرة. (دت).

087- معاني القرآن للفراء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي و محمد علي النجار. مطبعة دار الكتاب المصرية. القاهرة. 1955م.

088- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. أحمد مطلوب. مطبعة المجمع العلمي العراقي. 1983م.

089- المعجم المفصل في النحو العربي. عزيزة قوال بابيتي. دار الكتب العلمية بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1992م.

090- معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى.1990م.

091- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ابن هشام الأنصاري.تحقيق وشرح عبد اللطيف محمد الخطيب.المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.1421هـ . 2000م.

092- مفاتيح الغيب. الرّازي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى.1411هـ. 1990م.

093- مفتاح العلوم. السكاكي. ضبط وتعليق: نعيم زوزور. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى 1983م.

094- المفردات في غريب القرآن. أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502 هـ). تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة.بيروت. لبنان. (د ت).

095- المقتضب. المبرد. محمد عبد الخالق عظيمة. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة. 1962م.

096- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل. أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي. دار الكتب العلمية. بيروت. (دت)

097- من أسرار اللغة. إبراهيم أنيس. المكتبة الأنجلومصرية. الطبعة السادسة. 1978م.

098- النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق. عبد الرزاق حسن إسماعيل. دار الطباعة المحمدية. مصر. الطبعة الأولى. 1980م.

099- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. برهان الدين البقاعي. خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. 1415هـ. 1995م.

100- النكت في إعجاز القرآن .ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز. أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 384 هـ) . تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام. دار المعارف بمصر. الطبعة الثانية. 1968م.

101- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع. جلال الدين عبد الرحمان السيوطي. تحقيق عبد السلام هارون و عبد العال سالم مكرم. دار البحوث العلمية. القاهرة. 1975م.

المراجع الأجنبية:

102 -Aspects de la théorie syntaxique. chomisky. trad :Jean claude.Milner. ed de seuil .Paris 1978

103 - La linguistique Cartesienne suivie de la nature formalle du langage. chomsky. trad :N Delance et D. Sperber . ed de seiul.Paris 1969

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

مقـــدمة .... أ
مدخـــل 7
القرآن الكـريم والجملة 7
1- أهمية القرآن في الدراسة النحوية و البلاغية : 2
2 - التعريف بالجملـــة : 8
- الجملة الخبرية: 12
الفصل الأول 14
- الجملة الاسمية: 15
1- الجملة الاسمية المثبتة : 16
أ-الجملة الاسمية البسيطة : 17
الابتداء بالمعرفة: 17
النمط الأوّل: المبتدأ معرفة والخبر معرفة 17
النمط الثاني: المبتدأ معرفة والخبر نكرة 24
النمط الثالث: المبتدأ معرفة والخبر جملة اسمية 27
النمط الرّابع: المبتدأ معرفة و الخبر جملة فعلية 29
الابتداء بالنكرة: 34
النمط الثاني: المبتدأ نكرة والخبر جملة فعلية 36
الرتبة : 36
النمط الأول: الخبر شبه جملة والمبتدأ معرفة 37
النمط الثاني: الخبر شبه جملة والمبتدأ نكرة 39
- الحــذف : 41
- حذف المبتدأ: 42
- حذف الخبر : 44
تعدد الخبر: 45
ب - الجملة الاسمية الموسعة: 49
الجملة الاسمية المنسوخة بـ"إنّ وأحواتها": 49
النمط الأول: إنّ واسمها ثمّ خبرها 49
النمط الرابع: لكنّ واسمها ثم خبرها 61
- الرتبة: 63
- تعدد الخبر: 64
الجملة الاسمية الداخلة عليها كان وأخواتها: 65
الحذف: 71
2 - الجملة الاسمية المنفية: 73
- الجملة الاسمية المنفية بفعل كون منفي: 74
- حذف نون (كان) المنفية: 76
- الجملة الاسمية المنفية بـ(ما): 80
- الجملة الاسمية المنفية بـ (لات): 85
- الجملة الاسمية المنفية بـ (لا): 86
الفصل الثاني 92
- الجملة الفعلية: 93
1- الجملة الفعلية المثبتة: 93

الجملة الفعلية ذات الفعل اللازم: 93
الجملة الفعلية ذات الفعل المتعدي: 99
ـ الفروق الدلالية للفعل المتعدي بالحرف: 113
ـ الجملة الفعلية ذات الفعل المتعدي لمفعولين : 120
الجملة الفعلية ذات الفعل الجامد: 125
الجملة الفعلية ذات الفعل المبني للمجهول: 126
2ـ الجملة الفعلية المنفية:..... 132
النفي بـ(لا):..... 132
النفي بـ(إن):..... 139
النفي بـ(ما):..... 141
النفي بـ(لم): 146
النفي بـ (لن):..... 147
النفي بـ (لمّا):..... 149
الفصل الثالث 151
ـ الجملة الطلبية: *152*
ـ أغراض الأمر ودلالاته:..... 154
طلب الدوام على الفعل المأمور به 154
تجديد العمل بفعل الأمر..... 154
التحذير 155
التهويل والتعجيب..... 155
التهديد..... 155
التسوية 156
التنكيل:..... 157
التثبيت: 157
الإهانة والتشفي:..... 158
التسخير والتعجيز:..... 158
توكيد الأمر بتكرار الفعل:..... 159
الاعتراض بين التفريع والمفرّع عنه: 160
الأمر بالجزء وقصد الكل: 161
الإباحة: 162
الاهتمام والوجوب والاستحباب: 163
ترتيب الأوامر لمقصد شرعي: 164
الإدامة:..... 165
الوعد والرجوع: 166
الدعاء:..... 167
2 ـ النهي: 168
أغراض النهي:..... 168
التسوية:..... 168
التذكير والإرشاد: 169
الاهتمام:..... 170
التحذير:..... 170
التعريض بالنهي هن طريق الإخبار:..... 172
الدعاء:..... 172

3 ـ الاستفهام: 175
أغراض الاستفهام: 177
النفي: 177
العرض والاستعطاف: 179
العرض والتشويق: 180
التهويل: 181
العجب والدهشة: 183
التنبيه: 186
توالي البنى الاستفهامية حسب الوجود والاحتياج: 186
فروق بسبب الزيادة في آداة الاستفهام: 187
التحضيض والتهييج: 188
التقرير: 189
الإنكار: 190
التوبيخ: 197
التكذيب: 198
التعجيب المشوب بالإنكار: 199
التعجيب: 199
4 ـ التمني والنداء: 201
التمني: 201
التمني بـ (لعلّ): 201
التمني بـ (ليت): 202
التمني بـ (لو): 202
التمني بـ (لولا): 205
النداء: 205
النداء بـ (يا): 206
حذف حرف النداء في الدعاء: 207
حذف المنادى: 207
المنادى المعرف الموصوف: 207
الاستعاضة عن الياء بالميم في لفظ (اللّهم): 208
المنادى المضاف إلى ياء المتكلم: 208
المنادى والترخيم: 209
الفَصْل الرّابع 212
ـ الجملة الشرطية: *213*
1ـ الشرط باستخدام الحروف: 215
الشرط بـ (أمّا): 215
الشرط بـ (لو): 217
الشرط بـ (إن): 224
الشرط بـ (إمّا): 233
الشرط بـ (لولا): 233
2ـ الشرط باستخدام الأسماء: 236
الشرط بـ (من): 236
الشرط بـ (ما): 243
3 ـ الشرط باستخدام الظروف: 245

الشرط بـ (إذا): 245
الشرط بـ (لمّا): 253
الشرط بـ (كلما): 253
4 - أجوبة التركيب الطلبية: 255
الخـاتمة 262
الفهارس 268
فهرس الشواهد الشعرية *269*
قائمة المصادر والمراجع: *270*
فهرس الموضوعات *279*
ملخص البحث باللغة العربية *283*
ملخص البحث باللغة الأجنبية (الأنجليزية) *285*

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص البحث باللغة العربية

يعدّ القرآن مصدر تأصيل للقواعد النحوية والأحكام الشرعية، وهو أحسن الحديث إذ احتوى على أفضل ما تشتمل عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكوين الإنسان، والعقل، وبثّ الآداب، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغَيْن حدّ الإعجاز، ومن كونه مصدقاً لما تقدمه من كتب الله ومهيمناً عليها.

ومن هنا جاء هذا البحث محاولة لكشف بعض خبايا بُنى النص القرآني وتراكيبه، وما أُودع فيها من أسرار الدلائل وعيون المعاني، ذلك أنّ إشكالية هذا البحث هي من قبيل القديم المتجدّد، وإن خرجت في كل عصر بحسب اصطلاحات أهله، فقد تناولها القدامى في بحثهم لعلاقة المعنى باللّفظ والمبنى.

ومن ثَمَّ أردت أن أجيب في هذا البحث عن معضلة تتعلّق بما سبق، تتمحور حول أثر التركيب النحوي للجملة القرآنية في الربع الأخير في توجيه الدلالة بصورة عامة، وما يمكن أن يضيفه تركيب الجملة من معان تكميلية أو ثانوية من شأنها أن تبرز الفرق بين البُنى التي تظهر أنّ لها نفس المضمون، أو تلك التي يتقارب منوالها التركيبي بصفة أخص.

وللإجابة عن هذا فقد تتبعت تركيبة الجملة النحوية في الربع المدروس انطلاقا من تصنيف الجملة في الكتب النحوية والبلاغية، ابتداء بالجملة الخبرية اسمية وفعلية، مثبتة ومنفية، ثم الجملة الطلبية التي تمثل الشق المقابل للخبر أو ما يسمّى بالإنشاء، وانتهاء بالجملة الشرطية على تقسيم بعض النحاة، وفي أثناء ذلك كنت أرصد الملامح البلاغية التي تتعلق ببنية ما فأسجلها، وما يظهر أحيانا من فروق دقيقة توحي بها زيادة بعض الحروف أو حذفها.

وقد تضمن الفصل الأول تركيب الجملة الاسمية المثبتة بصورها المتنوّعة، والتي ظهر فيها المبتدأ والخبر بأوضاعهما المتعدّدة من حيث التعريف، و التنكير، والتقديم والتأخير، المجرّدة من النّواسخ منها، أو ما هي منسوخة بـ (إنّ) وأخواتها أو(كان)

وأخواتها، جيء بها لقصد توكيد الخبر وتقويته، وهي في عمومها تضمّنت الدّلالة على ثبات الوصف ودوامه، أمّا الجملة الاسمية المنفية فوردت أقلّ من سابقتها.

وخصصت الفصل الثاني للجملة الفعلية المثبتة، وجيء بالفعل فيها ماضيا ومضارعا، دالّة على تجدّد الأمر الذي تقرّره، أمّا الجملة الفعلية المنفية فتم فيها الاستخدام البارع لأدوات النفي، حيث ورد معظمها منفيا بـ (لا) لشموليتها، و (ما) لاختصاصها بالدخول على المضارع والماضي.

وخصصت الفصل الثالث للجملة الطلبية، تنوّعت بنية الأمر في الربع المدروس من خلال استثمار مجمل صيغه، فمن الأمر بصيغة الفعل إلى الأمر بالمصدر واسم فعل الأمر والمضارع المقرون بلام الأمر، وذلك تفّننا في أساليب الإبلاغ، وتوجيها للدّلالة وفقا للمقاصد الشرعية من إيجاب لشيء أو استحبابه أو إباحته.

وشكّل الاستفهام معظم جمل الطلب وكان غالبه بالهمزة لمرونتها في الدخول على الأسماء والأفعال، وخرج فيها إلى معان أخرى كالإنكار والتوبيخ والتهديد، كما استعمل الاستفهام في التقرير والإلجاء،وجاء أسلوب النهي بالطريق المعتاد وهو المضارع المقترن بـ (لا) الناهية، بصيغة المفرد تارة، وبصيغة الجمع تارة أخرى، كما جاء النهي عن طريق الإخبار بفعل النهي أو لازمه الذي هو فعل التحريم في أكثر أحواله.

وفي الفصل الرابع تناولت الجملة الشرطية مقسما إياها حسب نوع الأداة.الحرفية منها، والاسمية، والظرفية، إضافة إلى أجوبة التراكيب الطلبية.

وقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن الجملة القرآنية ترتكز على صحة معانيها وأحكامها وابتنائها على الحق والصدق ومصادفة المحزّ من الحجة، وألفاظها متماثلة في الشرف والفصاحة والإِصابة للأغراض من المعاني، بحيث تبلغ ألفاظه ومعانيه أقصى ما تحتمله أشرف لغة للبشر، وهي اللغة العربية مفردات ونظماً، وبذلك كان معجزاً لكل بليغ عن أن يأتي بمثله، فجميع آيات القرآن بالغ الطرف الأعلى من البلاغة، وأنها متساوية في ذلك بحسب ما يقتضيه حال كل آية منها، وأما تفاوتها في كثرة الخصوصيات وقلتها فذلك تابع لاختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال.

ملخص البحث باللغة الأجنبية (الأنجليزية)

Abstract

The Koran source rooting for grammatical rules and legal provisions, which is best to talk it included the best of it involves the news of the meanings beneficial and the University of the assets of the faith, and legislation, and reasoning, and alert to the seriousness of the worlds and objects, and the wonders of composition rights, and the mind, and dissemination of literature, and call the minds of consideration and reasoning right, and the eloquence of his words and the eloquence of its meaning adults extent miracles, and being certified for its books and is dominant.

Hence this research is an attempt to uncover some mysteries built the Qur'anic text and their syntax, and deposited where the secrets of the evidence and the eyes of meanings, so that the problem of this research are such as the old renewed, and went out in every age according to the conventions of his family has dealt with veterans in their search of the relationship of meaning verbally and structure.

And then I wanted to answer in this search for a dilemma concerning the above, centered on the impact of the syntax of the sentence the Qur'an in the fourth quarter in guiding significance in general, and can add the sentence structure of meanings supplementary or secondary schools that will highlight the difference between the structures that appear to have the same content, or those that follow suit synthetic converges in particular.

To answer this it followed the structure of sentence grammar in the quarter studied based on the classification of sentence in the book of grammar and rhetoric, beginning with the wholesale news reporting nominal and real, proven and exiled, then the sentence order which is the part corresponding to the news of the so-called establishment, and the end of the sentence conditional on the division of some grammarians, In the meantime you trace rhetorical features that relate to the structure of the type them, and sometimes appears to suggest the nuances of the increase in some letters or deleted.

It included the first chapter syntax nominal proven in many ways, which showed the debutante and the news their formulas multiple terms of definition, and indefinite, and the presentation and the delay, the demilitarized Alnoasch, or what is copied to (if) and sisters (or was) Brought in to confirm the news and in order to strengthen it, which is predominantly included the significance of the description and the stability of Vortex, the exiled nominal sentence were received less than its predecessor.

And allocated the second quarter of the sentence proven physical, and brought already the past and the present a function of the renewal of which is determined, the actual sentence exiled We saw the use of intelligent tools for exile, reportedly, mostly in exile to (not) for its comprehensiveness, and (what) the competence to enter into the present tense and the past

And allocated the third quarter of the total order, varied structure of matter in the quarter studied by investing the entire formula, it is tense to the command source and the name of doing it and the present tense coupled with (lame) matter, and the slicker in the methods of reporting, and guidance to indicate, in accordance with the purposes of the legitimacy of obligatory to something or mustahabb or permissible .

And the form of question most of the phrases application and was predominantly Balhmzh the flexibility to enter the names and deeds, and came out with the other meanings as the disbelief and reprimand and threats, also used the question in the report and the harbor, came the way of forbidding the road usually is present tense is associated with (not) ius, in the singular, sometimes, and to form combination at other times, as is forbidden by telling by forbidding or necessary, which is an act forbidden in most conditions.

The fourth chapter dealt with the conditional sentence, broken down by type of tool. Artisanal, and nominal, and circumstantial. Add to Order Frequently compositions.

We found through this research that the sentence Quranic based on the health of their meaning and provisions of their structure on truth and honesty and coincidence Mahz of the argument, and wording that are identical in honor and eloquence and injury for the purposes of meanings, so of his words and meaning the maximum tolerated by Ashraf language for humans, the Arabic vocabulary and systems , there by incapable of each eloquently that comes in kind, all the verses of the Koran very upper end of rhetoric, and they are equally so as required by the case of each verse of which, and the variation in the large number of privacy and I said it continued to the different levels and requirements of the case.